وقفات عند آيات

سورة الزمر

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/٣/٩٣٢)

اسم الكتاب: "وقفات عند آيات سورة الزمر/ صخر عارف زايد
عمان: دار المأمون للنشر، ٢٠٠٨.
(٣٣٠) ص
ر.أ: (٢٠٠٨/٣/٩٣٢).
الواصفات:/سور القرآن// الآيات القرآنية// التفاسير/

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

وقفات عند آيات

سورة الزمر

وفيها ترجمة للآيات باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية

صخر عارف زايد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد،

هذا الكتاب ليس تفسيراً بقدر ما هو وقفات وتأملات عند آيات السورة، بل ربما عند كلمة محددة في الآية. فمثلاً وقفت عند أمر "الموت" في الآية: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾. ووقفت عند كلمة "الصابرون" في الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. ووقفت عند كلمة "المتوكلون" في الآية: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾. وأسهبت في الحديث حول "السماوات والأرض" في الآية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾. وهكذا...

وإثراءً للمتعة والفائدة أوردتُ عند كل وقفة بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تدور في نفس السياق، بالإضافة إلى أقوال العلماء والحكماء والشعراء الأوائل منهم والأواخر، وبعض أخبار الدراسات والأبحاث العلمية الحديثة المتعلقة بالموضوع مما قمتُ بجمعه وتمحيصه من بطون الكتب والمراجع كما تُجمع الدررُ

من قعر البحر!!. ولكوني جمعت تلك الأقوال والأشعار على فترات متباعدة من الزمن، ومن مصادر شتى، فإني أجد من المتعذر تحديد مصدر كل فقرة أو مقالة وردت في الكتاب، وليس لي فضل في ذلك إلا كفضل الغواص يلتقط اللآليء والدرر، أو كفضل النحل تجني من الأزهار والثمار ما ينفع الناس.

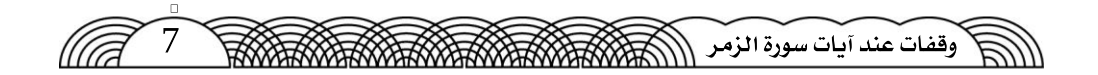
هذا وقد أوردت في نهاية الكتاب فهرساً بالموضوعات التي اشتمل عليها الكتاب ليتسنى للقاريء اختيار الموضوع الذي يرغب في قراءته مباشرة.

وأخيراً وليس آخراً أحببتُ أن يتضمن هذا الكتابُ ترجمة لآيات السورة باللغات الأكثر انتشاراً، الإنجليزية والفرنسية والألمانية، فقد يقع الكتاب بين يدي فرد من غير المسلمين فيقرأ معنى الآية بلغته، فتفتح بصيرته، فتكون سبباً في هدايته لهذا الدين العظيم!!.

أسأل الله الكبير المتعال أن يتقبل مني هذا العمل، وأن ينفع به، وأن يجعله في ميزان الحسنات يوم القيامة. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

عمّان في ١٦ شباط ٢٠٠٨م
٩ صفر ١٤٢٩ هـ

صخر عارف زايد



[1] The revelation of this Book (the Qur'ân) is from Allâh, the All-Mighty, the All-Wise.

[1] La révélation du Livre vient d'Allah, le Puissant, le Sage.

[1] Die Offenbarung des Buches stammt von Allah, dem Erhabenen, dem Allweisen.

(١) نقف في هـذه الآيـة عنـد كتـاب الله تعـالى. وهنـاك جملـة مـن الحقائق خلص إليها العلماء، أوجزها كما يلي:

- القرآن الكريم مسطورٌ منذ الأزل في اللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج ٢١، ٢٢]
- أنزل الله تعالى هذا القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام، في ليلة مباركة هي ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان ٣]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر ١]. وهذه الليلةُ هي من ليالي شهر رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ [البقرة ١٨٥].

- نزل القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ومن السماء الدنيا كان ينزل على الرسول ﷺ مفرقا حسب الأحداث والمناسبات. واستمر القرآن في النزول مدة ثلاث وعشرين سنة، وهي الفترة ما بين بعثة النبي ﷺ وقبيل وفاته. وهذا يعني أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كالكتب السابقة، وإنما نزل مقسطاً ومفرقاً في رمضان وغير رمضان من أشهر السنة. والحكمة في ذلك واضحة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان ٣٢].

وقوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء ١٠٦]. ومعنى فرقناه: أي نزلناه مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة. ومعنى على مُكث: أي على مهل و ترسُّل في القراءة ليفهموه.

- بيّن لنا القرآن الكريم أنّ اتصال الله سبحانه وتعالى بالبشر، لا يتم إلا بإحدى طرق ثلاث: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى ٥١].

١- إما وحياً: أي بالإلهام أو المنام، كما أوحى الله تعالى إلى أم موسى (عليه السلام). وكما رأى إبراهيم (عليه السلام) في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل.

٢- وإما من وراء حجاب: أي يكلمه من غير أن يراه، كما كلم الله سبحانه وتعالى نبيه موسى (عليه السلام).

٣- وإما أن يرسل الله رسولاً من الملائكة إلى من يختارهم و يصطفيهم. والقرآن الكريم تمّ وحيه بهذه الطريقة، فكان جبريل (عليه السلام) يهبط على النبي ﷺ بطرق مختلفة:

- يظهر للرسول ﷺ في صورته الحقيقية.
- يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه.
- يهبط على الرسول ﷺ خفية فلا يرى، ولكن يظهر أثر الإجهاد على الرسول ﷺ، وقد يتصبب العرق منه في اليوم الشديد البرد، فإذا انفصل عنه الملك، وعى عنه ﷺ ما أوحى به إليه من الآيات.

وقد بلغ من حرص النبي ﷺ على حفظ القرآن أنه كان يحرك به لسانه مخافة أن تفوته كلمة. إلا أن الله تعالى طمأنه بتسهيل قراءته وحفظه، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة ١٦-١٩].

أخي القاريء: إن الكلمات لتعجز عن وصف هذا الأمر، إنه أمرٌ عظيم فوق التصور، ولكن الكلمات مجرد وسيلة للتقريب، ونحن لا نعرف على وجه التحديد الكيفية التي يتم فيها اللقاء بين الملك و النبي، فذلك من أمور الغيب، ولا نعلم كثيراً عن جبريل عليه السلام. وكل ما نعلمه عنه هو ما أخبرنا به الله تعالى في قوله عن جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير ١٩، ٢٠]

أسأل الله تعالى أنْ يزيد في إيماننا.



[2] Verily, We have sent down the Book to you (O Muhammad (peace be upon him)) in truth: So worship Allâh (Alone) by doing religious deeds sincerely for Allâh's sake only.

[2] Nous t'avons fait descendre le Livre en toute vérité. Adore donc Allah en Lui vouant un culte exclusif.

[2] Wahrlich, Wir haben dir das Buch mit der Wahrheit herabgesandt; so diene denn Allah in lauterem Gehorsam Ihm gegenüber.

(٢) ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾:

الدين هو الطاعة والعبادة، ومعنى (عبد): دان وخضع. والعبادة تعني: الخضوع والتذلل. تقول: هذا طريق معبّد أي مُذلّل.

وفي الشرع، العبادة تعني: طاعة الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، مع محبةٍ وخوف ورجاء.

وهذه العبادة يمكن تصنيفها إلى:

- **عبادة جسمية**: كالصلاة، والصيام، والحج، والجهاد في سبيل الله، والعمل المباح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- **عبادة مالية**: كالزكاة، والصدقة، والإنفاق في أوجه البر.
- **عبادة قلبية**: كالمحبة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والإخبات، والخشوع، والتفكر، والتدبر.

- **عبادة لفظية:** كالدعاء، والذكر، وتلاوة القرآن، والصدق، والاستعاذة، والاستغاثة.

وفيما يلي بعض الحقائق حول العبادة:

- العبادة هي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥٦].
- بعث الله تعالى الرسل من أجل تحقيق عبادته سبحانه على أرض الواقع ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل ٣٦].
- تتحقق العبادة بشرطين هما:

١- الإخلاص لله. فلا بد أنْ تكون عبادة المرء خالصة لله تعالى، لا يشرك مع الله أحداً، ولا يرجو ثناءً أو مدحاً من أحد. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة٥].

٢- أنْ تكون العبادة مطابقة لما شرع الله ورسوله. فمنْ عبد الله بشيء لم يشْرعْه الله، فعبادته باطلة.

- الإنسان عابدٌ بفطرته. فلا تمُرُّ عليه ساعة إلا ويكون فيها عابدا لشيء ما، أدرك ذلك أم لم يُدرك. ولهذا هو بين أمرين لا ثالث

لهما: إمّا أنْ يكون عابداً لله وحده بلا شريك. وإمّا أنْ يكون عابداً لشيء آخر غير الله.

- أخذتْ العبادة لغير الله تعالى أشكالاً كثيرة في الماضي والحاضر منها:

١ - عبادة الشيطان ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس ٦٠].

٢ - عبادة الطاغوت ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة ٢٥٧].

٣ - عبادة الهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية ٢٣].

٤ - عبادة الأصنام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [إبراهيم ٣٥، ٣٦].

٥ - عبادة الشمس ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل ٢٤].

٦- عبادة الدرهم والدينار: قال رسول الله ﷺ: " تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة. إنْ أعطي رضي، وإنْ لم يُعط سخط. تَعِسَ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش ".

أسأل الله تعالى أنْ يعيننا على حُسْن عبادته.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾

[3] Surely the religion (i.e. the worship and the obedience) is for Allâh only. And those who take Auliyâ' (protectors, helpers, lords, gods) besides Him (say): "We worship them only that they may bring us near to Allâh." Verily Allâh will judge between them concerning that wherein they differ. Truly, Allâh guides not him who is a liar, and a disbeliever.

[3] C'est à Allah qu'appartient la religion pure. Tandis que ceux qui prennent des protecteurs en dehors de Lui (disent): "Nous ne les adorons que pour qu'ils nous rapprochent davantage d'Allah". En vérité, Allah jugera parmi eux sur ce en quoi ils divergent. Allah ne guide pas celui qui est menteur et grand ingrat.

[3] "Wahrlich, Allah (allein) gebührt lauterer Gehorsam. Und diejenigen, die sich andere zu Beschützern nehmen statt Ihn (‚sagen): ""Wir dienen ihnen nur, damit sie uns Allah nahebringen."" Wahrlich, Allah wird zwischen ihnen über das, worüber sie uneins sind, richten. Wahrlich, Allah weist nicht dem den Weg, der ein Lügner, ein Undankbarer ist.

(٣) ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾:

أي إن الطاعة والعبادة هي لله تعالى وحده خالصة لا تشوبها شائبة من شوائب الشرك. ومع ذلك هناك من الناس من يشرك بالله تعالى، وإذا سألتهم: من خالق هذا الكون؟.

قالوا: الله هو الخالق .

فتقول لهم: إذن لم تتخذون من دون الله انداداً كالأصنام أو الرهبان أو القبور أو السادة، تحبونهم كحب الله وتخضعون لهم وتطيعونهم؟!

قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده!!..

هؤلاء المشركون موجودون في كل زمان ومكان، حتى في عصرنا الحاضر، فالجماعات والفرق التي تشرك بالله كثيرة، وكل فرقة تدعي أنها على صواب!! ويوم القيامة يحكم الله بينهم، ويبين لهم فداحة كذبهم وادعائهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ ﴾.

وقد قسّم العلماء الشرك بالله تعالى إلى نوعين رئيسين:

- **شركٌ أكبر**: (يتعلق بعقائد القلوب). وهو الاعتقاد بأنّ هناك مَنْ يُشاركُ الله تعالى في تصريف الكون وتدبيره. كما قال فرعون ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات ٢٤]. أو التقرب إلى

الله تعالى بعبادة غيره كعبادة الأوثان والقبور. أو الاعتقـاد بـأنّ هناك مَنْ يُتصف بصفات الله تعالى، كمن يعتقد أنّ بشراً يعلـمُ الغيب مثل علم الله.

هذا النوع من الشرك هو أكبر الكبائر وأعظم المعاصي لله، وهو ظلمٌ عظيم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ١٣]. وعقوبته أقسى العقوبات وأشدّها، وهي الخلود في النار: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة ٧٢].

والله يغفر جميع الذنوب ما عدا الشرك الأكـبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء ٤٨].

- **وشركٌ أصغر**: (يتعلق بهيئة الأفعال وأقوال اللسان والنوايا الخفيّة). وهو كل وسيلة وذريعة يتطرق بها إلى الشرك الأكبر. ومن أمثلته:
  - الحلف بغير الله تعالى: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ حلف بغير الله فقد أشْرَكَ ". ومثاله أنْ يُقسم بـالنبي أو الأب أو الكعبـة أو مـا شابه ذلك.

- الرياء: وهو أنْ يقصد المرءُ بعمله غير الله. قال ﷺ: " إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم: الشرك الأصغر. قالوا: وما الشركُ الأصغر يا رسول الله؟. قال: الرياء". ومثاله: كمن يصلي فيطيل القيام والركوع والسجود، ويُظهر الخشوع عند رؤية الناس له. أو كمن يُحرّكُ شفتيه بالذكر في محضر الناس، مع التغافل عنه إذا كان في منزله.
- التطيّر: من الطيرة وهي التشاؤم بالشيء والظن بأنّ له تأثيراً في جلب نفعٍ أو دفع ضر. قال رسول الله ﷺ: " الطيرة شركٌ ".
- إتيان الكهّان والعرّافين: قال رسول الله ﷺ: " منْ أتى كاهناً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمّد ﷺ ".
- تعليق التمائم: التميمة هي خرزة يتم تعليقها، ظناً أنّها تدفع الشر. قال ﷺ: "إنّ الرقى والتمائم والتولة شركٌ".

أسأل الله تعالى أنْ يجنبنا الشرك.

﴿لَوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾

[4] Had Allâh willed to take a son (or offspring), He could have chosen whom He willed out of those whom He created. But glory is to Him! (He is above such things). He is Allâh, the One, the Irresistible.

[4] Si Allah avait voulu S'attribuer un enfant, Il aurait certes choisi ce qu'Il eût voulu parmi ce qu'Il crée. Gloire à Lui! C'est Lui Allah, l'Unique, le Dominateur suprême.

[4] "Hätte Allah Sich einen Sohn nehmen wollen, hätte Er wählen können, was Ihm beliebte, von dem, was Er erschaffen hat. Preis (sei) Ihm! Er ist Allah, der Einzige, der Allbezwingende.

(٤) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾:

- ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد ١٦].
- ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم ٤٨].
- ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [ص ٦٥].
- ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر ١٦].

والله سبحانه وتعالى هو:

- القاهر فوق عباده.
- الولي الحميد.
- ذو الطوْل.
- ذو الجلال والإكرام.
- ذو القوة المتين.
- ذو الفضل العظيم.
- ذو انتقام.
- ذو الرحمة.
- علاّم الغيوب.

- بديع السموات والأرض.
- فاطر السموات والأرض.
- رفيع الدرجات.
- الكبير المتعال.
- الذي لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون.

ومن أقوال العلماء في أسماء الله تعالى وصفاته:

- " هو الله لا شريك له، فردٌ لا مثل له، صمدٌ لا ندّ له. أزليٌّ قائم، أبديٌّ دائم. لا أولَ لوجوده، ولا آخرَ لأبديته. قيومٌ لا يفنيه الأبد، ولا يغيّره الأمد. بل هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطن. ليس كمثله شيء، وهو فوق كل شيء. وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد. حيٌّ قادرٌ جبّارٌ قاهر، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم. له الملك والملكوت والعزة والجبروت. لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماوات. يعلم السرّ وأخفى، يطلع على هواجس الضمائر، وخفيّاتِ السرائر. مريد للكائنات، مدبّرٌ للحادثات. ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. هو المبديء المعيد، الفعّال لما يريد. لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه." .

- "الله هو المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وهو الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيوم لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو الغنيّ عنها. وهو الذي لا يعتريه نقصٌ ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية.
- "هو الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدها وأبقاها وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها. وهو سبحانه المالك لجميع الممالك، وله صفات الملك والتصرف والسلطان والكبرياء. وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب."
- "هو الله سبحانه لا يشغله شأنٌ عن شأن، ولا يشق عليه أمرٌ دون أمر، متعال عن الأوهام والظنون، القاهر لا يُغلب، العظيم لا تحيط به الأفهام والعقول، جلّ شأنه لا يَعرف كنهه إلا هو. سبحانه وتعالى."

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾

[5] He has created the heavens and the earth with truth. He makes the night to go in the day and makes the day to go in the night. And He has subjected the sun and the moon. Each running (on a fixed course) for an appointed term. Verily, He is the All-Mighty, the Oft-Forgiving.

[5] Il a créé les cieux et la terre en toute vérité. Il enroule la nuit sur le jour et enroule le jour sur la nuit, et Il a assujetti le soleil et la lune à poursuivre chacun sa course pour un terme fixé. C'est bien Lui le Puissant, le Grand Pardonneur!

[5] Er schuf die Himmel und die Erde in gerechter Weise. Er läßt die Nacht über den Tag und den Tag über die Nacht rollen; und Er hat (euch) die Sonne und den Mond dienstbar gemacht; ein jedes (Gestirn) läuft für eine bestimmte Frist. Wahrlich, Er allein ist der Erhabene, der Allverzeihende.

(٥) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ :

- السماء لغة: هي كل ما علاك فأظلك، وبذلك فهي للكون كالسقف للبيت! قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء ٣٢].
- السماء مَبْنية بناءً، فهي متماسكة مترابطة. والقرآن الكريم يورد بلفظ صريح أن السماء بناءٌ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة٢٢]. وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات ٤٧]. وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق~٦]. فهي كتلة واحدة متصلة، ليس فيها ثقوب أو فروج!
- السماء تحيط بنا إحاطة تامة من كل النواحي ! فأينما توجه الإنسان ببصره تكون سماء!. فما فوقنا يعتبر تحت غيرنا من سكان النصف الجنوبي للكرة الأرضية، وما فوقهم من سماء يعتبر تحتنا! فهي إذن كرة هائلة تحيط بهذا الفضاء وما فيه من أجرام ومغلقة عليه. هذه السماء محمية ومحفوظة من أن تسقط

على الأرض. قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج ٦٥].

هذه الكرة التي تحيط بالفضاء وتغلفه والتي هي السماء الدنيا، يأتي بعدها فضاء آخر، الله وحده أعلم بسعته، تحيط به كرة أخرى هي السماء الثانية، ثم بعد ذلك فضاء ثالث تحيط به كرة ثالثه هي السماء الثالثة، ثم فضاء رابع ثم كرة رابعة، ثم فضاء خامس ثم كرة خامسة، ثم فضاء سادس ثم كرة سادسة، ثم فضاء سابع ثم كرة سابعة!! سبعة أغلفة.. طبقات.. طبقة فوق طبقة!.

قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾ [الملك ٣].
- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٩].
- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت ١٢].

ثم تأمل في هذه الأرض التي تحملنا على سطحها، هذه المركبة الفضائية العملاقة التي تنطلق بنا تجوب الفضاء الرهيب!. هل نسيت أخي القاريء، أننا على سطح كوكب يسبح بنا في فضاء دامس الظلمة بسرعة مذهلة معدلها ٩٦٠٠٠٠ كم/ الساعة! معلقون في هذا الفضاء الموحش!.

والله لولا رحمة الله تعالى بنا وأنه سبحانه يحفظنا من الانفلات، لتناثرنا وانفلتنا في هذا الفضاء السحيق! ولكنه سبحانه يحول دون ذلك، يقول تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر٤١].

ومع ذلك فمعظم الناس في غفلة، لا يتفكرون ولا يتدبرون، ولا يسألون عن وضعهم على ظهر هذا الكوكب، وإلى أين هم صائرون!؟ جل همهم وتفكيرهم في الطعام والشراب واللهو. وآخرون يفسدون في هذا الكوكب، ويتنازعون فيما بينهم، ولا يدرون أنّ الله تعالى لو شاء لخسف بهم هذه الأرض، أو لأسقط عليهم أحد النيازك فصاروا في عداد الهالكين!.

وبالرغم من أنّ هذه الأرض التي نحن على ظهرها تنطلق بنا بهذه السرعة المذهلة، الا أنها لا تهتز ولا تميل: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل١٥]. وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [النمل٦١].

ورغم أن سطح الأرض محدبٌ، إلا أنك لا تشعر بهذا التحدب، بل تجدها مستويةً منبسطةً ممهدة، كاستواء سطح المنطاد الكبير بالنسبة لنملة تسير عليه رغم استدارة المنطاد وتحدبه. قال تعالى:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح ١٩].
- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [طه ٥٣].
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ﴾ [الرعد ٣].

واعلم أنّ هذه الأرض التي يتصارع عليها الناس، ويغتر فيها المتكبرون، ويفسد فيها المفسدون، بإمكان المركبة الفضائية أن تدور حولها دورة واحدة في مدة ساعتين فقط !. فما الأرض بالنسبة لهذا الكون الشاسع إلا كهبائة!!.

بعد ذلك ذكر سبحانه الليل والنهار، وأنه سبحانه يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل!!. يكور من الفعل (كوّر). وكوّر الشيء: أي لفه على سطح مستدير كالعمامة. وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى شكل الأرض الكروي!.

وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): "ما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل".

وابلغ تصوير لذهاب النهار ومجيء الليل عبرت عنه الآية الكريمة:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس ٣٧]

كذلك سخّر سبحانه وتعالى الشمس والقمر. والشمس هي ذلك النجم الملتهب الذي قدر العلماء درجة الحرارة عند سطحه بمليون درجة مئوية!!. وحجمها يبلغ (مليون و ٣٠٠٠٠٠ ضعف) لحجم أرضنا! والشمس تبعد عن كوكبنا مسافة (١٥٠ مليون كم). هذا يعني أن الضوء يستغرق لقطع هذه المسافة ثماني دقائق. أو لو سار قطار باتجاه الشمس بسرعة (١٠٠كم/ الساعة) ليلاً ونهاراً بدون توقف لوصل إليها بعد (١٧٥ سنة)!!. والشمس ليستْ صلبة كالأرض وإنما هي كرة هائلة منْ غازيْ: الهيدروجين و الهيليوم مشتعلة ومتوهّجة في هذا الفضاء الرحيب. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ ١٣]. وسبب استمرارية توهج الشمس هو حدوث انفجارات نووية بداخلها بشكل مستمر!. وكمية الطاقة الحرارية الصادرة عن الشمس هي كمية هائلة قدرها العلماء برقم يصعب تصوره!! لكن لتبسيط الأمر قالوا: إنّ الطاقة التي تصدرها الشمس في ثانية واحدة تكفي لاحتياجات الحضارة الإنسانية لمدة (٥٠٠,٠٠٠ عام)!!. أو لو

وُجد بين الأرض والشمس اسطوانة من الثلج قطر قاعدتها (٣ كم)، وطولها (١٥٠ مليون كم)، وسُلطت عليها تلك الطاقة الحرارية التي تصدرها الشمس، فإن هذه الأسطوانة الثلجية سوف تذوب في مدة ثانية واحدة!!.

هذه الطاقة تنبعث في جميع الاتجاهات، ولا يصلنا منها إلا جزءٌ بسيط جداً!!. ولو وصلتْ إلينا جميعها لانصهر كوكبنا وتبخرت محيطاته، ولكن الله تعالى قدّر كمية محددة لتصل إلينا ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر ٤٩].

وهنا سؤال: هل الشمس تفقد من وزنها؟ نعم. تفقد الشمس من وزنها في (كل ثانية ٤ مليون طن) تقريباً. ولا بد من يوم آت ينضب فيه مخزون الهيدروجين والهيليوم من داخلها فتنطفيء، وذلك بمشيئة الله!.

ويدور حول الشمس (تسعة كواكب) في مدارات ثابتة وبنفس الاتجاه وهو عكس عقارب الساعة (وهو نفس اتجاه الطواف حول الكعبة، وهو نفس اتجاه دوران القمر حول الأرض، وهو نفس اتجاه دوران الحيوان المنوي حول البويضة قبيل تلقيحها، وهو نفس اتجاه الدورة الدموية في الجسم!).

هذه الكواكب التسعة مرتبة حسب قربها من الشمس هي: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، وبلوتو. والكوكب الوحيد من بين هذه الكواكب الذي توجد عليه

حياة هو كوكب الأرض (الذي نحن عليه الآن!!). بل هو الكوكب الوحيد الذي توجد عليه حضارة إنسانية!.

وأما القمر فيعتبر ضاحية من ضواحي الأرض، يبعد عنا مسافة (٤٠٠ ألف كم)، ولو انطلق إليه صاروخ بسرعة (٥٠٠٠ كم/ الساعة) لوصل في مدة: (٧٥ ساعة و ٥٦ دقيقة)، أي حوالي ثلاثة أيام!!.

هذه الشمس وهذا القمر كل منهما يجري لأجل مسمى هو زوال الدنيا عند قيام الساعة، عندها يُجمع القمر مع الشمس، كما قال تعالى:

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة ٩]. سبحان الله!! كأن هذا النظام الكوني المحكم قد بناه الله تعالى لغرض مؤقت وغاية محددة!!

حقاً إنه العزيز الغفار: الغالب القاهر المهيمن، والساتر لذنوب خلقه.

(ملاحظة: راجع الآية ٦٧ من هذه السورة، ففيها وقفة عند الكوْن)

أسأل الله تعالى أن يزيد في إيماننا.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

[6] He created you (all) from a single person (Adam); then made from him his wife (Hawwa' (Eve)) And He has sent down for you of cattle eight pairs (of the sheep, two, male and female; of the goats, two, male and female; of the oxen, two, male and female; and of the camels, two, male and female). He creates you in the wombs of your mothers: creation after creation in three veils of darkness. Such is Allâh your Lord. His is the kingdom. Lâ ilâha illa Huwa (none has the right to be worshipped but He). How then are you turned away?

[6] Il vous a créés d'une personne unique et a tiré d'elle son épouse. Et Il a fait descendre (créé) pour vous huit couples de bestiaux. Il vous crée dans les ventres de vos mères, création après création, dans trois ténèbres. Tel est Allah, votre Seigneur! A Lui appartient toute la Royauté. Point de divinité à part Lui. Comment pouvez-vous vous détourner (de son culte)?

[6] Er schuf euch aus einem einzigen Wesen, dann machte Er aus diesem seine Gattin, und Er erschuf für euch acht Haustiere in Paaren. Er erschafft euch in den Schößen eurer Mütter, Schöpfung nach Schöpfung, in drei Finsternissen. Das ist Allah, euer Herr. Sein ist das Reich. Es ist kein Gott außer Ihm. Wie laßt ihr euch da (von Ihm) abwenden?

(**6**) سنقف في هذه الآية مرتين. مرّة عند (الأزواج الثمانية من الأنعام). ومرّة عند (خلق الإنسان):

خلق الله تعالى لنا ثمانية أزواج من بهيمة الأنعام وهي من مقومات الحياة على الأرض!!. والبهيمة اسم يطلق على كل ذي أربع، لإبهامها، نظراً لنقص نطقها وفهمها. والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز. وسميت أنعام لنعومة مشيها ولين حركتها، ولما فيها من الدفء والمنافع. واسمها مشتق من الفعل (نعّم) فهو ناعم، و(نَعُمَ): أي حصل على الترف والتنعم، كما ذكر القرطبي رحمه الله في تفسيره.

خلق الله لنا من هذه الأنعام ثمانية أزواج هي: من البقر زوجين (ذكر وأنثى)، ومن الإبل زوجين، ومن الضأن زوجين، ومن المعز زوجين. وكلمة زوج في اللغة تطلق على الشيء الواحد الذي معه آخر من جنسه، فنطلق على (الذكر) لفظة زوج، وعلى (الأنثى) كذلك لفظة زوج. إذن كل صنفين متماثلين نطلق عليهما معاً زوجين، والواحد منهما زوج.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد ٣].

أما لماذا خص الله تعالى هذه الثمانية بالذكر، مع وجود بهائم مفيدة غيرها، فلأن هذه الثمانية تختص بأمور تتعلق بالعبادة لا يصلح

غيرها من البهائم: كالاضحية، والعقيقة، والهـدي، والزكـاة، والديـة، والكفارة .

ومع أن الله سبحانه وتعالى خلـق لنـا هـذه الأنعـام النافعـة ذات اللحم الطيب المفيد، إلا أن كثيرا من بني البشر ممن انتكست فطـرتهم وشوّهت، يُقبلون على تناول لحومٍ مستخبثة تعافها النفـوسُ السـوية، وتأباهـا الفطـر السـليمة، كلحـوم القطـط والكـلاب والضـفادع والسلاحف والفئـران!!. والعجيـب أنهـم يأكلونهـا بـاعتزاز وفخـر وتـُقدّم لهم في أرقى المطاعم وبأسعار غالية الثمن!!.

بل إنّ الناس في إحدى الدول يحتفلون سنوياً بأكل الجرذان!!.

حقاً ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور ٤٠].

حقّـــا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف ١٠٣، ١٠٤].

الوقفة الثانية مع قوله تعالى:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾:

يذكرنا الله عز وجل بنشأتنا الأولى، وأنه سبحانه يخلقنـا في بطـون أمهاتنا خلقا من بعد خلق. أي طوراً بعد طور، ومرحلة بعد أخـرى،

في ظلمات ثلاث، هي كما أجمع العلماء: ظلمة البطن وظلمة الـرحم وظلمة المشيمة.

والآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان في القرآن كثيرة:

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران ٦].
- ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾ [نوح١٣، ١٤].
- ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة ٥٨، ٥٩].
- ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ [السجدة ٧، ٨].
- ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان ٢].
- ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ

لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون ١٢-١٤].

لقد بدأ سبحانه وتعالى خلقنا بنطفة تتحول إلى علقة، ثم تصبح مضغة، ثم تتحول المضغة إلى هيكل عظمي، ثم يُكسى هذا العظم باللحم، ثم ينشئه الله تعالى كائناً بشرياً متميزاً ومختلفاً عن باقي الكائنات!.

يقول علماء الأجنّة: "إنّ مضغة الإنسان عندما تنمو خلال الأسابيع الأولى من الحمل، تكون مشابهةً لمضغة باقي الكائنات من الزواحف والثديات، ولكنْ عند نهاية الشهر الثاني، تأخذ مضغة الإنسان مساراً آخر".

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون ١٤].

ويقول الأستاذ (كيث مور) وهو من أشهر علماء الأجنّة: " بعد تكوّن المضغة، فجأة تنتشر العظام فيها! ويأخذ الجنينُ شكلَ الهيكل العظمي، وبسرعة يتحرك جزءٌ منها على شكل لحم ليغطي هذا الهيكل العظمي!! "

﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ﴾ [المؤمنون ١٤].

مَنْ أخبر محمداً ﷺ بهذه الحقيقة، وهو الذي لم يتعلم الكتابة ولا القراءة، ولم يتخرّج من كلية طب، ولم يوجد في زمنه ميكروسكوب (مجهر)!؟.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم ٣، ٤].

أخي القاريء: إن الذي حيّر علماء الأجنة في العصر الحديث ممن لا يؤمنون بالله تعالى، هو أن المضغة لا إرادة لها ولا قدرة على الإدراك، فكيف إذن شكّلت نفسها إلى أعضاء مميزة وذات صفات معينة؟ وكيف عرفتْ أنّ موضع العين أو الأذن مثلاً سيكون في الرأس؟ ولماذا لم تخطيء الخلايا فتكوّن الأنف أو الأذن في الساق أو البطن؟. وتساءلوا: "إنه لا يمكن لهذه المضغة أن تشكل تلك الأجزاء من تلقاء نفسها، إذ لابدّ أن يكون لها موجّهٌ ومسيّر من جهة عليا ذكية وقادرة!!".

عند هذه النقطة بالتحديد، مِن هؤلاء العلماء مَن يبقى في ضلاله، فلا يبحث عن هذه القدرة العظيمة. ومنهم من يهتدي إلى الله تعالى ويدخل في الإسلام، مثل البروفيسور التايلندي (تاجيسون) رئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة (شيانج ماي) بتايلند، والذي وقف في ختام المؤتمر الطبي الثامن لأبحاث الإعجاز العلمي في القرآن و السنة، المنعقد بمدينة الرياض، وقال بعدما سمع نص الآية الكريمة من

سورة المؤمنون: "لقد آن الأوان لكي أعلن وأقول: أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ".

هذا هو الله!!.. خالق كل شيء، ورب كل شيء، له الخلق و الأمر، بديع السماوات والأرض، رفيع الـدرجات، بيـده ملكـوت كـل شـيء، وعنده مفاتح الغيـب لا يعلمهـا إلا هـو، صـاحب الكبريـاء، وصـاحب الأسماء الحسنى، العظيم في علاه، الكبير المتعال، الرحيم الودود،

من تقرب منه شبرا، تقرب منه ذراعاً، ومـن تقـرب إليـه ذراعـاً، تقرب منه باعاً. من أقبل عليه، تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه نـاداه من قريب، ومن ترك من أجله، أعطاه فوق المزيد...

ورحم الله القائل:

إليك وإلا لا تـُشَـدُّ الركائبُ ومنـك وإلا فالمؤمـــلُ خائـــبُ

وفيك وإلا فالـغــرامُ مضـيعٌ وعنك وإلا فالمـحدثُ كــاذبُ

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

[7] If you disbelieve, then verily, Allâh is not in need of you; He likes not disbelief for His slaves. And if you are grateful (by being believers), He is pleased therewith for you. No bearer of burdens shall bear the burden of another. Then to your Lord is your return, and He will inform you what you used to do. Verily, He is the All-Knower of that which is in (men's) breasts.

[7] Si vous ne croyez pas, Allah se passe largement de vous. De Ses serviteurs cependant, Il n'agrée pas la mécréance. Et si vous êtes reconnaissants, Il l'agrée pour vous. Nul pécheur ne portera les péchés d'autrui. Ensuite, vers votre Seigneur sera votre retour: Il vous informera alors de ce que vous faisiez car Il connaît parfaitement le contenu des poitrines.

[7] Wenn ihr undankbar seid, so ist Allah auf keinen von euch angewiesen. Und Er findet nicht Wohlgefallen am Unglauben Seiner Diener; doch wenn ihr aber dankbar seid, so gefällt Ihm das an euch. Und keine lasttragende (Seele) soll die Last einer anderen tragen. Danach werdet ihr zu eurem Herrn heimkehren; und Er wird euch verkünden, was ihr zu tun pflegtet. Wahrlich, Er weiß wohl, was in den Herzen ist.

(٧) إن الكفر بالله عز وجل جريمة كبرى، والله سبحانه وتعالى لا يحب الكفر لعباده ولا يأمر به، وإنما الإنسان هو الذي يعطل عقله ويطيع الشيطان، ويتبع هواه!! صحيح أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولكن هذا يعني أن الله تعالى يهدي من يطلب الهداية، ويُعمل عقله، ويبحث عن الحقيقة، ويشرح صدره، ويطرق باب السماء. أما من يصر على الكبرياء، ويصم أذنيه، ويعطل فكره، ويجعل صدره ضيقا، فإن الله يتركه في غيه وضلاله!! ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ١٢٥].

إن الله تعالى ليس بحاجة لنا فهو غني عن العالمين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[إبراهيم ٨].

وقال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر١٥]. وعبادتنا له لا تنفعه سبحانه، وإنما تنفعنا

نحن البشر، فنحن بحاجة إليه. ولأنه سبحانه يحب الخير لنا فهو يجب أن نعبده ونشكره!! قال تعالى:

- ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم ٧].
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان ١٢].
- ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة١٥٢].

راجع الآية (٦٦) من هذه السورة ففيها وقفة أطول عند الشكر.

أسأل الله تعالى أنْ يجعلنا من الشاكرين.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

[8] And when some hurt touches man, he cries to his Lord (Allâh Alone), turning to Him in repentance. But when He bestows a favor upon him from Himself, he forgets that for which he cried for before, and he sets up rivals to Allâh, in order to mislead others from His Path. Say: "Take pleasure in your disbelief for a while: surely you are (one) of the dwellers of the Fire!"

[8] Et quand un malheur touche l'homme, il appelle son Seigneur en se tournant vers Lui. Puis quand Il lui accorde de Sa part un bienfait, il oublie la raison pour laquelle il faisait appel, et il assigne à Allah des égaux, afin d'égarer (les gens) de son chemin. Dis "Jouis de ta mécréance un court moment. Tu fais partie des gens du Feu".

[8] "Und wenn den Menschen ein Unheil trifft, so ruft er seinen Herrn an und wendet sich Ihm bußfertig zu. Dann aber, wenn Er ihm eine Gnade von Sich aus gewährt hat, vergißt er, um was er Ihn zuvor zu bitten pflegte, und setzt Allah Partner zur Seite, so daß er (die Menschen) von Seinem Wege ab in die Irre führt. Sprich: ""Vergnüge dich mit deinem Unglauben für eine kurze Zeit; denn du gehörst zu den Bewohnern des Feuers.""

(٨) وهذا مثل قوله تعالى:

- ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت ٥١].
- ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس١٢].
- ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام ٦٣].
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس ٢٢،٢٣]

توضح الآيات السابقة صورة الإنسان حين يمسه الضر، فإذا كُشِف عنه، عاد إلى ما كان فيه!!. فحين تكون الصحة موفورة، والظروف مواتية، فإن الإنسان ينسى نعم الله ـ إلا من رحم الله ـ أما حين يقع في مصيبة، فإذا هو هلوع جزوع، كثير الدعاء، عريض الرجاء. فإذا استُجيب الدعاء، وكُشف الضر، انطلق لا يفكر ولا يتدبر، لا يشكر ولا يتأمل: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾.

القصة التالية من واقع الحياة كنت قد قرأتها وأسوقها للعبرة:

رجل من أغنياء المسلمين، أصيب بمرض عضال، وتردد على مشافي كثيرة في بلدان مختلفة من بلاد العالم. وفي كل مرة لا يرى فائدة تذكر... بل إنه يحس أن الأمر يستفحل مع الأيام، حتى أن الأطباء يقولون له: "لا نراك ستعيش أكثر من شهرين أو ثلاثة، فاحتط لنفسك وتهيّأ بما تستطيع، فلا فائدة ترجى لك". وجحظت عينا الرجل، ولما أيقن بما أخبروه، عاد إلى بلده منهاراً محطماً، يحمل نفسه في جهد، وفي رأسه تدور الخواطر والأفكار. ولأن الأمر جد ولا مجال فيه للهزل،

فقد لمعت في رأسه فكرة، فرح لها كـل الفـرح، فقـد اسـتدعى محاميـه الخاص إلى مكتبه، وأخذ يملي عليه وصيته العجيبـة: تبرعـات سـخية للفقراء والأيتام، ومشاريع خيرية هنا وهنـاك، وصـدقات وزكـوات، وملايين يذكرها ويوزعها، والمحامي يكتـب في دهشـة، وكلمـا حـاول هذا المحامي أن يتكلم، زجره صاحبه قائلا: لقد أيقنت أني مودع هـذه الدنيا، وأريد أن اغتسل من ذنوبي وما أكثرها. ثم شـرع يقسـم بقيـة ميراثه على ورثته. كل ذلك على الورق، ولذا طلب من محاميـه أن لا ينفذ شيئا من هذا الا بعد موته!! ومـن يومهـا انقلبـت حيـاة الرجـل رأسا على عقب، لم تعرف رجلاه منذ ذلك اليـوم سـوى الطريـق إلى المسجد. وأصابعه لا تزال تدير مسبحته الطويلة على مدار الأنفـاس. حتى كلامه أصبح موزونا لا يدور لسانه الا بذكرٍ أو نصح أو إرشاد. وتمضي الأيام والرجل يكاد يكون من العبّاد القلائل في مدينته . كـان أول الداخلين إلى المسجد، وآخر الخارجين منه، كثير الاعتكاف، غزير الدمعة. ومع نهاية كـل ليلـة، ينتصـب فزعـاً في جـوف الليـل يبكـي وينوح:

﴿وَإِذَا مَسَّـهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَـآءٍ عَرِيضٍ﴾. ويمر الشهر والشهران، وفي الشهر الثالث يتضح لك أن الرجل قد أصبح مـن أبنـاء الآخـرة. ولما انقضى الشهر بكامله، ثم تتابعت أيام من الشهر التالي، ورأى أنه لا يزال في كامـل عافيتـه، برقـت عينـاه، وانعقـد لسـانه، وفغـر فـاه،

وأشرق أمل جديد في صدره. ومضت أسابيع فإذا هـو يصـيح لاعنـا الطب والأطباء، مسارعا إلى خلع ثياب الزهد والعبادة. ودعا صحبته القديمة التي كان قد طلّقها ثم دعا محاميه، ومزّق تلـك الوصـية، وهـو يقهقـه سـاخرا. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

وقرر أن يعوّض كل تلك الأيام بسهرة حمراء. واجتمع أصـحابه، ليس لهم هـم إلا بطـونهم وشـهواتهم. وعلـى المائـدة الكـبيرة يأكـل الرجل بشراهة ونهم، غير أنه لم يكد يمضغ لقيمات حتى خـرّ صـريعا ميتا وسط الصخب والضجيج.

سبحان الله، كان فيما يبدو على باب الجنة، ليس بينـه وبينهـا إلا ساعات، ولكن الحماقة أبت عليه إلا أن ينحـرف عـن الطريـق عنـد آخر محطة!! ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾

[9] Is one who is obedient to Allâh, prostrating himself or standing (in prayer) during the hours of the night, fearing the Hereafter and hoping for the Mercy of his Lord (like one who disbelieves)? Say: "Are those who know equal to those who know not?" It is only men of understanding who will remember (i.e. get a lesson from Allâh's Signs and Verses).

[9] Est-ce que celui qui, aux heures de la nuit, reste en dévotion, prosterné et debout, prenant garde à l'au-delà et espérant la miséricorde de son Seigneur... Dis: "Sont-ils égaux, ceux qui savent et ceux qui ne savent pas?" Seuls les doués d'intelligence se rappellent.

[9] ""Ist etwa jener, der zu Allah in den Nachtstunden - sich niederwerfend und stehend - betet, der sich vor dem Jenseits fürchtet und auf die Barmherzigkeit seines Herrn hofft (einem Ungehorsamen gleich)? Sprich: ""Sind solche, die wissen, denen gleich, die nicht wissen?"" Allein nur diejenigen lassen sich warnen, die verständig sind.

(٩) الوقفة في هذه الآية الكريمة عند كلمة ﴿سَاجِدًا﴾:

السجود في اللغة يعني التذلل والخضوع. وجاء في المعجم: كل ما ذل فقد سجد، أي خضع وطأطأ رأسه وانحنى!!.

وردت مادة السجود في القرآن الكريم بمختلف مشتقاتها ٩٢ مرة. حول سجود الملائكة وإبليس، وسجود السماوات والأرض والنجم والشمس والقمر والملائكة والبشر وبقية المخلوقات!!.

قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف ٢٠٦].
- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل ٤٩].
- ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن ٦].
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج ١٨].

- ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء ١٠٦-١٠٩].

وقال رسول الله ﷺ: "ما من عبد يسجد لله سجدة إلا كَتَبَ الله له بها حسنة، ومحا عنه بها سيئة، ورفع له بها درجة، فاستكثروا من السجود". وقال عليه الصلاة والسلام لمولاه ثوبان: "عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة".

ورحم الله القائل:

بكى الباكون للرحمن ليلاً ... وباتوا دمعَهم لا يسأمونا
بقاع الأرض من شوق أليهم ... تحِنّ متى عليها يسجدونا

أستاذ رياضيات من جامعة كنساس الأميركية اعتنق الإسلام، ويصف كيف أدى الصلاة لأول مرة في حياته. يقول: "في اليوم الذي اعتنقت فيه الإسلام، قدّم إلي إمام المسجد كتيباً يشرح كيفية أداء الصلاة. ذهبت إلى البيت وبدأت أصلي لأول مرة في حياتي، أغلقت الستائر كي لا يراني أحد، وكانت صلاة العشاء، توضأت، وقفت في

منتصف الغرفة وتوجهت نحو القبلة، رفعت يـداي وقلـت الله اكـبر، ولما ركعت شعرت شعوراً غريباً إذ لم أنْحــَنِ لأحـد في حيـاتي، ولـما رفعت أحسست بقلبي يخفق بشدة، وعندما حان وقت السـجود ازداد انفعالي وتجمدت في مكاني، وبينما كنتُ أحدّق في البقعة التي أمامي، حيث كان علي أن أهوي إليها على أطرافي الأربعـة، وأضـع وجهـي علـى الأرض، لم أسـتطع أن أفعـل ذلـك. لم أسـتطع أن أذل نفسـي بوضع أنفي على الأرض، شأنَ العبد الذي يتذلل أمام سـيده!!، لقـد خُيل إلـي أنّ سـاقي مقيـدتان لا تقـدران علـى الإنثنـاء!!، وتخيلـت ضحكات أصدقائي ومعارفي لو رأوْنـي سـاجداً!!.. ودعـوت الله أن يعينني على ذلـك، ثـم اسـتجمعت قـِواي، وأخـذت نفسـاً عميقـاً، وأرغمت نفسي على النزول. الآن صرت على أربعـتي، ثـم تـرددت لحظات قليلة، وبعد ذلك ضـغطت وجهـي علـى السـجادة، أفرغـت ذهني من كل الأفكار، وتلفظـت ثـلاث مـرات بعبـارة سـبحان ربـي الأعلى... وفي آخر ركعـة أحسسـت بسـكينة شـبه تامـة، ثـم قـرأت التشهد في الجلوس الأخـير، و أخـيراً سـلمت عـن يمـيني وشمـالي!. بقيت جالساً على الأرض، ودعوت الله برأس منخفض – خجَلاً منه – وقلت: يا رب اغفر لي تكبري!!.. في تلك اللحظة شعرت بشـيء لم أجربْه من قبل، يصـعب علـي وصـفه بالكلمـات، فقـد اجتـاحتني موجة لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها كالبرودة، وبدا لي أنها تشع مـن

نقطة ما في صدري، كانت موجة عارمة في البداية، ثم أخذتُ ارتعش، ثم بدأتُ بالبكاء من غير أن أعرف السبب، ووجدتُ نفسي أنتحبُ بشدة، وكلما ازداد بكائي، ازداد إحساسي بأن الله يحيطني بالسكينة و الرحمة!!."

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي   بالله جل جلاله أغراكا؟
فاسجد لمولاك القدير فإنما   لابد يوماً تنتهي دنياكا
وتكون في يوم القيامة ماثلاً   تُجزى بما قد قدمته يداكا

بينت إحدى الدراسات العلمية أن السجود له الفوائد الصحية التالية (ستُ فوائد):

١- يؤدى السجود إلى خفض ضغط الدم ويعتبر أهم عامل في ندرة الإصابة بضغط الدم.

٢- يرفع كفاءة مراكز التحكم. وبالتالي يستطيع الجسم أن يواجه أي تغيير في وضع أو اهتزاز دون الإصابة بالدوار.

٣- يساعد السجود على نظافة الجيوب الأنفية بسحب إفرازاتها أولا بأول وبالتالي تقل فرصة التهاب هذه الجيوب.

٤- يزداد توارد الدم إلى المخ أثناء السجود فيزداد أداؤه وبالتالي يصل ما يلزمه من مواد غذائية وأكسجين ويؤدى وظيفته على أحسن وجه. ويظهر تأثير عدم إرتواء المخ بالدم الكافي واضحاً

في الأشخاص الذين يقفون مدة طويلة كجنود الحراسة، حيث يصابون بالإغماء المفاجئ .

وعلاجهم غاية في السهولة - وهو أن ينام الجندي على ظهره مع رفع القدمين أعلى من مستوى رأسه فيعود إليه وعيه بإذن الله. ولو قام بعملية السجود لحصل على نفس النتيجة.

وقد عرف أصحاب رياضة (اليوجا) أهمية وضع الرأس إلى أسفل فجعلوا من بين أوضاعها وضع الوقوف على الكتفين. وهي رياضة من وضع البشر، ومع ذلك فهذه الطريقة لها محاذير لأنها تضغط على شرايين الدماغ، وأفضل وضعية هي إمالة الرأس بزاوية (كما في الصلاة)، لذا فالله تعالى اختصر لنا الطريق فقدم للناس الخير بأفضل مما يبتكرونه لأنفسهم، فشرع هذه الصلاة.

٥- يسرّع وضع السجود من دوران السائل الشوكي حول الدماغ، هذا السائل يعمل على تبريد الدماغ وتخليصه من السموم .

٦- يساعد وضع السجود على تخفيف الاحتقان بمنطقة الحوض وبالتالي يساعد على الوقاية من الإصابة بالبواسير وحدوث الجلطات بالأوردة، كما أنه يساعد على التخلص من الإمساك .

ويعتبر السجود من أنسب الأوضاع لعلاج سقوط الرحم الخَلْقي لدى الإناث، وقد اكتشفت فوائد هذا الوضع حديثاً، ولهذا ينصح به

أطباء (النساء والتوليد) في علاج بعض الأعراض، وقد أطلقوا عليه وضع " الركبتين والصدر".

وبينتْ إحدى الأبحاث العلمية أن الجسم يستقبل قدرا كبيرا من الأشعة الكهرومغناطيسية يوميا من الأجهزة الكهربائية المستخدمة، والآلات المتعددة والإضاءة الكهربائية، وهذا يعني أنك جهاز استقبال لكميات كبيرة من الأشعة الكهرومغناطيسية. أي أنك مشحون بالكهرباء وأنت لا تشعر.. وهذا سبب شعور الإنسان بالصداع، والضيق، والكسل والخمول.

إن أفضل طريقة لتخلّيص الجسم من هذه الشحنات الكهربائية الضارة هي أن يضع الإنسان جبهته على الأرض أكثر من مرة، لأن الأرض سالبة فهي تسحب الشحنات الموجبة، كما يحدث في السلك الكهربائي الذي يُمَدُّ إلى الأرض في المباني لسحب شحنات الكهرباء من الصواعق إلى الأرض.. (سلك التأريض)!!

ويزيدك البحث بيانا حين يقول: الأفضل أن تضع الجبهة على التراب مباشرة! وأن أفضل طريقة في هذا الأمر أن تضع جبهتك على الأرض وأنت في اتجاه مركز الأرض، لأنك في هذه الحالة تتخلص من الشحنات الكهربائية بصورة أفضل وأقوى!! ". وكما هو معلوم فإن مركز الأرض هو مكة المكرمة، وتحديداً الكعبة المشرفة!.

ومـع هـذا كلـه انتشـرت في الآونـة الأخـيرة ظـاهرة الكراسـي في المساجد والصلاة جلوساً عليها. نحن نقول لا مانع من الصلاة جلوسـاً على الكرسي في حالة وجود حالـة صـحية معينـة يشخصـها الطبيـب. وإذا كنتَ حقا تعاني من آلام في الظهر فلماذا لا تصلي صلاة المـريض أي جالسـاً علـى الأرض؟!. ومـع ذلـك أقـول لـك: إن اسـتطعت أن تتحمل بعض الألم وتتواضع لله فتسجد بوضـع جبهتـك علـى الأرض فافعل، ولا تفوّت عليك فوائد السجود الجمة التي ذكرناها.

أسأل الله تعالى أنْ يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

[10] Say (O Muhammad (peace be upon him)) "O My slaves who believe (in the Oneness of Allâh - Islâmic Monotheism), be afraid of your Lord (Allâh) and keep your duty to Him. Good is (the reward) for those who do good in this world, and Allâh's earth is spacious (so if you cannot worship Allâh at a place, then go to another)! Only those who are patient shall receive their rewards in full, without reckoning."

[10] Dis: "O Mes serviteurs qui avez cru! Craignez votre Seigneur". Ceux qui ici-bas font le bien, auront une bonne (récompense). La terre d'Allah est vaste et les endurants auront leur pleine récompense sans compter.

[10] ""Sprich: ""O meine Diener, die ihr gläubig seid, fürchtet euren Herrn. Für diejenigen, die in dieser Welt Gutes tun, ist Gutes (bestimmt). Und Allahs Erde ist weit. Wahrlich, den Geduldigen wird ihr Lohn (von Allah) ohne zu rechnen gewährt werden.""

(١٠) ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. الوقفة هنا عند الصبر:

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي ركز عليها، وهو أكثر خُلق تكرر ذكره في القرآن الكريم. قال تعالى:

- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ١٢٨]
- ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل ٩٦]
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان ٧٥].
- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة ١٥٥].

وقال رسول الله ﷺ: "ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب ولا همٍ ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه". وقال عليه الصلاة و السلام: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره

كله له خير، وليس ذلـك لأحـد إلا للمـؤمن، إنْ أصـابته سـراء (أي نعمة) شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضراء (أي مصيبة) صبر فكان خيراً له."

وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: "تُنصَـب المـوازين، فيـؤتى بأهـل الصدقة فيوفوْن أجورهم بالموازين، وكذلك الصـلاة والحـج، ويـؤتى بأهل البلاء فلا يُنصب لهـم ميـزان، ولا يُنشـر لهـم ديـوان، ويُصـب عليهم الأجرُ بغير حسـاب، ثـم تـلا قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

والصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على ألم الطاعـة، وصـبر على اللذة المحرمة، وهو أشدها وأقساها!!

واعلم ـ أخي القـاريء ــ أن الصـبر يكـون علـى بـلاء لا يقـدر الإنسان على إزالته أو التخلص منه، أما ما كان مقـدوراً علـى دفعـه ورفعه، فليس الصـبر عليـه مطلوبـاً. وهـذا مـا بينـه حجـة الإسـلام الغزالي رحمه الله حين قال: "كل بلاء يقـدر الإنسـان علـى دفعـه، لا يُؤمرُ بالصبر عليه. فلو ترك الإنسـان المـاء مـع طـول العطـش حتـى عظـُم تألمه، فلا يؤمر بالصبر عليه، بل يؤمر بإزالة الألم . وإنمـا يكـون الصبر على ألمٍ ليس إلى العبد إزالته".

ورحم اللهُ القائلَ:

إني رأيتُ وفي الأيـام تجربـةٌ　　للصـبرِ عاقبــةً محمــودةَ الأثــرِ

وقل مَن جَدّ في أمــر يؤملـهُ　　واستصحب الصبر إلا فـاز بـالظفرِ

وقال آخر:

اصبر ففي الصبر خيرٌ لو علمتَ بـه　　لطبتَ نفساً ولم تجزعْ مـن الألــمِ

واعلم بأنك لو لم تصطبر كـرمــــاً　　صبرت رغماً على ما خُـط بالقلــمِ

وقال آخر:

اصبر قليـلاً فبعـد العسـر تيسيـرُ　　وكـل أمـرٍ لـه وقـتٌ وتـدبيـــرُ

وقال آخر:

تزوّدْ للخطوبِ الســودِ صـبراً　　فإن الصبرَ ظلمـتُـهُ ضيــاءُ

وقال آخر:

لَعمـرُكَ ما ينــالُ الفضــلَ إلا　　تقـيُّ القلـبِ محتسِــبٌ صبــورُ

وقال آخر:

وإذا بُليتَ بعُسْرةٍ فاصـبرْ لهـا　　صـبْرَ الكـريمِ فـإنَّ ذلـك أحْـزَمُ

وقال آخر:

يــا قلـبُ صـبراً فإنّــهُ سَـفَهٌ　　بــالمرءِ أنْ يســتفزَّهُ الجــزعُ

أسأل الله تعالى أن يُفرغ علينا صبراً.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾

[11] Say (O Muhammad (peace be upon him)) "Verily, I am commanded to worship Allâh (Alone) by obeying Him and doing religious deeds sincerely for his sake only.

[11] Dis: "Il m'a été ordonné d'adorer Allah en Lui vouant exclusivement le culte.

[11] ""Sprich: ""Mir wurde befohlen, Allah zu dienen, in lauterem Glauben Ihm gegenüber.

(١١) وهذا مثل قوله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مـــريم ٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف ٢٩].

والوقفة هنا عند الإخلاص:

يقول ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ :"العمل بغير إخلاص كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه".

ويقول: "لا يجتمع (الإخلاص) في القلب و (محبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس) إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت!. فإذا حدثتْك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبِلْ على الطمع أوّلاً فاذبحْهُ بسكين اليأس، وأقبلْ على المدح والثناء، فازهدْ فيهما زُهْدَ عُشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبحُ الطمع والزهدِ في الثناءِ والمدحِ سَهُلَ عليك الإخلاص."

واعلم ـ أخي القاريء ـ أن الإخلاص ضد الرياء. والرياءُ مِنْ أخطر الآفات وأشدِّها فتكاً بالمسلم ، وعليه أنْ يجاهدَ نفْسَهُ فوراً للتخلص منها ، وإلا ضلّ سعيُهُ في الدنيا والآخرة.

والرياءُ في اللغة مشتقٌ من الرؤية، تقول: أرْأى الرجلُ، أي أظهـرَ عمـلاً صـالحاً لـيراهُ النـاس!.. ومنـه قولـه تعـالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون ٦، ٧].

وقولـــه تعـــالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال ٤٧].

والسُّمعة: مشتقة من سَمَّعَ. تقول: سمَّعَ الناسَ بعمله، أي أظهره لهم بعد أنْ كان سرّاً. والفرقُ بين الرياء والسمعة هو أن الفرد في حالة الرياءَ يُطلع الناسَ على ما يصدر منه من الصالحات طلباً للمنزلة والمكانة عندهم، أو طمعاً في دنياهم. فإنْ وقعتْ أمامهم فعلاً ورأوْها فذلك هو الرياء، وإنْ لم تقعْ أمامهم لكنه حدّثهم بها فتلك هي السمعة. يقول العلامة العزّ بن عبد السلام رحمه الله في الفرق بين الرياء والسمعة: "الرياء أنْ يعملَ لغير الله، والسمعة أنْ يُخفيَ عمله لله ثم يُحدّث به الناس." وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة ٢٦٤].

ما هي علامات الرياء؟

حتى يدرك المسلمُ موقعه من الرياء والسمعة، فإن هنـاك سمـاتٍ أو علاماتٍ يُعرَف بها. منْ هذه العلامات:

- النشاط في العمل ومضاعفة الجهد إذا كان هناك مدحٌ أو ثناء!. والكسل والتقصير إذا كان هناك عيبٌ أو ذم.
- النشاط ومضاعفة الجهد إذا كان مع الناس، والكسل والتقصير حال التفرد أو البعد عن الناس.

ما هي عقوبة الرياء؟

- الحرمان من الهداية والتوفيق ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يملك الهداية والتوفيق فلا يمنحُهُما إلا لمن علم منه الإخلاصَ وصدقَ التوجّه إليه ، لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد ٢٧].

والمرائون الذين ضيعوا هذا الإخلاص أنّى لهمُ الهداية والتوفيق؟

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف٥].

- الضيق والاضطراب النفسي.
- الفضيحة في الدنيا والآخرة.
- بطلان العمل.



ما علاج الرياء أو السمعة؟

- أنْ يتذكّر عواقب الرياء في الدنيا والآخرة.
- أنْ ينسلخ من مصاحبة المعروفين بالرياء والسمعة.
- أنْ يصاحبَ المخلصين الصادقين.
- أنْ يتعرّف على الله تعالى حقّ المعرفة وسبيل ذلك معايشة القرآن والسُّنة.

أسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا من النفاق والرياء.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

[12] "And I am commanded (this) in order that I may be the first of those who submit themselves to Allâh (in Islâm) as Muslims."

[12] et il m'a été ordonné d'être le premier des Musulmans.

[12] ""Und mir wurde befohlen, der erste der Gottergebenen zu sein.""

(١٢) وردتْ لفظة (الإسلام) بجميع مشتقاتها في ١٤٥ موضعاً من القرآن الكريم. من ذلك قوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران ١٩].
- ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران ٨٥].
- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الصف ٧].
- ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج ٧٨].
- ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٦٣].

ولفظة (الإسلام) من الفعل: (سلّم) و (استسلم). أي: خضع.

فالإسلام إذن هو أنْ يُسلّم المرء نفْسَه لله تعالى مُنقاداً إنقياداً تامّاً لكل ما شرع الله ورسوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء ١٢٥].

وجميع المخلوقات من حيوان ونبات وجماد، خاضعة لله تعالى ومسبّحة له: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء ٤٤]. أي إنّ جميع ما خلق الله تعالى هو مسلمٌ في الحقيقة.

وكلُّ مَنْ اتّبع رسولاً من رسل الله وأنبيائه فهو مسلم:

- ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٦].
- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٣].

▪ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٦].

والإسلام هو الدينُ الأوحد، ولا يُقبل من أحد أنْ يختار ديناً غيره: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران ٨٥].

والدعوة إلى الإسلام يجب أنْ تكون بالحكمة والموعظة الحسنة: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل ١٢٥].

أتدري كيف أسلم المفكر الفرنسي (روجيه جارودي)؟.

يحدّث عن نفسه فيقول: "كنتُ من ضمن الجنود الفرنسيين الذين كانوا يُحاربون المسلمين الجزائريين في ثورة الجزائر عام ١٩٦٠م. وقد تمّ القبضُ عليّ منْ قِبل مجموعة من المجاهدين. وكلّف قائد هذه المجموعة أحدهم بإعدامي في الجبل!.

وحين انفردتُ بهذا المسلم سألني: هل معك سلاح؟

قلتُ له: لا، ليس معي سلاح.

فقال: وكيف أقتل رجلاً ليس معه سلاح! (ثم أطلق سراحي).

يقول جارودي: "بقيتْ هذه الحادثةُ تتفاعلُ في ضميري سنين طويلة، أتذكّرها دائماً. حتى قمتُ بدراسة الإسلام! فأيقنتُ أنّ هذا المسلم كان ينطلقُ في تصرّفه معي مِنْ واقع العقيدة والأخلاق الإسلامية، فكان لتلك الحادثة أثرها البالغ في إسلامي!.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت ٣٤].

ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة في مكارم الأخلاق ونُبل السجايا. وهم ما أقاموا الحضارة الباسقة إلا بآداب الإسلام العظيم وأخلاقه الفذّة!.

كذلك ما انهارتْ أممٌ وحضارات، إلا نتيجة فساد الأخلاق، كما قال الشاعر رحمه الله:

وإذا أصيب القومُ في أخلاقهمْ فأقمْ عليهمْ مأتماً وعويلا

كان المسلمون في صدر الإسلام خير أمة أخرجتْ للناس. أسعدوا أهل الأرض جميعاً بالعدل وحسن المعاملة. ما كانوا يحاربون

لأجل القتل أو التخريب أو الأذى. حاربوا فقط كلّ مَنْ كان يمنعُ دعوة الإسلام من الوصول إلى الناس. لمْ يقتلوا طفلاً، ولمْ يغتصبوا امرأة، ولمْ يقطعوا شجرة، ولمْ يهدموا بيتاً أو صومعة!.

أتدري كيف دخل أهلُ (سمرقند) في الإسلام؟

شهدوا عدالة الدين، وذاقوا نعمة أخلاق المسلمين، فأخذوا يطالبون (طوْعاً واختيارا) أنْ يبقى المسلمون في بلدهم، ليظلوا تحت راية الإسلام!. وهكذا دخلوا في الإسلام دون قتال.

ولّما دخل القائد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس محرراً، جاءته امرأةٌ افرنجية تبكي!. وكان بعضهم قد خطف طفلاً صغيراً لها. فسيّر الجنود في الحال، ليبحثوا لها عن الطفل المفقود حتى عثروا عليه، فردّهُ إلى أمّه، وسيّرها إلى قومها معززة مكرّمة على فرس!. فلمّا رأتْ ذلك من صلاح الدين، دخلتْ في الإسلام، وأسلم معها زوجها!.

هذه هي القيم والمثلُ العليا! المثل والقيمُ ليستْ بقتل الأطفال والنساء، وهدم البيوت والمساجد، وحصار وتجويع الشعوب!. المثلُ والقيمُ هي باحترام حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليهم.

ولكي يدخلَ الناسُ اليوم في دين الإسلام، فإنّ الكتب والمحاضرات وحدها لا تكفي! بل لا بدّ من القدوة الصالحة، والتطبيق العملي

لأخلاق الإسلام وقيمه. والعـالم اليـوم مسـتعدٌّ ومهيّـأ للـدخول في ديـن الإسلام، هرباً من الحيرة والقلق الذي يعيشـه ! ولكـنّ الـذي يمنعـه مـع الأسف، هو سلوك المسلمين المغاير لأخلاق الإسلام. إنّ الناس من غـير المسلمين يسمعون كلاماً طيباً عن الإسـلام، ولكـنهم يصـطدمون بواقـع المسلمين، ويتساءلون في قرارة أنفسهم: لو كان الإسـلام حقّـاً، فمـا بـالُ أهله على هذه الصورة المغايرة؟.

ومع ذلك فإنّ العشرات من أهل أوروبا وأمريكا يدخلون في دين الإسلام كل يوم. وسوف يعمّ الإسلامُ الأرض يوماً ما بإذن الله.

أسأل الله تعالى أنْ ينصر الإسلام والمسلمين.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣﴾

[13] Say (O Muhammad (peace be upon him)) "Verily, if I disobey my Lord, I am afraid of the torment of a great Day."

[13] Dis: "Je crains, si je désobéis à mon Seigneur, le châtiment d'un jour terrible".

[13] ""Sprich: ""Wahrlich, ich fürchte die Strafe eines gewaltigen Tages, wenn ich meinem Herrn ungehorsam wäre.""

(١٣) وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس ١٥].

وكلمة (عَصَيْتُ) من الفعل عصى أي خرج من الطاعة وخالف الأمر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه ١٢١]. وقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل ١٦]. وقوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران ١١٢]. وقوله تعالى عن الملائكة الكرام: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم ٦].

وللمعاصي والذنوب آثارٌ خطيرة. وقد فهم الصحابي الجليل أبو الدرداء ﵁ ما تفعله المعاصي في الأمم والشعوب. فحين فتح المسلمون جزيرة قبرص، أخذ الناس يركضون ويجرون فرحين بهذا النصر، إلا أبا الدرداء جلس جانباً وصار يبكي!. فأقبل عليه أحدُ المسلمين قائلاً: أتبكي في يوم أعزّ اللهُ فيه الاسلام والمسلمين؟ فقال

أبو الدرداء: هذه البلاد (أي قبرص) كانت أمة قاهرة قادرة، فعصتْ أمر ربها، فصيّرها إلى ما ترى". إنّه لا يبكي على هزيمتها، ولكنه يبكي على معصية الله وخوفه من أنْ تعصي أمة الإسلام ربها يوماً ما، فيحل بها ما حلّ بقبرص!!.

وقارن الصحابي الجليل ابن عباس (رضي الله عنهما) بين آثار الحسنات والسيئات على ظاهر الإنسان وباطنه، فقال: "إنّ للحسنة نوراً في القلب، وحُسْناً في الوجه، وقوّة في البدن، ورحبة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإنّ للسيئة ظلمةً في القلب، وشيْناً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق".

وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى: " الذنوب جراحات، وربّ جرح وقع في مقتل". وقد عبّر عن ذلك بأبيات من الشعر حول مَنْ يطيل النظرة المحرمة:

ما زلتَ تُتبعُ نظرة في نظرة   في إثر كل مليحة ومليحِ
وتظنّ ذاك دواءُ جرحك وهو في التـ   ـحقيق تجريحٌ على تجريحِ
فذبحْتَ طرفك باللحاظ وبالبكا   فالقلبُ منك جريحٌ أي جريحِ

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ وقد يورثُ الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفْسك عصيانُها

جاء رجلٌ إلى إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ فقال له:

ـ يا أبا إسحاق، إني مُسرفٌ على نفسي، فاعرض عليّ ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً.

فقال له إبراهيم: سأعرضُ عليك خمس خصال، إنْ قدرْتَ عليها فافعل ما بدا لك!.

قال الرجل: وما هي؟

قال إبراهيم: إذا أردتَ أنْ تعصيَ الله تعالى، فلا تأكلْ منْ رزقه!.

قال الرجل: فمن أين آكل، وجميع ما في الأرض رزقُهُ!.

قال إبراهيم: وإذا أردتَ أنْ تعصيه، فلا تسكنْ شيئاً من بلاده!.

قال الرجل: هذه أعظم، فأين أسكن؟!.

قال: وإذا أردتَ أنْ تعصيه، فانظر موضعاً لا يراك فيه!.

قال: كيف؟ وهو مطّلعٌ على ما في السرائر.

قال: وإذا جاءك ملَكُ الموت ليقبض روحك، فقلْ له: أخّرني حتى أتوب توبة نصوحا.

قال: ما هذا يا إبراهيم؟! إنهُ لا يقبل.

قال: وإذا جاءك الزبانيةُ يوم القيامة ليأخذوك إلى النار، فلا تذهبْ معهم.

قال الرجل: حسبي، حسبي!! أستغفرُ الله وأتوبُ إليه.

يقول الراوي: تاب الرجلُ توبةً كان لها وفيّا، ولزم العبادة، واجتنب المعاصي حتى فارق الدنيا.

أسأل الله تعالى أنْ يجنبنا المعاصي والذنوب.



[14] Say (O Muhammad (peace be upon him)) "Allâh Alone I worship by doing religious deeds sincerely for His sake only (and not to show-off, and not to set up rivals with Him in worship.)"

[14] Dis: "C'est Allah que j'adore, et Lui voue exclusivement mon culte.

[14] ""Sprich: ""Allah ist es, Dem ich in meinem lauteren Glauben Ihm gegenüber diene.

(١٤) وقفنا عند الإخلاص في الآية ١١ فارجع إليها.

﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾

[15] So worship what you like besides Him. Say (O Muhammad (peace be upon him)) "The losers are those who will lose themselves and their families on the Day of Resurrection. Verily, that will be a manifest loss!"

[15] Adorez donc, en dehors de Lui, qui vous voudrez!" - Dis: "Les perdants sont ceux qui, au Jour de la Résurrection, auront causé la perte de leurs propres âmes et celles de leurs familles". C'est bien cela la perte évidente.

[15] ""Verehrt statt Ihm nur, was ihr wollt."" Sprich: ""Wahrlich, die Verlierenden werden jene sein, die sich selbst und die Ihren am Tage der Auferstehung verlieren."" Wahrlich, das ist ein offenkundiger Verlust.

(١٥) إن أفدح خسارة في الوجود هي أن يخسر المرء ذاته!!. يمكن أن يخسر المالَ و الأهل والولد أو المنصب والجاه!. أمّا أن يخسر نفسه التي بين جنبيه فتلك خسارة ما بعدها خسارة!! ومتى؟ يوم القيامة! وأين؟ في نار جهنم!! حقاً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

والآيات التي تنوّه على خسران الذات كثيرة في القرآن الكريم منها:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج ١١].
- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف ٩].
- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف ٥٣].

أسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من الخاسرين.



﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

[16] They shall have coverings of Fire, above them and covering (of Fire) beneath them. With this Allâh does frighten His slaves: "O My slaves, therefore fear Me!"

[16] Au-dessus d'eux ils auront des couches de feu et des couches au-dessous d'eux. Voilà ce dont Allah menace Ses esclaves. "O Mes esclaves, craignez-Moi donc!"

[16] ""Sie werden über sich Schichten von Feuer haben und unter sich (ebenso viele) Schichten. Das ist es, wovor Allah Seine Diener warnt. ""O Meine Diener, darum fürchtet Mich.""

(١٦) الوقفة هنا عند كلمة ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل ٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون ٥٢].

والتقوى: هي وصية الله للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء١٣١] وهي رأس الفضائل، والجامعة لخيري الدنيا والآخرة. قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: "أنْ يُطاعَ فلا يُعصى، ويُذكرَ فلا يُنسى، ويُشكرَ فلا يُكْفَرَ". وقال سهل بن عبد الله: "مَنْ أراد أنْ تصحَّ له التقوى؛ فليترك الذنوبَ كلها".

والتقوى يعرفها إبن المعتز فيقول:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقى

واصنعْ كماشٍ فوقَ أرضِ الشوكِ يحذرُ ما يَرى

لا تحْقِرنَّ صغيرةً إن الجبالَ من الحصى

وقال آخر:

تزوَّدْ من التقوى فإنـك لا تـدري إذا جَنَّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجرِ

وقال آخر:

ولستُ أرى السعادةَ جمع مـالٍ ولكــنَّ التقــيَّ هـــو الســـعيدُ

وقال آخر:

تمسّكْ بتقوى الله إنْ مسَّـكَ الضـرُّ ولا تنكربْ يوماً وإنْ عضك الـدهرُ

وقال آخر:

يزيــدُ التُّــقى ذا الحُسْــنِ حُسْــناً وبهجــةً

وأمــا المعاصـــي فهـي للحُسْـنِ تَســلِبُ

وقال الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز ﷺ:

" ليس تقوى الله بصيامِ النهار وقيام الليل، ولكنَّ تقوى الله تـركُ ما حرَّم الله!! ".

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "كنا نَدَعُ تسـعةَ أعشـار الحـلال مخافة أنْ نقعَ في الحرام". وهذه أرفعُ درجـات التقـوى، ويُطلـق عليهـا الورع.

جاءتْ امرأةٌ إلى الإمام أبي حنيفة ﷺ، ومعهـا ثـوب مـن الحريـر تريد أنْ تبيعه له؛ لحاجتها الماسّة إلى المال، وكان أبو حنيفة تاجرَ حرير يبيع ويشتري.

فقال لها: كمْ تطلبين؟

قالتْ: مئة.

قال: هو خير من مئة (أي يساوي أكثر).

فزادتْ مئةً أخرى، وهو يقول لها: هو خير من ذلك!.

حتى قالتْ: أربعَ مئة.

قال لها: هو خيرٌ من ذلك. (لاحظ أن أبا حنيفة هو المشتري)

قالتْ: أتهزأُ بي؟!

قال: هاتي رجلاً يُـقوّمُه (أي يقدّر سعره).

فقدره الرجل بخمس مئة !! فاشتراه الإمامُ منها بخمس مئة!.

أرأيت؟!. إنه لا يرى في غفلة المرأة فرصةً ينتهزهـا، ولكـنْ يـرى فيها مكان الإرشادِ فيرشد، وموضع النصح فينصح. إنه لم يخـدعها أو يبتزها!. حقاً إن هذا السلوكَ نابع من درجة عالية من التقوى.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتقين.



﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾

[17] Those who avoid At-Tâghût (false deities) by not worshipping them and turn to Allâh (in repentance), for them are glad tidings; so announce the good news to My slaves –

[17] Et à ceux qui s'écartent des Tâghoût pour ne pas les adorer, tandis qu'ils reviennent à Allah, à eux la bonne nouvelle! Annonce la bonne nouvelle à Mes serviteurs

[17] "Und diejenigen aber, die es vermeiden, die Götzen anzubeten, und sich zu Allah wenden - für sie ist die frohe Botschaft (bestimmt). Gib denn die frohe Botschaft Meinen Dienern;

(١٧) ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾:

البشرى من الفعل بَشَرَ: أي فرح وسُرّ. ومنه قوله تعالى:

- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[يونس٦٤].
- ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة ٢١].
- ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت ٣٠].
- ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الحديد ١٢].

عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أرأيت قول الله تعالى: (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة)؟ فقال: "لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحدٌ من أمتي. تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له، بشراه في الحياة الدنيا، وبشراه في الآخرة الجنة".

وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي

كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت ٣٠-٣٢].

وفي حديث البراء ﷺ أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: أخْرُجي أيتها الروحُ الطيبة إلى روحٍ وريحان وربٍ غير غضبان. فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء.

وأما بشراهم في الآخرة فكما في قوله تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد ١٢].

وهناك مبشّراتٌ أخرى كثيرة بشّر الله ورسوله بها المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة. من هذه المبشرات:

- ظهور دين الإسلام على جميع الأديان: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح ٢٨].
- فشل الكافرين من النيل من الإسلام وانتشاره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة ٣٢].
- هزيمة الكافرين في الحرب ضد الإسلام والمسلمين، وخسارتهم الماديّة والمعنوية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ [الأنفال ٣٦].
- اتساع دولة الإسلام، بحيث تضم المشارق والمغارب:

روى مسلم وأبو داود والترمذي، أنّ الرسول ﷺ قال: "إنّ الله زوى لي الأرضَ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ مُلكها ما زوى لي منها".

ومعنى (زوى لي الأرض): أي جمعها وضمّها.

أسأل الله تعالى أنْ يجعلنا من أهل البشرى في الدنيا والآخرة.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

[18] Those who listen to the Word (good advice Lâ ilâha illallâh - (none has the right to be worshipped but Allâh) and Islâmic Monotheism) and follow the best thereof (i.e. worship Allâh Alone, repent to Him and avoid Tâghût) those are (the ones) whom Allâh has guided and those are men of understanding.

[18] qui prêtent l'oreille à la Parole, puis suivent ce qu'elle contient de meilleur. Ce sont ceux-là qu'Allah a guidés et ce sont eux les doués d'intelligence!

[18] es sind jene, die auf das Wort hören und dem besten von ihm folgen. Sie sind es, denen Allah den Weg gewiesen hat, und sie sind es, die Verstand besitzen.

(١٨) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾: أي يفهمون القول الطيب ويصغون إليه، فيدركونه ويستوعبونه. فهم لا يسمعون بواسطة الأذُن فحسب، بل يدركون ما يسمعونه بعقولهم، وهذا هو الإصغاء، إذ هناك فرقٌ بين السمع والإصغاء، فالسمع هو مجرد استقبال الأذن لموجات الصوت، دون أنْ يدرك صاحبها ماهية هذا الصوت أو مدلوله.

أمّا الإصغاء (أو ألإنصات) فهو ترجمة لما نسمع، وإدراكٌ له بالعقل. ولذلك ليس كل الناس لهم القدرة على الإصغاء! نعم كل الناس يسمعون (يعني تستقبل آذانهم موجات الصوت)، ولكنْ قلةٌ منهم منْ يجيد الإصغاء (أي فهْم وتحليل الكلام)!!. يقول الله تعالى عن الكافرين ومن على شاكلتهم من المنافقين والفاسقين:

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف ١٧٩]. نعم، هم لهم آذان، وهي آذانٌ سليمة وتعمل، ولها طبلة ومطرقة وركاب وسندان وعصب سمعي، وتستقبل الموجات الصوتية، ولكن أصحابها لا يفقهون ولا يستوعبون ما يسمعون، ولا يدركون بعقولهم المراد مما يسمعونه من قول! فهم ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف ١٧٩].

وفي موضع آخر عبّر القرآن عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة ١٧١]. ومعنى ينعق: يصيح ويصوّت! أي هم يسمعون مجرد أصوات دون أنْ يفقهوا معناها!!.

لذلك كان السمع الجيّد أصعب من البصر. أي أنّ صاحب السمع يحتاج إلى بذل مزيد من الجهد كي يتمكّن من الفهم والتحليل! وهؤلاء الكفار ليس لديهم الاستعداد لذلك، فهم عطّلوا أسماعهم وأبصارهم: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود ٢٠].

وسوف يندمون أشد الندم يوم القيامة على تفريطهم بالسمع والفهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك ١٠، ١١].

ولقد بيّن العلماء أنّ الإنسان حين يُبصر أو يسمع شيئا يمر بثلاث خطوات: فهو يبصر الشيء أو يسمعه أولاً (مؤثرات حسيّة)، ثم يدرك بعقله ما أبصره بعينه أو سمعه بأذنه (الإدراك)، وأخيراً يتصرف وفق ما يُدرك، وهذا ما يسمى (بالنزوع).

ومثال ذلك: لو نظر إنسانٌ إلى السماء، أو إلى زهرة جميلة، أو إلى أيٍّ من مخلوقات الله الحاثة على التدبر والتأمّل، فإنّ الإدراك المترتب

على حاسة النظر هو: الإعجاب والسرور والخشوع. والنتيجة المترتبة على هذا الإدراك، هي النزوع وهو: ذكر الله تعالى وتسبيحه باللسان، أو أنْ يخرّ المرء لله ساجداً كما حدث لسحرة فرعون حين رأوا معجزة موسى (بالعين)، فآمنوا وعلموا أنها أمرٌ إلهي (إدراك)، فخروا لله ساجدين (نزوع)!.

كذلك الأمر في منهجية السمع، هناك إدراك فنزوع. فعندما يستمع المرء مثلاً إلى تلاوة من القرآن الكريم، أو إلى موعظة، فإنّ الإدراك في هذه الحالة أنْ يعي ويستوعب معنى ما يسمع (إنْ كان من أصحاب الإصغاء الجيد)، مما يقوده بالتالي إلى الإيمان بالله وعمل الصالحات، وهذا هو النزوع. وهذا واضح في قوله تعالى:

- ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ ﴾ [آل عمران ١٩٣].
- ﴿ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة ٢٨٥].
- ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم ٥٨].
- ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ [السجدة ١٥].

وإذا كان ما يسمعونه لغـواً أو فحشـاً، أدركـوا بعقـولهم أنّ هـذا ممـا يغضب الله تعالى، فكان النزوع هو الإعراض والإبتعاد عـن هـذا اللغـو، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص ٥٥].

أسأل الله تعالى أنْ يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.



[19] Is, then one against whom the Word of punishment is justified (equal to the one who avoids evil)? Will you (O Muhammad (peace be upon him)) rescue him who is in the Fire?

[19] Et bien quoi! Celui contre qui s'avère le décret du châtiment,... est-ce que tu sauves celui qui est dans le Feu?

[19] Ist denn der, gegen den das Strafurteil fällig geworden ist (in der Lage, sich zu retten)? Kannst du etwa den retten, der im Feuer ist?

(١٩) العذاب يوم القيامة لا يطاق، وقد بين القرآن الكريم شـدة هذا العذاب، مثل قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء ٥٦].

يقول المحاسبي ـ رحمه الله ـ واصفاً عذاب أهل النار من الكـافرين والمنافقين والظالمين والفاسقين:

" فيا إياس سكان جهنم حين أوصدت عليهم أبوابهـا، فـلا مخـرج منها، ولا محيص لهم من عـذاب الله، خلـوداً فـلا مـوت، وعـذاباً لا زوال له، قد فزعوا إلى الله تعالى بالنداء أن يردهم إلى الـدنيا، فمكـث عنهم دهراً طويلاً لا يجيبهم هوانـاً بهـم، ثـم نـاداهم بالخيبـة منـه أن

﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون ١٠٨]، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبدا. أحزانٌ لا تنقضي، وغمومٌ لا تنفد، وكربٌ لا يهدأ، وجوعٌ لا يشبعون بعده أبداً إلا بالزقوم ينشب في حلوقهم، فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم، قد أكلت النار لحومَهم، ومحت محاسن وجوههم، وكلما نضجت جلودهم، بُدلوا غيرها ليذوقوا العذاب، وهم ينادون بالويل والثبور، ويصرخون بالبكاء والعويل!! .."

وهذا العذاب ثمرة طبيعية لما زرعته أيديهم من شرور في هذه الدنيا. أقليلٌ قتل الأطفال و النساء والشيوخ وتدمير البيوت وحرق المساجد وقصف القرى والمدن؟!..

أقليلٌ تعذيب الأطفال والنساء وانتهاك الحرمات والاغتصاب والظلم والتجويع والإستكبار في الأرض بغير حق؟!!..

أقليل قصف المنازل والأحياء السكنية وهدم البيوت فوق رؤوس أصحابها؟!!..

أقليل دفن النساء والأطفال وهم أحياء في مقابر جماعية؟!!..

أقليلٌ محاصرة الدول وتجويع الشعوب؟!..

أقليلٌ هذا السعي الدؤوب في الإفساد في الأرض، ومحاربة الله ورسوله، والاستهزاء والسخرية من كل ما يمت إلى الدين بصلة؟!

أقليل نشر الفساد والرذيلة ومحاربة حجاب الفتاة المسلمة والتدخل في أبسط حقوقها الشخصية؟!!..

أقليلٌ أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل والفرح والغطرسة والترف والمجون؟!!..

أقليلٌ تعطيل السمع والفكر والعقل؟!! ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك ١٠].

أقليلٌ عبادة غير الله تعالى والإشراك به سبحانه (وحتى يومنا هذا) كعبادة القبور والأموات والتمسح بها والطواف حولها، وتقديس الشمس والنار والشجر والحجر والبقر، وطاعة أوامر الأشخاص والأفراد والأحزاب والفِرَق والجماعات من دون أمر الله، وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله؟؟!!..

حقّاً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل ٩٠].

إن الله سبحانه وتعالى لم يظلمهم بهذا العذاب، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون!!.. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل ٣٣].

قد تسأل فتقول: هل كل ما ذكرتَ من أعمالهم سيحاسبون عليها؟

نعم!. كل صغيرة وكبيرة اقترفوها في الدنيا سيحاسبون عليها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة ٦].

وقال تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف ٤٩].

أسأل الله تعالى أنْ يعيذنا من عذاب النار.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

[20] But those who fear their Lord (Allâh) and keep their duty to Him, for them are built lofty rooms; one above another under which rivers flow (i.e. Paradise). (This is) the Promise of Allâh: and Allâh does not fail in (His) Promise.

[20] Mais ceux qui auront craint leur Seigneur auront (pour demeure) des étages (au Paradis) au-dessus desquels d'autres étages sont construits et sous lesquels coulent les rivières. Promesse d'Allah! Allah ne manque pas à Sa promesse.

[20] Für die jedoch, die ihren Herrn fürchten, sind Hochgemächer über Hochgemächer erbaut, unter denen Bäche fließen. (Dies ist) eine Verheißung Allahs - Allah bricht Sein Versprechen nicht.

(٢٠) ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾: نعم مبنية على الحقيقة لا على المجاز. يقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "مبنية من زبرجد وياقوت، تجري من تحتها الأنهار، أي هي جامعة لأسباب النزهة والمتعة".

وفي القرآن الكريم عدد كبير من الآيات التي تصف لنا طرفاً من نعيم الجنة منها:

- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان ٢٠].
- ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [محمد ١٥].
- ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف ٧٠،٧١].
- ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت ٣١].

- ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء ١٠٢].
- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ ٣١-٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: "في الجنة ما لا عين رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلبِ بشر".

نعم في الجنة من النعيم الذي ينتظر المؤمنين ما لا يخطر على بال!!. فمساكنُها طيبة، تطيبُ فيها الحياة، ويهنأُ فيها المقيم!. والأنهار فيها تجري من تحتها، وهي أنهارٌ متنوعةٌ بين ماء عذب، ولبن سائغ، وخمر شهي، وعسل مصفى.

ويعيش أهل الجنة في جو رائق معتدل الحرارة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان ١٣].

وعبّر القرآن الكريم عن كل صنوف المتع والملذات بجملة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ﴾ [الزخرف ٧١]. نعم كل ما تشتهيه النفوس السويّة ذات الفِطَر

السليمة، وكل ما يُمْتع الأنظار على الإطلاق!!. وفي هذه الآية إجابة شافية لمن يسأل ويقول: هل في الجنة كذا وكذا.. مما عرف من مباهج الحياة الدنيا؟!.

وذكر القرآنُ الكريم الفاكهة كصنفٍ مميّز من أصناف الطعام:

- ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص ٥١].
- ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن ٥٢].
- ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة ٣٢-٣٣].

أما لحم الطير في الجنة ففيه دلالة على ما يرفل به أهل الجنة من الترف والنعيم. وأما الزوجات فيها فهُنّ حورٌ عين، والحور جمع حوْراء. قال مجاهد: الحوراءُ الحسناء يَحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون. وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: "الحوراء هي البيضاء. والعينُ: جمع عيْناء وهي الواسعة العيْن في طول. وإنما أورد العين لأنها في الأنثى من أعظم الأدلة على الحُسْن والجمال.

ويصف المحاسبي في رسالته "التوهم" طرفاً من نعيم الجنة فيقول: " فيا فرحة قلبك حين ثارت أراييحُ الجنة العبقة الطيبة، وهاج ريح مسكها الأذفر وزعفرانها المونع، وحين نظرتَ بعينيك إلى حُسن قصورها، وتأسيس بنيانها، فيا حُسنَ منظرك وأنت في موكبك مِنْ

حورك وولدانك وخدمك !.. حتى انتهيتَ إلى بعض خيامك، فنظرتَ إلى خيمة من درة مجوفة، مفصصة بالياقوت والزمرد، فنظرت إلى حسن أبوابها وبهجة ستورها، وروعة فرشها وزرابيّها وأسرتها في ارتفاعها: عليها فرشٌ من حرير، بطائنها من استبرق، وفوقها الرفرفُ الأخضر، فحار طرفك منها!!.. وقد تدلتْ الأشجار بثمارها من جوانب حَجَلتك، واطّردت الأنهار حول قصرك بالخمر والعسل واللبن، والسلسبيل والتسنيم!! وقد كَمُلَ حُسْنك وأنت لابسٌ أساورَ الذهب واللؤلؤ!! ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج ٢٣].

وجاء في كتاب "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" للإمام ابن القيم رحمه الله:

"فيا عجباً مِنْ سفيهٍ في صورة حليم، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس، وباع جنةً عرضها السماوات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات!!. ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان ١٥، ١٦].

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقال له: تمنّ !! فيتمنّى .. فيقال له: هل تمنيتَ؟ فيقول: نعم! فيقال له: فإن لك ما تمنيتَ ومثله معه" (رواه مسلم).

فواعجباً للجنة كيف نام طالبها، وكيف لم يسمحْ بمهرها خاطبها؟! وكيف طاب العيشُ في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟! وكيف قرّ للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها، وكيف صبرتْ عنها أنفسُ الموقنينَ، وكيف صدفتْ عنها قلوبُ أكثر العالمين؟!!. ثم أنشد:

فيا خاطب الحسناء إنْ كنتَ راغبا فهذا زمان المهر فهو المقدَّمُ
وإنْ ضاقت الدنيا عليك بأسرها ولم يك فيها منزلٌ لك يُعلمُ
فحيّ على جنات عدن فإنها منازلنا الأولى وفيها المخيّمُ

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أصحاب الجنة بفضله وكرمه.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

[21] See you not that Allâh sends down water (rain) from the sky, and causes it to penetrate the earth, (and then makes it to spring up) as water-springs, and afterward thereby produces crops of different colors, and afterward they wither and you see them turn yellow; then He makes them dry and broken pieces. Verily, in this is a Reminder for men of understanding.

[21] Ne vois-tu pas qu'Allah fait descendre du ciel de l'eau, puis Il l'achemine vers des sources dans la terre; ensuite avec cela, Il fait sortir une culture aux couleurs diverses, laquelle se fane ensuite, de sorte que tu la vois jaunie; ensuite, Il la réduit en miettes. C'est là certainement un rappel aux (gens) doués d'intelligence.

[21] Hast Du nicht gesehen, daß Allah Wasser vom Himmel niedersendet und es als Quelladern in die Erde eindringen läßt und dadurch Gewächs hervorbringt, das mannigfaltig an Farben ist? Dann wird es reif, und du siehst es gelb werden; dann läßt Er es in Stücke zerbrechen. Hierin liegt wahrlich eine Mahnung für Leute von Verstand.

(٢١) سنقف في هذه الآية مرتين:

مرة عند (الماء) والأخرى عند (الحياة الدنيا) .

يقول العلماء: إن أصل ماء المطر هو من الأرض، من البحار والمحيطات والأنهار وباطن الأرض، يتبخر ويصعد نحو الأعلى ثم يرجع مرة أخرى على شكل مطر ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾ [الطارق١١].

ويتوزع المطر النازل إلى ثلاثة أجزاء:

- جزء يسقط فوق البحار و المحيطات .
- وجزء يروي اليابسة، فيرتوي الزرع والحيوان والإنسان .
- وجزء يتسرب الى داخل القشرة الارضية ويخزن على شكل عيون وينابيع وآبار ارتوازية لفائدة الانسان. قال تعالى:

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾ [المؤمنون ١٨]

ولولا رحمة الله تعالى لجف هذا الماء أو غار في جوف الأرض !!

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك٣٠].

والماء نعمة عظيمة من الله. إنه مادّة الحياة، فلا حياة بدون ماء، فأصل جميع الكائنات الحية واحد، فهي جميعها مخلوقة من مركّب

الماء! يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ (النور ٤٥) ويقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان ٥٤].

والإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون ماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة على أقل تقدير.

والماء قديم جداً قِدم الوجود. يخبرنا القرآن الكريم أن عرش الله تعالى كان على الماء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود ٧]. بل إن الماء موجودٌ في الآخرة، في كل من الجنة والنار! في الجنة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد ١٥]

وفي النار: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد١٥] فهو في الجنة للنعيم، وهو في النار للتعذيب !!.

والماء أفضلُ مشروب على الإطلاق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل:١٠]. فهو مادة ضرورية لصحة الجسم، إذ يلزم الشخصَ العادي أن يشرب يومياً مقدار (لترين من

الماء) حتى يظل بصحة جيدة. بل إن الماء وسيلةٌ للعلاج في كثير من الحالات المرضية منذ نبي الله أيوب عليه السلام حين قال الله له:

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص٤٢].

واليوم هناك ما يسمى (معجزة العلاج بالماء). فقد قام الإتحاد الياباني للأمراض بنشر التجربة التالية للعلاج بالماء، حيث بلغت نسبة نجاحها ١٠٠٪ لعلاج الأمراض التالية:

- الصداع
- ضغط الدم
- سرعة خفقان القلب
- داء المفاصل
- السمنة
- السعال
- الربو
- التهاب المسالك البولية
- التهاب غشاء المعدة
- الإمساك
- السكري
- السرطان

- عدم انتظام الدورة الشهرية للمرأة.

يقول القائمون على البحث: "أثبتتْ هذه التجربة الشفاء من تلـك الأمراض في فترات زمنية متفاوتة. فمثلاً يتطلب عـلاج ضـغط الـدم مدة ثلاثين يوماً، والسكري ثلاثين يوماً، ومشاكل المعدة عشرة أيام، والإمساك عشرة أيام، والسرطان ستة أشهر."

وطريقة العلاج كالآتي:

- إشرب على الريق في الصباح الباكر كل يوم ٦٤٠ مليليتر من الماء أي ما يعادل (٣ كاسات كبيرة) على معدة فارغة، ولا تتناول أي نوع من الطعام أو السوائل قبل مضي ٤٥ دقيقة على شرب الماء.
- بعد ٤٥ دقيقة تناول فطوراً عادياً .
- لا تأكل أو تشرب خلال الساعتين التاليتين لكلٍ من وجبة الفطور والغداء والعشاء.

الوقفة الثانية عند الحياة الدنيا:

ذكرتْ الآية بعد ذلك أن اللهَ تعالى يُخرج بهذا الماء زرعـاً مختلفـاً ألوانه، هذا الزرع سرعان ما يذبل ويصـفر ويتفتـت !! .. هـذا المثـل

ضربه الله للدنيا في قصر المدة وسرعة الزوال، أي كما يتحول الزرع الأخضر اليانع، فيصير مصفراً ذابلاً، ثم هشيماً متكسراً، كذلك حال الدنيا، تفنى وتخرب بعد بهجتها وزينتها:

- ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف٤٥]
- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس ٢٤].
- ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد٢٠]

ورحم الله القائل:

خليلي ما الدنيا بدار فكاهـةٍ ولا دار لذاتٍ لِمَنْ صـحّ عقلـهُ

وقال آخر:

إيـاك والدنيـا فـإن لباسَـها يبلي الجسـومَ وطيبَهـا لا يعبـقُ

وقال آخر:

ومَنْ رام في الدنيا حيـاةً سـليمةً منَ الهمِّ والأكـدارِ رام مُحـالاً

وقال آخر:

إنمـا الدنيـا كظـلٍ زائـلٍ أو كضيف بـات لـيلاً فارتحـلْ
أو كطيـفٍ قـد يـراه نـائمٌ أو كبرقٍ لاح في أفـق الأمـلْ

وقال آخر:

تأمّـلْ في الوجـود بعـين فكْـرٍ تـرى الـدنيا الدنيـةَ كالخيـالِ
فكل الكائنات غـداً ستفنـى ويبقى وجـهُ ربـك ذو الجـلالِ

وكان لقمان الحكيم يقول: "دارٌ أنت إليهـا تسـير، أقـربُ مـن دار أنت عنها ترحل".

وقال الإمام النووي – رحمه الله –:

" لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه".

وقد وصف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ الدنيا بأنها صبابة عيش كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنغص ممزوج بالغصص! إنْ أضحك قليلاً، أبكى كثيرا، وإنْ سَرَّ يوما، أحزنَ شهوراً !! .

وقال أيضاً: "إننا في هذا المسكن غيرُ مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسنُ أنْ نتخذه وطنا ومستقراً، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار، فهو منزلُ عبورٍ لا مستقرُ حبور، ومَعبَرٌ وممرٌ لا وطن ومستقر".

وهذا المعنى فهمه ابن الجوزية من كلام رسول الله ﷺ القائل: (ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).

وقال ﷺ: (مَن أُشرب حُبَّ الدنيا تعلق منها بثلاث: شقاءٍ لا ينفدُ عناه، وحرصٍ لا يبلغُ غناه، وأملٍ لا يبلغُ منتهاه).

أرجو أن لا يُـفهَمَ من الكلام السابق عن الدنيا أنْ نهمـل الـدنيا وأن لا نعمل فيها! كلا ليس هذا هو المقصود !.

المراد هو أن نعمل في الدنيا ونتقن العمل فيها، ولكـن مـن أجـل الآخرة !! أي أن نجعل الدنيا مزرعة للآخـرة. نـزرع الخـير في الـدنيا لنقطف الثمرة في الآخرة. ومعنى هـذا أن نعلـق قلوبنـا وتفكيرنـا في الآخرة، لأن مآلنـا في النهايـة إليهـا. أي لا تـركن إلى الـدنيا وتنسـى الآخرة، بل اعمل وأبدع وأتقن وأخلـص عملـك في الـدنيا وفكـرك مشغول بالآخرة، بحيث لو دعاك ملـك المـوت للرحيـل عـن الـدنيا، لبّيتَ الدعوة فرحاً غير متأسف على تركها !!.

والذين عرفوا حقيقة الدنيا اتخذوها مزرعة للآخرة:

إنّ لله عبـــــاداً فطنـــــا   طلقـوا الـدنيا وخـافوا الفتنـــا
نظـــروا فيهـا فلمـا علمـوا   أنهـــا ليســتْ لحـــي سكنـــا
جعلوهـــا لجـــة واتخـــذوا   صـالح الأعمـال فيهـا سفنـــا

هذا ويمكن أن نوضح طبيعة الحياة الدنيا في جملة من الحقائق:

● اقتضتْ مشيئة الله تعالى أنْ يجعل لهذا الإنسان حياتيْن يحياهما: حياةً قريبة مؤقتة تبدأ بالميلاد وتنتهي بالموت، هي الحياة الدنيا، ومكانهـا سـطح كوكـب الأرض ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا

تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف:٢٥]. وحياةً أخروية دائمة تبدأ بالبعث يوم القيامة، وتنتهي بالاستقرار والخلود في حياة سعيدة (في الجنة)، أو في حياة شقية (في النار): ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥] .

- كلمة (الدنيا) في اللغة: من الفعل (دنا) أي قَرُبَ. فيكون معنى الحياة الدنيا: الحياة الحاضرة القريبة. والدنيا مؤنث، وتذكيرها لفظة: (الأدنى)، فيكون المعنى المرادف للحياة الدنيا: (العيش الأدنى).
- سمّى القرآن الكريم الحياة الدنيا: لعباً ولهواً. واللهو في اللغة: كل عمل تقوم به ثم تتركه، ثم تنتقل إلى عمل آخر فتتركه وهكذا. كالطفل الذي يلهو بلعبة فيتركها مكانها، ثم يلهو بلعبة أخرى حتى يغلبه النعاس فينام. كذلك الإنسان يعمل في الدنيا ثم يترك ما عمل حتى يدركه الموت !!.
- إذا وُزنتْ الحياة الدنيا بالآخرة فهي ليستْ سوى متاع !. والمتاع في اللغة: الزاد أو الأشياء التي يحملها المسافر أو المحارب معه. ونستدل على هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء

١٠٢]. فكلمة أمتعتكم جمع متاع. هذا يعني أن ما يناله المرء في الدنيا من المتع هو شيء يسير بالنسبة لنعيم الآخرة: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة ٣٦].

- عُمُرُ الإنسان في الحياة الدنيا له نهاية، وهو عمر قصير محدود ينتهي بالموت. وهذا العمر بالنسبة للخلود في الآخرة ليس سوى فترة عابرة. قال أحد الصالحين عندما سئل عن فترة مكوثه في الدنيا: "كأنما دخلت من باب وخرجت من آخر !."

ورحم الله الشاعر الذي قال:

فما العمرُ إلا مثلُ خطفة طائرٍ يمرُّ سريعاً لا يُطيق تلبثا

- لأن كوكب الأرض ليس دار قرار، فالحياة على سطحه فيها من المثالب والمنغصات ما يجعلها موصوفة بالدنيا. نلمس تلك المثالب من نواحي شتى:

- **كوارث بيئيـة** (علـى مسـتوى الطبيعـة): زلازل، بـراكين، فيضـانات، أعاصـير، صـواعق، حرائـق، تلـوث، احتبـاس حراري ...الخ
- **مضـار خطـرة** (علـى مسـتوى البيئـة): نفايـات، سمـوم، حشـرات ضـارّة (ذبـاب، بعـوض، صراصـير، فئـران ...)، جـراثيم، بكتيريـا، روائـح كريهـة، تلـوّث، تعفّـن، أدخنـة وغازات سامة، إشعاعات، ضجيج ...الخ
- **منغصات معيشية** (على مستوى الأفراد والشعوب): فقـر، أمراض، مجاعات، حـروب، فـتن، جـرائم، حـوادث، فسـاد، مؤامرات، تهديدات. ..الخ
- **مُكدّرات نفسية** (على مستوى الفرد): خوف، قلـق، هـمّ، حزن، غضب، يأس، توتر، تعب، ألم ..الخ
- **سلوكيات سلبية** (على مستوى الفرد والمجتمع): ظلم، كبْر، حسد، نفاق، عنصرية، غش، كذب، سـخرية، ريـاء، جهـل، مكر، خداع، خيانة، غيبة، نميمة، عقوق ... الخ

علماً بأن معظم هذه المثالب والمساويء يمكن التخلص منها في ظل تطبيق دين الله عز وجل ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٣، ١٢٤].

ومع ذلك تبقى هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، تشوبها منغصات العيش !. فهي جسر يوصلنا إلى الدار الآخرة .

أدعو الله تعالى أن لا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا .

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ
قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾

[22] Is he whose breast Allâh has opened to Islâm, so that he is in light from His Lord (as he who is non-Muslim)? So woe to those whose hearts are hardened against remembrance of Allâh! They are in plain error!

[22] Est-ce que celui dont Allah ouvre la poitrine à l'Islam et qui détient ainsi une lumière venant de Son Seigneur... Malheur donc à ceux dont les cœurs sont endurcis contre le rappel d'Allah. Ceux-là sont dans un égarement évident.

[22] Ist denn der, dem Allah die Brust für den Islam geweitet hat, so daß er ein Licht von seinem Herrn empfängt (einem Ungläubigen gleich)? Wehe darum denen, deren Herzen vor dem Gedenken Allahs verhärtet sind! Sie sind es, die sich in einem offenkundigen Irrtum befinden.

(٢٢) هذا الدين العظيم سبب في الهداية، وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب وسكونه وخلوّه من الهموم والغموم. وعلامة هذا الانشراح بيّنها رسول الله ﷺ حين سُئل: ما علامة ذلك؟ قال: (الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله).

وعكس الانشراح: الضيق والحرج، كما قال تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام ١٢٥] وفي هذه الآية إشارة علمية يحسن بنا الوقوف عندها:

أثبت العلم الحديث أن الإنسان كلما ارتفع نحو الأعلى شعر بالضيق في صدره! فقد قام الطيار الإيطالي (فرانشيسكو) مع زميله بأول محاولةٍ للصعود بواسطة البالون عام ١٨٠٤م، حيث ارتفعا إلى علو ٣٠ ألف قدم (أي نحو ٩ كيلو متر) وبدون أجهزة واقية. ولما عادا قال: "لقد أصبح من المتعذر علينا سماع أصواتنا حتى لو ارتفعت لدرجة الصراخ، كما أحسسنا بالقيء ونزيف الدم من الأنف، وصعوبة التنفس، والإحساس بضيق في الصدر !!".

فالإنسان الذي لا يشرح صدره لهذا الدين العظيم، بل يشعر منه بالضيق والتذمر كشعور من يصعد نحو الأعلى، هو إنسانٌ لا يستحق الهداية، وسيبقى في غيه وضلاله.

ثم هدد الله تعالى أصحاب القلوب القاسية من ذكْره سبحانه وتعالى .

والقلب القاسي هو ذاك القلب الصلب الذي لا يرقّ ولا يلين. تماماً كالحجارة !! كما قال تعالى:

- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة ٧٤]
- ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام ٤٣].
- ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد ١٦] .

قال مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ:

"ما ضُربَ عبدٌ بعقوبة أعظم منْ قسوة القلب".

وضد القسوة الشفقة والرحمة. قال رسول الله ﷺ: "من لا يَرحم لا يُرحم".

وقال: "من مسح على رأس يتيم، كان له بكل شعرة تمر عليه يده نورٌ يوم القيامة".

نعوذ بالله من قسوة القلب.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

[23] Allâh has sent down the Best Statement, a Book (this Qur'ân), its parts resembling each other (in goodness and truth) and oft-repeated. The skins of those who fear their Lord shiver from it (when they recite it or hear it). Then their skin and their heart soften to the remembrance of Allâh. That is the guidance of Allâh. He Guides therewith whom He wills; and whomever Allâh sends astray, for him there is no guide.

[23] Allah a fait descendre le plus beau des récits, un Livre dont (certains versets) se ressemblent et se répètent. Les peaux de ceux qui redoutent leur Seigneur frissonnent (à l'entendre); puis leurs peaux et leurs cœurs s'apaisent au rappel d'Allah. Voilà le (Livre) guide d'Allah par lequel Il guide qui Il veut. Mais quiconque Allah égare n'a point de guide.

[23] Allah hat die schönste Botschaft, ein Buch, herabgesandt, eine sich gleichartig wiederholende Schrift, vor der denen, die ihren Herrn fürchten, die Haut erschauert; dann erweicht sich ihre Haut und ihr Herz zum Gedenken Allahs. Das ist die Führung Allahs; Er leitet damit recht, wen Er will. Und der, den Allah zum Irrenden erklärt, wird keinen Führer haben.

(٢٣) سُمي القرآنُ حديثاً، لأن الرسول ﷺ كان يحدث به أصحابه. كما قال تعالى:

- ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾ [الاعراف ١٨٥]
- ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ [النجم ٥٩]
- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف ٦]

يقول عليه الصلاة والسلام واصفا القرآن:

" كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن ٢] من قال به صدق ومن عمل به أجِرَ، ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ".

ومعنى ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾: أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحكمة وجزالة الألفاظ، ليس فيه تناقضٌ أو اختلاف، أي هو من نفس الديباجة ومصاغ بنفس الأسلوب من البلاغة والبيان والإبداع.

ومعنى ﴿مَّثَانِيَ﴾: أي تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وتثنى آياته للتلاوة وتتلى مراراً وتكراراً فلا تُمل، كما قال رسول الله ﷺ: (ولا يَخلَقُ على كثرة الرّد).

﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾

تهتز وتنكمش خوفاً من الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: "ما اقشعرّ جلدُ عبدٍ من خشية الله إلا حرّمه الله على النار".

يقول أحد العلماء الأفاضل: "صليتُ في المسجد النبوي بالمدينة، فقرأ الإمام من سورة الواقعة، فأصابني من الذهول والوجل ما جعلني أهتز مكاني، وأتحرك بغير إرادة مني، مع بكاء ودمع غزير!!.."

كيف لا، والله عز وجل يقول: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر ٢١]

ويقـول تعـالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد ٣١] أي لو كان من شأن قرآن أن تسـير بـه الجبـال أو تقطع به الأرض، أو يكلم به الموتى، لكان هو هذا القرآن !!..

ومع ذلك هناك نفوسٌ مغلقة لا تتأثر بالقرآن، ولا تفقه منه شـيئاً ولا تؤمن به، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصـلت ٤٤] أي مثلهم كمثل الشخص الذي يُنادى من مكان بعيـد .. هـل يسـمع شيئاً؟ هل يفقه شيئاً؟ هل يرى ملامح الشخص المنادي؟ كلا !! كمـا قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ﴾ [الأنعام ٢٥]. فقلوبهم لا تعقل، وأسماعهم لا تدرك. ليس لأن القرآن لا يؤثر، بل لأنهم استحبوا العمى على الهدى!!.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: أي تسـكن وتهـدأ وتطمئن، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد ٢٨].

وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه نور و شفاء لما في الصدور. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس٥٧] وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ٨٢﴾ [الإسراء ٨٢] .

وفعلاً فقد تبين أن أنجع علاج لداء الإكتئاب هو القرآن !!. وقد ازداد الاهتمام في الآونة الأخيرة بالقوة الشفائية للقرآن، والتي أشارت إليها الآية الكريمة. وللعلماء آراء متباينة في هذا التأثير الشفائي، هل هو عضوي أم روحي، أم خليط من الاثنين معاً؟!

وحسبك ايها القاريء أن تعلم أن رسول الله ﷺ وصف لصدأ القلوب دوائين، وأوصى بتناولهما بكثرة، ألا وهما: ذكر الموت وتلاوة القرآن!..

قال أحد الصالحين: أحسست بهمٍّ مقيم، وغمٍّ لا يعلمه ألا الله، فأخذت المصحف وظللت أتلو !! يقول: فزال عني، والله، فجأة هذا الغم، وأبدلني الله مكانه سروراً وحبورا !!.

واعلم أنه لا بد من تلاوة القرآن بتأمل وتدبر، كي ينشرح الصدر ويزول الغم .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "لئن أقرأ البقرة وآل عمران بتدبر، أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة".

والآيات التي تحث على التدبر كثيرة، منها قوله تعالى:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء ٨٢]
- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص ٢٩] .

ولا يقتصر تأثير القرآن على القراءة فحسب، بل الاستماع أيضاً.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف ٢٠٤]

لذا كان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع القرآن من غيره، وكان يستأنس إذا سمع القرآن من سواه، فكان يطلب من أصحابه أن يقرئوا عليه ـ مع أن القرآن أنزل عليه ـ !.

أمر ﷺ عبد الله ابن مسعود ذات يوم أن يقرأ عليه. فيقرأ عليه من سورة النساء، فيبكي ﷺ حتى تنهمر دموعه، فيقول له: "حسبك الآن".

ويمر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ في المسجد، فينصت له عليه الصلاة والسلام، فيقول له في الصباح: "لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك !! "فيقول أبو موسى: "لو أعلم يا رسول الله أنك كنتَ تستمعُ إليّ، لحبرته لك تحبيراً "أي لحسنته تحسينا وجعلت التلاوة غاية في الجمال.

وحول القوة الشفائية للقرآن الكريم، قام أحد الخبراء وهو طبيب مسلم مقيم في أميركا بعمل دراسة ميدانية على تأثير القرآن على وظائف أعضاء الجسم، وقد عُرضت النتائج على المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الاسلامية في اميركا الشمالية، واستخدم في التجربة أجهزة الكترونية مزودة بكمبيوتر، وقام بإجراء التجربة على عدد من المتطوعين من غير المسلمين، وغير الناطقين بالعربية وأسمعهم تلاوات قرآنية، وتم تسجيل وقياس أثر القرآن عليهم !!.

وكرر التجربة خلال ٤٢ جلسة، في كل جلسة كان هناك خمسة من المتطوعين. ولكي تكون النتائج دقيقة فقد تُليتْ على المتطوعين مقاطع من القرآن ومقاطع عربية من غير القرآن، وروعي في القراءات غير القرآنية أن تكون مطابقة للقراءات القرآنية من حيث

الصوت والنغمة، علماً أن المتطوعين سمعوا القراءتين (القرآنية وغير القرآنية) ولم يفهموا المعنى !!..

بينت النتائج (في حالة الاستماع إلى النص القرآني) ما يلي:

١- انخفاض الجهد الكهربائي للعضلات !!..

٢- انخفاض درجة توتر الجهاز العصبي للأشخاص في ٩٧٪ من التجارب المجراة.

٣- حدوث تغير في الدورة الدموية وعدد ضربات القلب ودرجة حرارة الجلد !!..

حقاً: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر ٢١].

حقاً إن لهذا القرآن سلطاناً على الأفئدة، وقوةً مؤثرة وفاعلة على النفوس !!..

□

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

[24] Is he then, who will confront with his face the awful torment on the Day of Resurrection (as he who enters peacefully in Paradise)? And it will be said to the Zâlimûn (polytheists and wrong-doers): "Taste what you used to earn!"

[24] Est-ce que celui qui, au Jour de la Résurrection, se sera protégé le visage contre le pire châtiment... Et l'on dira aux injustes: "Goûtez à ce que vous avez acquis".

[24] "Ist denn der, der mit seinem Angesicht vor der schrecklichen Strafe am Tage der Auferstehung Schutz sucht, (dem gleich, der hochmütig ist)? Und zu den Ungerechten wird gesprochen werden: ""Kostet nun, was ihr verdientet.""

(٢٤) ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤﴾ . الوقفة هنا عند الظلم:

الظلم أفدح الشرور. وهو يوم القيامة ظلمات وعواقبه وخيمة على مستوى الفرد والأمة، وقد بيّن الله تعالى نتائج الظلم في كثير من الآيات، قال تعالى :

- ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾[الشعراء٢٢٧]
- ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[الأعراف٤٤]
- ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم ٤٢]
- ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾ [الشورى ٤٢]

وقال رسول الله ﷺ: " إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته ".

وفي الحديث القدسي: " وعزتي وجلالي، لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله ".

وأوصى رسول الله ﷺ معاذ بن جبل ﷺ وقال له: " واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ".

وقال أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: " ويحك لا تَظلمْ، كم بكتْ مِنْ بغيِ الظالم عينُ أرملة، واحترقتْ كبدُ يتيم، فلا تحقروا دعاءَ المظلوم، فشرر نار قلبه محمولٌ بريح دعائه إلى سقف بيت الظالم !!"

والتاريخ زاخر بالأمثلة على عواقب الظلم، وأن الله تعالى يستجيب دعوة المظلوم، وإليك بعض الأمثلة :

- عامر بن طفيل يكيد للرسول ﷺ، ويحاول اغتياله، فيدعو عليه رسول الله ﷺ، فيبتليه الله بغدة في نحره، فيموت على التو !!
- أربد بن قيس يؤذي رسول الله ﷺ، ويسعى في تدبير قتله، فيدعو عليه، فينزل الله عليه صاعقة تحرقه هو وبعيره !!.
- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يُضرب بالسياط اللاذعة حتى خُلعتْ كتفاه، وغطاه الدم . يدعو على من آذوْه، فيستجيب الله لدعائه، فيصابُ أحدهم بالفالج . وأما الآخر، فسلط الله عليه مَنْ أخذه وجعله في فرن من نار ودق المسامير في رأسه!!.
- الحجاج بن يوسف الثقفي بعدما قام بقتل العالم سعيد بن جبير أصيب بخُراج في يده، ثم انتشر في جميع جسده، فأخذ يخور من شدة الألم، ثم مات في حالة مؤسفة !.
- صاحب عمل أستأجر اجيرا ولم يدفع له الأجر لمدة طويلة .

طالب الأجير حقه ولكن دون جدوى. خوفه من عـذاب الله فلم يرعوي. أخذ الأجير يضـج بالشـكوى. تمـادى صـاحب العمل في الظلم، ولفق للأجير تهمة. فـرح الظـالم بظلمـه ولم يعلم أن دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويقول: "وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين".

ركب الظالم سيارته الجديدة ذات الـدفع الربـاعي وانطلـق يشـق الرمال في الصحراء، وإذا بالسيارة تتعطل فجـأة في وسـط الصـحراء، وإذا بالسيارة تتعطل فجأة في وسط الرمال! أخرج الهاتف النقال فلـم يعمل! سبحان الله كيف انقطع الإرسال فجأة؟! بقي هذا الظالم يومـاً كاملا يحاول النجاة فلم يستطع، أوشك على الهلاك عطشاً حتى فـتح محرك السيارة وشرب ماء التبريد!.

- حمزة البسيونى مات ميته شنيعة، اذ اصطدمت سيارته وهو خارج من القاهرة إلى الإسكندرية، بشاحنة لنقل اسياخ الحديد المخصص للبناء، فمزقت ضلوعه ولم يستطيعوا انتزاع جسده من الحديد !!.

إنه سرٌّ دعاء المظلوم في جوف الليل !!

سـهامُ الليـل نـافذةٌ ولكـنْ لهـا أمـدٌ وللأمَـدِ انقضـاءُ
فيمسـكها إذا مـا شـاء ربـي ويرسـلها إذا نَفـذَ القضـاءُ

وقال آخر :

تنـامُ عينـاك والمظلـومُ منتبـهٌ يـدعو عليـك وعـينُ الله لم تـنم

وقال آخر :

وحـقِّ اللهِ إن الظلـمَ لـؤْمٌ وإن الظلـمَ مرتعُـهُ وخيـمُ

وقال آخر :

وشرُّ بلادِ اللهِ مـا سـاد أهلَـهُ أراذلُ لا يَرْعـوْنَ حـقَّ كـريمٍ

وقال آخر :

فما مِنْ يـدٍ إلا يـدُ الله فوقها ولا ظـالمٍ إلا سـيُبلى بظـالمٍ

تلك عواقب الظلم على المستوى الفردي . أما على مستوى الأمم والشعوب، فإن لله تعالى سنناً ثابتةً في إنزال العقوبة بالظالمين، في الدنيا قبل الآخرة، سنناً لا تتبدل ولا تتغير !.

- ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد ٣١]

ومعنى قارعة: أي داهية تقرعهم بصنوف البلايا .

- ﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [محمد ١٠]

- ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[النمل ٥١، ٥٢]

وفي عصرنا الحاضر مما نشهده من صنوف العذاب التي تنـزل بالمدن والقرى، كالزلازل والأعاصير، أمثلة حية على عاقبة الظلم والإجرام :

- فعن عقوبة الزلازل يقول تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل ٢٦]

- وعن عقوبة الرياح الشديدة والأعاصير يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾[الأحقاف ٢٤، ٢٥]

- وعن عقوبة تسليط بعضهم على بعـض في اقتتـال أو حـرب أهلية أو فتنة طائفية يقول تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام ٦٥]

أسأل الله تعالى أن يجنبنا الظلم وعواقبه .

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥﴾

[25] Those before them belied, and so the torment came on them from directions they perceived not.

[25] Ceux qui ont vécu avant eux ont démenti (les Messagers), le châtiment leur est venu par où ils ne le pressentaient pas.

[25] "Es leugneten jene, die vor ihnen waren; da kam die Strafe über sie, als sie es nicht ahnten.

(٢٥) وقفنا عند هذا العذاب في الآية السابقة فارجع إليها.

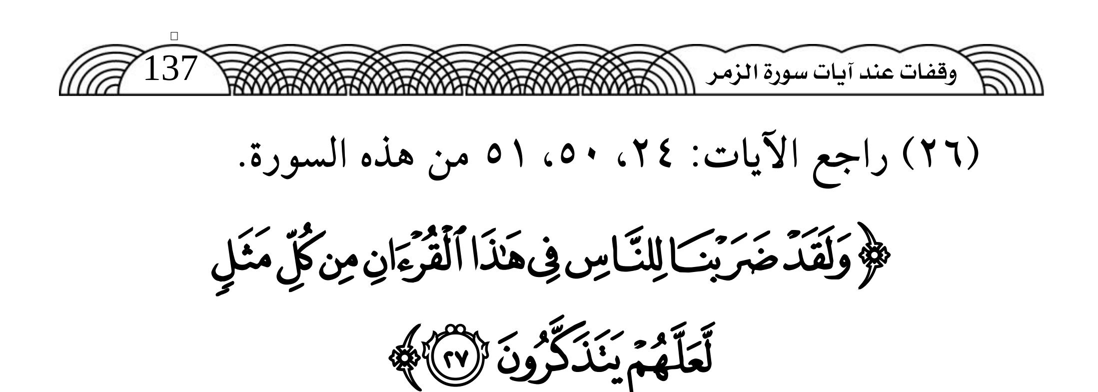
﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾

[26] So Allâh made them to taste the disgrace in the present life, but greater is the torment of the Hereafter if they only knew!

[26] Allah leur a fait goûter l'ignominie dans la vie présente. Le châtiment de l'au-delà, cependant, est plus grand, si seulement ils savaient!

[26] Und Allah ließ sie im irdischen Leben Schande kosten; doch die Strafe im Jenseits wird gewiß größer sein, wenn sie es nur wüßten!

(٢٦) راجع الآيات: ٢٤، ٥٠، ٥١ من هذه السورة.



[27] And indeed We have put forth for men, in this Qur'ân every kind of similitude in order that they may remember.

[27] Nous avons, dans ce Coran, cité pour les gens des exemples de toutes sortes afin qu'ils se souviennent.

[27] Und wahrlich, Wir haben den Menschen in diesem Qur'an allerlei Gleichnisse geprägt, auf daß sie sich ermahnen lassen.

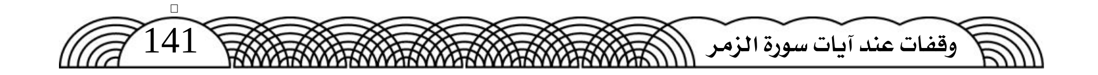
(٢٧) لقد ضرب الله تعالى في هذا القرآن الكثير من الأمثال، من ذلك قوله تعالى:

- ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ ﴾ [النحل ٧٥]
- ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ ﴾ [النحل ٧٦]
- ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ ﴾ [فاطر ١٩ – ٢٢]
- ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ ﴾ [المائدة ١٠٠]

- ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر ٢٠]
- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة ١٨]
- ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة ١٩]
- ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد ١٧]
- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ

يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة ٢٦]

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[إبراهيم ٢٤-٢٦]



[28] An Arabic Qur'ân, without any crookedness (therein) in order that they may avoid all evil which Allâh has ordered them to avoid, fear Him and keep their duty to Him.

[28] Un Coran (en langue) arabe, dénué de tortuosité, afin qu'ils soient pieux!

[28] (Wir haben ihn) als einen arabischen Qur'an (herabgesandt), an dem nichts ist, was (vom geraden Weg) abweichen würde, auf daß sie gottesfürchtig sein mögen.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. أي بلسان عربي مبين. كما قال تعالى:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف ٢]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى ٧]
- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء ١٩٣-١٩٥]
- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان ٥٨]

وسُمِّي العرب عرباً، لأن لسانها أعربُ الألسنة، أي ذات إبانة وإفصاح، وبيانها أجود البيان . وإنما اختار الله تعالى كتابه الكريم ليكون باللغة العربية ؛ لما لهذه اللغة من خصائص ومزايا تجعلها فوق كل لغة بشرية أخرى !.

وفيما يلي جملة من الحقائق حول القرآن الكريم تثبت أنه منزل من عند الله تعالى:

- كان المجتمع الذي بُعث فيه النبي ﷺ مجتمعاً أُمّياً على وجه العموم ؛ أي كان لا يعرف القراءة والكتابة بشكل عام.

يقــول تعــالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة ٢].

- كان الرسول ﷺ نفسه أمياً، إذ لم يكن قبل البعثة يقرأ في كتاب أو يكتب بقلم. بل لم يتلقّ أي تعليم منظّم أو غير منظم ؛ وفي ذلك حكمة. يقول تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت ٤٨] . إذ لو شوهد يكتب أو يقرأ لشكّ الناس وظنوا أن القرآن من تأليفه .

- عاش الرسول ﷺ قبل البعثة في قومه أربعين سنة دون أن يذكر لهم شيئاً عن كتاب، ودون أن يتحدث لهم عن دين !

ثم فجأة يطلع عليهم بقرآن يتلوه عليهم. يقول تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس ١٦]. نعم أفلا تعقلون ؟ أي كيف تزعمون أن هذا القرآن من تأليفي وقد عشتُ بينكم قبله مدة أربعين سنة ؟ إذ

لو أردت تأليف قرآنٍ لفعلت ذلك خلال تلك الفترة! ولو كان هذا الدين من عندي لعرضته عليكم قبل ذلك بسنوات!!. ولكنه من عند الله، وحان الوقت ليخبركم به، ولو شاء سبحانه ما أعلمكم ولا أدراكم به .

- لم يُغادر الرسول ﷺ شبه الجزيرة العربية طيلة الفترة التي سبقت البعثة إلا في سفرتين قصيرتين: إحداهما مع عمّه أبي طالب وهو صبي، والثانية لما خرج للتجارة بأموال خديجة وهو في الثلاثينات من العمر، وفي كلتا الرحلتين لم يُتَحْ له ـ بحكم أميته ـ أن يقرأ شيئاً من النصوص الدينية للمسيحية أو اليهودية . أبعد كل ذلك تشُكّون بمصدر هذا القرآن ؟!. وإذا كنتم مصرّين على زعمكم أن محمداً افترى هذا القرآن من عنده؛ إذن هاتوا فقط عشْرَ سور مفتريات مثله!؟ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود ١٣].
- تحدّى الله تعالى البشرية قاطبة ومعهم الجن كافة بأن يتعاونوا على أن يؤلفوا مثلَ هذا القرآن . قال تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء ٨٨]. بل تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس ٣٨].

- لم يدرسْ الرسول ﷺ في كلية علم، ولم يتخرج من جامعة أكاديمية . ومع ذلك جاء بكتاب فيه لفتات علمية عجيبة ! مَنْ أخبره عن مراحل تكوّن الجنين في بطن الأم ؟ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون ١٢-١٤]. ومن أخبره أن الشمس تتحرك وتجري ؟ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس

٣٨]. وقد تبين للعلماء في هذا العصر أن الشمس تجري بسرعة ٣٠ كم/ الثانية .

وكيف عرف عليه الصلاة والسلام أن الجبال تشكل مراكـز ثقـل تمنع اضطراب حركة الأرض أثناء دورانها ؟

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان ١٠].

الحقيقة أن كفار قريش ذُهلوا من القرآن واحتاروا، ومـا مـنعهم من الإيمان سـوى الكـبر والغطرسـة. ولـذا تخبطـوا وقـالوا أشـياء لا تخضعُ لأي منطق:

١. تارة يشاغبون برفع الصوت أثناء تلاوة الرسول ﷺ للقرآن، ويصدون الناسَ عن سماع القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت ٢٦].

٢. وتارة أخرى يزعمون أن النبي ﷺ يتلقى هذا القرآن من رجل أعجمي كان يسكن في اليمامة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل١٠٣].

سبحان الله ! الرجل أعجمي، والقرآن بلغة عربية، فكيف يتفقان؟!.

٣. وتارة أخرى لا يعجبهم هذا القرآن، فيطلبون من الرسول ﷺ تبديله والإتيانَ بقرآنٍ غيره!! ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ [يونس ١٥].

٤. وتارة يعترضون على أن الله تعالى اختار محمداً ﷺ لينزل عليه القرآن ! إذ كيف يُنزَّلُ عليه القرآنُ وهو ليس زعيم قبيلة، ولم يُنزَّل على رجل عظيم من رؤساء العشائر في مكة والطائف ؟! ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف ٣١]

والإجابة على ذلك ببساطة هي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الانعام ١٢٤] وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ [آل عمران ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٧٥﴾ [الحج ٧٥].

٥. لمّا يئسوا من ذلك كله، قالوا عن القرآن: إنه سحرٌ يُؤثر: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر ٢٥]. ثم قالوا عن الرسول ﷺ إنه ساحر: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس ٢]

سبحان الله ! إذا كنتم تزعمون أنه ساحرٌ قد سحر الناس بهذا القرآن ؛ فلماذا لم يسحركم أنتم كي تتبعوه وتؤمنوا به ؟!. ثم رموه بالجنون :﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر٦] هل المجنون يكون على خلق عظيم، وأنتم تعرفون خلقه جيداً، وكنتم تلقبونه بالأمين ؟.

تلك كانت ردود أفعالهم و أقوالهم إزاء القرآن الكريم وإزاء نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام . وهي ردود فعل تنم عن هزيمتهم وضعف حجتهم . وأقوال القوم هذه تتشابه إلى حد كبير مع أقوال وأفعال القوم ممن على شاكلتهم من كافرين ومنافقين في عصرنا الحاضر مع اختلاف في المسميات والمصطلحات.

ولقد تكفّل الله تعالى بحفظ هذا الكتاب من التحريف والتبديل والضياع. فبالرغم من مئات السنين التي مرّتْ عليه، ورغم القلاقل والفتن والحروب، إلا أنّه لم تُفقدْ منه كلمة واحدة . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر ٩].

ومن الأدلّة على عناية الله تعالى بهذا الكتاب، أنّه سخّر مَنْ يطبعه بأحجام مختلفة، ويوثقه على الأشرطة والأقراص وفي شبكة المعلومات (الإنترنت)، ويعقد المسابقاتُ الدولية من أجل حفظه وتلاوته . حتى غير المسلم يحافظ عليه ! فتجد شخصاً ألمانياً يكتب جميع القرآن في صفحة واحدة ! بل تجد دولاً غير إسلامية تتفنّن في طباعته بالألوان وعلى الورق المصقول . وهذا كله من تدبير الله تعالى.

هذا الاهتمام الشديد بالقرآن ككتاب . أما كرسالة ومنهج فغير مطبّق على أرض الواقع، إلا من رحم الله، لذلك سيبقى القرآن حجة عليهم.

أسأل الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾

[29] Allâh puts forth a similitude: a (slave) man belonging to many partners (like those who worship others along with Allâh) disputing with one another, and a (slave) man belonging entirely to one master (like those who worship Allâh Alone). Are those two equal in comparison? All the praises and thanks are to Allâh! But most of them know not.

[29] Allah a cité comme parabole un homme appartenant à des associés se querellant à son sujet et un (autre) homme appartenant à un seul homme: sont-ils égaux en exemple? Louanges à Allah! Mais la plupart d'entre eux ne savent pas.

[29] Allah prägt ein Gleichnis von einem Mann, der mehreren Herren gehört, die unter sich im Zwiespalt sind, und (von) einem Mann, der einem einzigen Herrn gehört. Sind sie beide einander gleich? Alles Lob gebührt Allah. Jedoch die meisten von ihnen wissen es nicht.

(٢٩) شبّه الله تعالى في هذا المثـل مَـنْ يشـرك بـالله ويتخـذ آلهـة متعددة بالعبد المملـوك الـذي يخـدم عـدة رجـال (متشاكسـين) أي مختلفين فيما بينهم، كل واحد منهم يأمر وينهى هذا العبد . بينما شبّه من يوحّد الله، بالعبد الذي يخدم عند رجل واحد مخلـص لـه، يـأمره وينهاه فيطيع، إذا أطاعه رضي عنه، وإذا عصاه عفا عنه . أيّ العبدين أفضل ؟ هل يستوي العبد الذي يخدم عدة أسياد، والعبد الذي يخـدم سيداً واحداً؟ هل من العقل والمنطق أنْ يستويا ؟.

هل يستوي الشاب المؤمن الخاشـع الراكـع السـاجد، النظيـف في سلوكه. والشاب الفاسق الأرعن الذي يقضي ليله في الزنـا والخمـر؟ هل من المنطق أنْ يستويا ؟

هل يستوي القاضي العادل والقاضي الظالم ؟

هل تستوي دولة العدل والقانون ودولة الظلم وشريعة الغاب ؟

هل يستوي العالم والجاهل ؟

هل تستوي الفتاة المحجبة والفتاة السافرة ؟

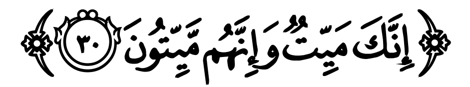
هل يستوي الكريم والبخيل ؟

هل يستوي العزيز والذليل ؟

هل يستوي أصحاب الفضيلة وأصحاب الرذيلة ؟

هل يستوي الخاشع المتواضع والمتغطرس المتكبر؟

راجع الأمثال في الآية ٢٧.


﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾

[30] Verily, you (O Muhammad (peace be upon him)) will die and verily, they (too) will die.

[30] En vérité tu mourras et ils mourront eux aussi;

[30] Wahrlich, du wirst sterben und auch sie werden sterben;

(٣٠) الوقفة في هذه الآية عند الموت :

الموت هو انفصال الروح عن الجسد. أو هو نقلة نوعية من الدنيا إلى جوار الآخرة . وإذا كانت الحياة الدنيا مرحلة تفصل بين الميلاد والموت، فإن الموت هو الحالة البرزخية التي تفصل بين الحياة الدنيا والدار الآخرة، والقبر هو أول منازل الآخرة !!..

والكل يموت . الكل يذوق من هذا الكأس الذي يدور على الجميع .

قال تعالى :

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت ٥٧]
- ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء ٣٤]
- ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة ١١]
- ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ [النساء٧٨]
- ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق ١٩]

وقال رسـول الله ﷺ: " والله لتمـوتُنَّ كمـا تنـامون ولتبعـثنَّ كمـا تستيقظون " .

وقال الحسن البصري رحمه الله: " فضح الموت الدنيا، ما ترك فيهـا لذي لـُبٍّ فرحاً " .

وقال المحاسبي رحمه الله: " عجبتُ كيف تقرُّ عينك والموت لا محالة نازل بك، بنزعه وسكراته، وغمـه وقلقـه، فتـوهم نفسـك وقـد بـدأ ملَـك المـوت يجـذبُ روحـك مـنْ قـدمك، فوجـدتَ ألمَ ذلـك، ثـم استحثّ النزع حتى جُـذبتْ مـن جميـع بـدنك، فبلـغ منـك الكـربُ منتهاه، وقلبك وَجِلٌ محزونٌ ينتظرُ البشرى من الله تعالى: بالغضـب أو الرضا !!، فتوهم نفسك إذ سمعْتَ صوت الملك: أبشـرْ يـا ولـي الله برضا الله وثوابه !! . فتستيقن ـ حينئذ ـ بفـوزك ونجاحـك، وتطمـئن إلى الله نفْسك " .

وأنشد أحد الصحابة :

جزى الله عنا الموتَ خيراً فإنـه أبَـرُّ بنـا مـن كـل شـيء وأرأفُ
يعجّلُ تخليصَ النفوس من الأذى ويُدني من الدار التي هـي أشـرفُ

وقال الشافعيُّ رحمه الله :

تالله لو عاش الفتـى في دهـره ألفـاً مـن الأعـوام مالـكَ أمـرهِ
متمتـعاً فيـها بكـل نفيسـة متلـذذاً فيهـا بنعمـى عصـرهِ

لا يعتريه السـقم فيـها مـرة   كــلا ولا تــردُ الهمــومُ بفكــرهِ
ما كان هــذا كلـه في أنْ يفـي   بمبيــتِ أول ليلــة فــي قــبرهِ

وقال الشاعر:

هي الدارُ دارُ الأذى والقـذى   ودار الفنــــاء ودار الغِيَــــرْ
فلــو نلتهــا بحذافيرهــا   لُمــتَّ ولم تقــض منهــا الــوطرْ

وقال آخر واصفاً ما يفعله الموت بالمرء :

أكل التــرابُ محاسـني فنسيتــكم   وحُجِبتُ عن أهلي وعن أصـحابي
وتساقطتْ تلك الأنامل مـن يدي   ما كــان أحســنَها لخــط كتــابِ
وتساقطتْ تلك العيونُ على الثرى   يــا طالمــا نظـرتُ بهــا أحبابــي

وقال آخر :

إن للموت سكـرةً فارتقبْـها لا يــداويك إنْ أتتــك طــبيبُ

وقال آخر :

خفـّضْ همومَـك فالحيـاةُ غـرورُ ورحى المنونِ علـى الأنـام تـدورُ

وقال آخر :

فكلٌّ جديدٍ أو شـبابٍ إلى بـِلى وكل امـريءٍ يومـاً إلى الله صـائرُ

وقال آخر :

كـم واثقٍ بالدهر يأملُ راحـةً والمــوت مســتترٌ لــه بالبــابِ

وقال آخر :

كم من مدائنَ في الآفاق قد بُنيتْ أمستْ خراباً وأفنى الموتُ أهليها

أين الملوك التي كانتْ مسلطنةً حتى سقاها بكـأسِ المـوتِ سـاقيها

وقال آخر :

لا تركننَّ إلـى الدنيـا ومـا فيــها فــالموت لا شــكَّ يفنينـا ويفنيهــا

واعملْ لدارٍ غداً رضوانُ خازنُهـا والجــارُ أحمــدُ والــرحمنُ ناشــيها

قصورها ذهبٌ والمسك طينتها   والزعفرانُ حشيشٌ نابتٌ فيها

وقال آخر :

سلامي على أهل القبور الدوارسِ   كأنهموا لم يجلسوا في المجالسِ

ولم يشربوا من بارد الماء نهلةً   ولم يطعموا من كل رطب ويابسِ

ولم يك منهم في الحياة منافسٌ   طويلُ المنى فيها كثيرُ الوساوسِ

ألا ليت شعري أين قبرُ ذليلِكم   وقبرُ العزيز الشامخِ المتشاوسِ

لقد سكنوا في موحش التربِ والثرى   فهاهم بها ما بين راجٍ وآيسِ

ولو عقل المرء المنافس في الذي   تركتم من الدنيا له لم ينافسِ

جاء رجل إلى الخليفة علي كرم الله وجهه ليكتب له عقد شراء دار، فنظر الخليفة إلى وجه الرجل، فرأى بعين بصيرته أنّ الغرورَ قد تسرّب إلى نفسه، وأنّ حب الدنيا قد ملك عليه أقطار قلبه، فأراد الخليفة أنْ يلقنه درساً يردّه به إلى صوابه حتى يعلم أنّ حياة أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء، لا تستحق كل هذا الفرح وهذا الغرور !

كتب الخليفة عقد الشراء بصيغة تقشعر منها الأبدان !.

قال بعد أنْ حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد ...

فقد اشترى ميّتٌ منْ ميّتٍ داراً، في بلد المذنبين، وسكّة الغافلين، لها أربعة حدود:

الحد الأول: ينتهي إلى الموت.

والحد الثاني: ينتهي إلى القبر.

والحد الثالث: ينتهي إلى الحساب.

والحد الرابع: ينتهي إما إلى الجنة وإما إلى النار.

فخرج الرجل من عنده وهو يبكي !.

واعلم ـ أخي القاريء ـ أنه عندما يحين أجل المرء، وهو انتهاء مدة حياته على الأرض، يُرسل اللهُ إليه ملكَ الموت الموكلَ بقبض روحه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام ٦١].

فالموت لا مناص منه ولا مهرب، فقد تعاقبتْ قبلنا أجيال لا وجود لها اليوم، إذ انقضى أجلها بالموت الذي أخرجهم من هذه الحياة الدنيا ونقلهم إلى الحياة البرزخية، تمهيداً لبعثهم من قبورهم يوم القيامة . وجيلنا الحالي أيضاً سينقضي أجله لا شك في ذلك، كذلك الأجيال القادمة، وحتى قيام الساعة، أجيال تأتي وأجيال

تذهب !!.. ويوم القيامة يجمعهم الله جميعا ً في مكان واحد. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود ١٠٣-١٠٨].

واعلمْ أنّ آخر ساعة في حياة المرء هي الملخص لما كانت عليه حياته كلها على ظهر هذا الكوكب . فمن كان مقيما ً على طاعة الله تعالى، ظهر ذلك عليه قبيل وفاته ذكرا ً وتسبيحا ً وفرحا ً واستبشارا ً وإليك بعض النماذج :

١. كان بلال بن رباح " رضي الله عنه " يردد حين حضرته الوفاة قائلا ً: " غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه"، فتبكي امرأته قائلة: "واحزناه" فيقول: "بل وا فرحاه"!!..

وهذا الفرح بلقاء الله تعالى هو ما عبر عنه الحسن البصري حين قال: " لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى، فيوم الموت هو يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه !!"

٢. وعندما حضرت الوفاة أبا الدرداء " رضي الله عنه " قال: " ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟ " .

٣. وعندما حضرت الوفاة معاذ بن جبل " رضي الله عنه " قال: " مرحباً بالموت زائر مُغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنتُ أخافك، فأنا اليوم أرجوك" .

٤. ولما احتضر الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز " رضي الله عنه " قال: " مرحباً بهذه الوجوه، ليست بوجوه إنس ولا جان.

ثم تلا: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص ٨٣] ثم قبض رحمه الله.

٥. ولما احتضر ابو هريرة " رضي الله عنه" بكى، فقيل له: ما يبكيك ؟ فقال: " بُعْدُ المفازة، وقلة الزاد، وعقبةٌ كؤودٌ المهبطُ منها إلى الجنة أو إلى النار" .

٦. ولما احتضر ابو بكر الصديق "رضي الله عنه" قالت عائشة:

لعمرك ما يغني الثراءُ عن الفتى إذا حشْرجَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

فقال لها: ليس كذلك ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [ق ١٩]

إذن أنت ـ أخي القاريء ـ مغادر لهذه الدنيا، أنا وأنت وهـو وهـي، كلنا مغادرون . وما دام الأمر كذلك، فعلينا الاستعداد لهذا السفر .

والذين رضوا بالحياة الدنيا وأخلدوا لها واطمأنوا بها، هؤلاء جاهلون وحالمون !. ذلك أن الموت سيخرجهم من هذه الدنيا رغم أنوفهم إن عاجلاً أم آجلاً . ولو عقلوا قليلاً لتذكروا أن هذه الدنيا التي يتشبثون بها ليست دار قرار، بل هي حياة قصيرة ومؤقتة تنتهي بالموت. وسوف يدركون يوم القيامة أن مدة إقامتهم في الدنيا كانت قصيرة: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون ١١٢-١١٤].

نعم سوف يدركون هذه الحقيقة، ولكن مع الأسـف بعـد فـوات الفرصة !!..

أسأل الله تعالى أن يجعل الموت راحة لنا من كل همّ .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

[31] Then, on the Day of Resurrection, you will be disputing before your Lord.

[31] ensuite, au Jour de la Résurrection, vous vous disputerez auprès de votre Seigneur.

[31] dann, am Tage der Auferstehung, werdet ihr wahrlich vor eurem Herrn miteinander streiten.

(٣١) الوقفة هنا عند كلمة ﴿تَخۡتَصِمُونَ﴾:

سوف يتخاصم الجميع في موقف الحساب، المؤمن يخاصم الكافر، والظالم يخاصم المظلوم، والكافر يخاصم قرينه الشيطان، والشعوب المستضعفة تخاصم سادتها من الزعماء المستكبرين، وقادة الضلال يختصمون فيما بينهم ويتبادلون التُهم، والعابدون يخاصمون المعبودين!!.

ولقد بين القرآن هذا التخاصم كما يلي :

١. **التخاصم بين المستكبرين والضعفاء**: نقل إلينا القرآن الكريم الحوار الذي سوف يدور يوم القيامة بين هؤلاء المستكبرين من السادة، وبين شعوبهم المستضعفة التي كانوا يحكمونها في الدنيا:

- ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١ ﴾[إبراهيم ٢١].

- ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر ٤٧، ٤٨]
- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [سبأ ٣٢، ٣٣].

٢. **التخاصم بين قادة الضلال أنفسهم**: سوف يدب الخلاف بينهم، فينقلبون أعداءً بعدما كانوا في الدنيا أخلاء متحابين، وأصدقاء متعاونين، وسوف تقع بينهم مشادّة كلامية شديدة اللهجة، بحيث يلقي كلٌّ طرف العتاب واللوم على الطرف الآخر، ويُحمّله المسؤولية عما آل إليه من هذا العذاب

!! . ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ٢٦ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنِۭۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٥﴾ [الصافات ٢٤-٣٥].

٣. **التخاصم بين العابدين والمعبودين:** ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ٩٣ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ٩٩﴾ [الشعراء ٩١-٩٩].

أما الصالحون الذين عُبدوا من غير علمهم، أو بغير رضاهم كالملائكة وصالحي البشر، فإنهم يتبرؤون من عابديهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ ٤٠،٤١]. كذلك يتبرأ عيسى بن مريم من الذين عبدوه واتخذوه إلها ً من دون الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة ١١٦،١١٧]

٤. **التخاصم بين المرء وقرينه الشيطان**: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ

قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق ٢٧-٢٩].

وبينما الجميع في خصام وعتاب، يظهر لهم الشيطان يخاطبهم و يعترف لهم بالحقيقة، ويتنصّل من المسؤولية بعدما غرّر بهم وأوقعهم في حبائله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم ٢٢]

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[32] Then, who does more wrong than one who utters a lie against Allâh, and denies the truth (this Qur'ân, the Prophet (Muhammad (peace be upon him)) and the Islâmic Monotheism) when it comes to him! Is there not in Hell an abode for the disbelievers?

[32] Quel pire injuste donc, que celui qui ment contre Allah et qui traite de mensonge la vérité quand elle lui vient? N'est-ce pas dans l'Enfer qu'il y a un refuge pour les mécréants?

[32] Wer begeht also ein größeres Unrecht als einer, der Lügen gegen Allah vorbringt, oder einer, der die Wahrheit verwirft, wenn sie zu ihm kommt? Ist nicht in Dschahannam eine Herberge für die Ungläubigen?

(٣٢) لا أحد على الإطلاق أشد ظلماً ممن يكذب على الله سبحانه وتعالى ! والكذب على الله تعالى له صور :

- أنْ ينسب المرء إلى الله ما لا يليق به، كالإدّعاء بأن له بنات أو ولداً ! أو الزعم بأنه فقير، أو أنه خلق الكون ثم استراح ! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .
- أنْ يدّعي المرء النبوّة وأنه أوحي إليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام ٩٣].
- أنْ يدعي المرء بأن الله قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٣٣]. كالذي زعم أن الله أوحى إليه وألهمه غزو ديار المسلمين !!. أو كالذي يذبح القطط ويأكل لحمها زاعماً أَنَّ الله طلب منه ذلك، كي يعجّل بنزول المسيح عليه السلام!!.

كذلك لا أحد أظلم ممن كذّب بالصدق، وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ وما تضمنه من الشرع والآيات البينات، إما بإنكار آية، أو إلغاء حكم أو تعطيل فرض، أو تحريم ما أحل الله تعالى ورسوله، أو إباحة ما حرم الله تعالى ورسوله .

أسأل الله تعالى أن يجنبنا الكذب في جميع صوره.

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[33] And he (Muhammad (peace be upon him)) who has brought the truth (this Qur'ân and Islâmic Monotheism) and (those who) believed therein (i.e. the true believers of Islâmic Monotheism), those are Al- Muttaqûn (the pious and righteous persons - see V.2:2).

[33] Tandis que celui qui vient avec la vérité et celui qui la confirme, ceux-là sont les pieux.

[33] Und der, der die Wahrheit bringt, und (der, der) sie annimmt - das sind die Gottesfürchtigen.

(٣٣) الوقفة هنا عند الصدق:

الآيات التي تتحدث عن الصدق والصادقين كثيرة منها قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩ ﴾ [المائدة ١١٩]
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ [التوبة ١١٩]
- ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ ﴾ [الأحزاب ٢٤]
- ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧ ﴾ [آل عمران ١٧]

والصدق كما بيّن العلماء هو إخلاص النوايا . أو هو استواء السرائر مع الظواهر !!. أي استواء ما يبطنه الإنسان ويخفيه مع ما يظهره ويعلنه.

والإنسان الصادق لا يختلف باطنه عن ظاهره، فهو يبطنُ خيراً ويُظهر خيراً، بعكس المنافق الذي يُظهرُ خيراً ولكنّهُ يبطنُ شرّا !.

منْ هنا يُعرَّف النفاقُ بأنّهُ إختلاف السريرة عن العلانية وهو ضد الصدق . والآية التالية تبين هذا الاختلاف بين الباطن والظاهر: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [البقرة ١٤] ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هذا في الظاهر، لكن ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ بعيداً عن الناس وعن الأضواء وعدسات الكميرات ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ هذا هو الباطن. إذن اختلفتْ نوايا المنافقين عمّا يُظهرونه في العلن، ولذلك كانتْ عقوبة المنافق في الآخرة أشدَّ من عقوبة الكافر ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[النساء ١٤٥].

مِنْ ذلك نستنتج أنّ الباطن هو الأصل وليس الظاهر !. ولـذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يُكثرون من هذا الدعاء: " اللهم اجعـلْ باطنَنا خيراً مِنْ ظاهرنا، واجعلْ ظاهرنا خيرا ". فكانوا حريصين على الصدق أشد الحرص. كانوا حريصين على مُطابقة الظاهر مع الباطن. ما كانوا يُراءون . حتى في العبادات . كان الواحد منهم لا يُطلعُ أحداً على عباداته . كانتْ سرّاً بينه وبين الله.

يُروى أنّ الإمامَ أحمد رحمه الله كان إذا مرّ من السوق يسير بين الحمّالين حتى لا يُشارَ إليه بالبنان، حتى يظنّه الناسُ حمّالاً فلا يشيرون إليه بالبنان !! أي كانوا لا يُحبون الظهور.

حتى في المعارك كان الواحد منهم يتوارى عن الأنظار كي لا يَعرفَ الناسُ اسمَه . وفيما يلي قصة صاحب النّقْب . والنقب أي الفتحة في الجدار:

في أحد المعارك حاصر القائد مَسْلمة بنُ عبد الملِك حصناً مِنْ حصون الأعداء فترة طويلة . وذات ليلة، إنسلّ أحدُ المجاهدين وتسلّق سور الحصن، ونزل على الحراس وقتل الحارس، وفتح نقباً في السور، ودخل الجيش الإسلامي واحتلّ الحصن !.

ونادى القائدُ مَسلمة: أيّكمْ صاحبُ النقب ؟ (وذلك من أجل مكافئته) فلمْ يتقدّمْ إليه أحد.

وذات ليلة، وإذا بفارس مُلثم يدخل خيمة القائد مَسلمة ويقول: أتحبُّ أنْ تعرفَ مَنْ صاحبُ النقب؟

قال: نعم

قال الملثم: بشرط أن لا تذكر اسمهُ لأحد، وأن لا تكافئه!

قال: موافق

قال: أنا صاحبُ النقب . ولم يذكر اسمه ثم فرّ هارباً !!

كان القائد مَسْلمة بعد ذلك كلما توجّه إلى القبلة بالـدعاء يقـول: (اللهم احشرني مع صاحب النقب).

بمثل هذه النفوس الصادقة قامتْ حضارة الإسلام العظيمة الـتي كانت كلها خـيراً وبركـات، وخفـق لـواءُ الحـق في أرجـاء الأرض، ونُصبتْ موازينُ العدل، وكان المسلمون الأوائل أساتذة الدنيا، علّموا البشرية كلها، فأحيوْا القلوب بالإيمان، وأناروا العقول بالعلم.

أسـأل الله تعـالى أن يجعلنـا مـن الصـادقين، وأنْ يعيـد لنـا تلـك الأمجاد.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾

[34] They shall have all that they will desire with their Lord. That is the reward of Muhsinûn (good-doers - see V.2:112).

[34] Ils auront tout ce qu'ils désireront auprès de leur Seigneur; voilà la récompense des bienfaisants,

[34] Sie werden alles, was sie wünschen, bei ihrem Herrn haben. Das ist der Lohn derer, die Gutes tun;

(٣٤) لهم ما يشاءون في الجنة من النعيم الدائم المقيم، وقد وقفنا طويلاً عند هذا النعيم، راجع الآية ٢٠ من هذه السورة.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[35] So that Allâh may expiate from them the evil of what they did and give them the reward, according to the best of what they used to do.

[35] afin qu'Allah leur efface les pires de leurs actions et les récompense selon ce qu'ils auront fait de meilleur.

[35] auf daß Allah von ihnen das Schlimmste hinwegnehme von dem, was sie getan haben, und ihnen ihren Lohn gebe gemäß dem Besten, das sie zu tun pflegten.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾:

يكفّر: من الفعل كَفَرَ أي ستر وغطى . نقول: كفر الفلاحُ البذرة بالتراب، أي غطّاها. ومنه سُمّي الكافر لأنه يغطي ويستر إيمانه.

ومعنى ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾: أي يمحو عنهم سيئات ما عملوا في الدنيا فلا يؤاخذهم، فضلاً منه سبحانه. وهذا مثل قوله تعالى

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف ١٦]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ [محمد ٢]
- ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [التغابن ٩]

هذا التكفير عن السيئات يكون في الآخرة، وأمّا في الـدنيا، فـإنّ الله تعالى يكفّر عن المؤمن سـيئاته وأخطـاءه الـتي يقترفهـا في حياتـه اليوميـة فيمحوها عنه أوّلاً بأوّل، وذلك من خلال الإبتلاءات والمصائب .

لمّا نزل قوله تعـالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النسـاء ١٢٣]، قال أبو بكر الصديق ﵁: يا رسول الله، كيف الفلاحُ بعد هذه الآية؟ فقال له رسول الله ﷺ: " غفر الله لك يا أبا بكر، ألیس تمرض؟ ألـيس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن؟ قال بلى يا رسول الله، قال: فهـذا مـا تُجزوْن به " .

وقال رسول الله ﷺ: " ما يُصيبُ المسلمَ من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكةُ يُشاكها، إلا كفّر اللهُ بها من خطاياه ". (متفق عليه).

هذا يعني أنّ جميع ما يصيبك من سوء يكون كفّـارة لـك، بشـرط أنْ تكون مؤمناً بالله، عاملاً للصالحات .

بل إنّ الكفّارات المشروعة في هذا الدين العظيم هـي بمثابـة بـاب واسع من أبواب التوبة . والكفّارات هي الأعمال الـتي تكفّـر بعـض الذنوب وتسترها، حتى لا يبقى لهذه الذنوب أثرٌ يُؤاخذ به المـذنبُ في الدنيا والآخرة . وهذا من فضل الله تعالى ورحمته بالمسلمين.

وهذه الكفّارات ذات أنواع متعددة منها: كفارة القتل الخطأ، وكفارة الجماع في نهار رمضان، وكفارة اليمين، وكفارة الإفطار في نهار رمضان، وكفارة النذر، وكفارة الظهار. وإذا أردت شرحاً مفصّلا عن هذه الكفّارات، فيمكنك الرجوع إليها في كتب الفقه، إذ لا مجال لشرحها هنا.

أسأل الله تعالى أن يكفر عنا الذنوب والمعاصي.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

[36] Is not Allâh Sufficient for His slave? Yet they try to frighten you with those (whom they worship) besides Him! And whom Allâh sends astray, for him there will be no guide.

[36] Allah ne suffit-Il pas à Son esclave (comme soutien)? Et ils te font peur avec ce qui est en dehors de Lui. Et quiconque Allah égare n'a point de guide.

[36] Genügt Allah Seinem Diener nicht? Und doch möchten sie dich mit jenen außer Ihm in Furcht versetzen. Und für einen, den Allah zum Irrenden erklärt, gibt es keinen Führer.

(٣٦) ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾:

مَنْ كان اللهُ معه، فلا خوفٌ عليه ولا هو يحزن أو يجزع أو يقلق!.

وكيف يخاف أو يقلق أو يحزن وهو يقرأ قول الله تعالى :

- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس ٦٢-٦٤].
- ويقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[فصلت ٣٠، ٣١].

- ويقرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ ﴾ [الحج ٣٨]
- ويقرأ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة ٢٥٧].
- ويقرأ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤ ﴾ [الأحزاب ٤٣، ٤٤].

لمّا اجتاز موسى عليه السلام البحر مع قومه، وتبعهم فرعون، قال أصحابُ موسى: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾. فردّ عليهم بثقة وطمأنينة: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء ٦٢].

ولمّا هدّد فرعون السحرة الذين آمنوا، قالوا له بكل ثقة وطمأنينة: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ ﴾ [طه ٧٢] .

ولمّا سُجن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال بكل ثقة وطمأنينة كلمته المشهورة: " ماذا يصنعُ فيّ أعدائي ؟ إنّ جنتي وبستاني في صدري لا تفارقني، إنّ سجني خلوة، وإنّ قتلي شهادة، وإنّ نفيي سياحة، ولو أعطيْتُ الناسَ الذين سجنوني مقدار ملء هذه القلعة ذهباً، ما وفيتهم الحق الذي أعطاني الله إيّاه ".

ولمّا وقع الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة في الأسر أثناء فتح بلاد الشام، جيء به إلى كسرى ملك الروم.

قال له الملك: يا عبد الله هل لك أنْ تتنصّر، فأقربك مني، وأزوجك ابنتي ؟.

فقال عبد الله: فإنْ لم أفعل ؟!.

قال الملك: ألآن ترى !.

وأمر به فصُلب، وأمر الرماة المهرة، فرموْه بسهمين قرب رأسه.

قال له الملك: ألا تجيبني فتنجو بنفسك ؟!.

فيجيبه عبد الله: فإنْ لم أفعل ؟!.

فيغضب الملك ويقول لعبد الله: ألآن ترى !.

ويأمر بقدْر تغلي فيه الماء، فيقذف فيه أحد الأسرى، فإذا لحمه يتناثر، ثم يقترب من عبد الله ويكرر عليه السؤال: ألا تجيبني فتنجو بنفسك ؟!.

فيرد عليه عبد الله: فإنْ لم أفعل ؟!.

فيزداد الملك غضباً، ويأمر بقذفه داخل القدر. عندئذ بكى عبد الله، وانفرجت أسارير الملك فرحاً، وأمر بوقف العقوبة.

وقال لعبد الله: أما كنتَ في غنى عن كل هذا لو أنك أجبتني إلى ما عرضتُهُ عليك ؟!.

فيردّ عليه عبد الله: " كأنّك أيها الملكُ حسبتني بكيتُ خوفاً من الموت، لا والله ليس الأمر كما حسبتَ، ولكنني تذكرتُ أنْ ليس لي إلا نفْسٌ واحدة أموت بها هذه الميتة في سبيل الله، وقد كنتُ أتمنى لو أنّ لي ألف نفس تموتُ هذه الميتة في سبيل الله. فذلك ما أبكاني ".

دُهش الملك من شجاعة عبد الله بن حذافة وأطلق سراحه مع ثمانين أسيراً من المسلمين !. ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران ١٧٤].

كانوا لا يخشوْن أحداً إلا الله، ولا يخافون في الله لومة لائم. مُلئتْ قلوبهم ثقة بالله ومحبة ويقينا.

والله أكرمُ مولــىً أنـتَ آملـه يوماً وأعظمُ مَنْ يُعطي ومن يُسَـل

وقال آخر:

كم عسرة ضاق الفتى لنزولها   لله فـــي أعطافـــها ألطـــافُ

وقال آخر:

وما نال عبدٌ قـطّ ُ فضلاً بقوّةٍ   ولكنّـــه مـــن الإلـــه وفضلـــهِ

وقال آخر:

ولا ترجُ غير الله في كل حالـة   فمنهُ العطا والمنعُ والنفـعُ والضُّـرُّ

وقال آخر:

وإذا العنايةُ لاحظتْكَ عيونُها   نـــمْ فالمخـــاوفُ كلّهـــنّ أمـــانُ

وقال آخر:

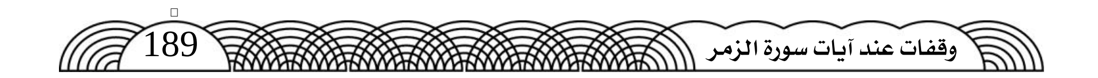
يا صاحب الهمّ إنّ الهمّ منفرجٌ ... أبشــــرْ بخــير فــإنّ الفـــارجَ اللهُ

اليأسُ يقطعُ أحيانـاً بصاحبــه ... لا تيْأســــنّ فـــإنّ الكافـــي اللهُ

إذا بُليتَ فثقْ بـالله وارضَ بـه ... إنّ الذي يكشفُ البلـوى هـو اللهُ

والله ما لك غير الله منْ أحـد ... فحسْـبُك الله فــي كـلّ ٍ لـك الله

أسأل الله تعالى أنْ يرزقنا الثقة واليقين به.



[37] And whomsoever Allâh guides, for him there will be no misleader. Is not Allâh All-Mighty, Possessor of Retribution?

[37] Quiconque Allah guide, nul ne peut l'égarer. Allah n'est-Il pas Puissant et Détenteur du pouvoir de châtier?

[37] Und für einen, den Allah rechtleitet, gibt es keinen, der ihn irreführen könnte. Ist Allah nicht Erhaben und Mächtig, um Vergeltung zu nehmen?

(٣٧) الوقفة هنا عند: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا مثل قوله تعالى:

- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم ٤٧]
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة ٩٥]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران ٤]
- ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف ١٣٦]
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم ٤٧]

وفيما يلي بعض الأمثلة على انتقام الله تعالى من المكذبين، على مستوى الشعوب والأفراد في الماضي والحاضر :

١. الانتقام من قوم نوح بالطوفان: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف ٦٤]

٢.الانتقام من عاد قوم هود بالإعصار المدمّر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾[القمر ١٩، ٢٠]

٣. الانتقام من ثمود قوم صالح بالصيحة: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود ٦٧]

٤. الانتقام من قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف ٨٤]

٥. الانتقام من أهل مدين قوم شُعيب بالرجفة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف ٩١]

٦. الانتقام من فرعون وجنوده بإغراقهم في البحر:﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[القصص ٤٠]

٧. الانتقام من قارون بأنْ خسف الله به وبداره الأرض: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[القصص ٨١]

وفي عهد النبي ﷺ، لم ينتقم الله من قومه كما حدث للأقوام السابقة، وإنما انتقم من بعض الأفراد الذين أمعنوا في إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام والتطاول عليه. انتقم الله منهم في الحال بمجرد أن دعا عليهم رسول الله. ومن هؤلاء الأشخاص :

- الأسود بن المطلب بن أسد (أعمى الله بصره في الحال) .
- الأسود بن عبد يغوث (مات من انتفاخ في بطنه) .
- الوليد بن المغيرة (مات من أثر جرح في رجله) .
- العاص بن وائل (قتلته شوكة دخلت في أخمص قدمه) .
- الحارث بن الطلاطلة (امتخض رأسهُ قيحاً فمات) .

- عتبة بن أبي لهب (تمادى في إيذاء النبي ﷺ، فدعا عليه النبي وقال: " اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ". فسلط الله عليه أسداً فغر رأسه فمات في الحال، وكان في رحلة إلى الشام) .
- عبد الله بن قمئة (ضرب النبي ﷺ بحجر يوم أحد فشجه في وجهه وكسر رباعيته، فدعا عليه النبي وهو يمسح الدم عن وجهه. فسلط الله عليه تيساً ظل ينطحه بقرنيه حتى ألقاه من فوق الجبل صريعاً) .
- أربد بن قيس (تجرأ على رسول الله ﷺ، فدعا عليه الرسول، فأرسل الله تعالى عليه صاعقة فأحرقته) .
- كسرى عظيم الفرس (مزّق خطاب النبي ﷺ الذي أرسله إليه يدعوه إلى الإسلام، فدعا عليه النبي قائلاً: " اللهم مزّقْ مُلكَه"، فانتقم الله منه بأنْ مزّق دولته وجعلها غنيمة للمسلمين، ثم سلط الله عليه ابنَه ويدعى شيرويه فقتله).
- ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه أنّ أحد الكفرة وقف أمام قومه يخطب فيهم وينتقص من شأن النبي عليه الصلاة والسلام، وكان بجانبه كلب مربوط، فلما بالغ في الانتقاص، وثب عليه الكلب وخمشه في وجهه، فأبعدوه عنه. فقال له أحد الحضور: هذا بسبب كلامك في محمد !. قال: لا. ثم عاد إلى انتقاص

النبي من جديد بل وأكثر. عندها هجم عليه الكلب مرة أخرى، فنهش زردمته فقلعها، فمات من حينه !.

وأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفاً من قومه !!.

وفي العصر الحديث هناك أمثلة كثيرة جداً على انتقام الله تعالى سواء من الأفراد أو من الشعوب، وأكتفي بذكر مثال أو مثالين :

- في حديقة (هايد بارك) في لندن حيث يلتقي الخطباء والمتحدثون، وقف أحد الدعاة المسلمين وتحدث عن الإسلام، فانبرى له رجل بريطاني من غير المسلمين وصار يقاطع الداعية المسلم ويشوش عليه، ثم تمادى أكثر، فأخذ يسبّ الله عز وجل ويسب النبي ﷺ، فلم يمهله الله طرفة عين، وإذا به يخرّ في الحال على وجهه صريعاً!.
- الانتقام من ولاية لويزيانا الأمريكية، حيث سلط الله عليها إعصارا مدمّرا (إعصار كاترينا) الذي ضرب مدينة(نيوأورليانز) يوم الإثنين ٢٩/٨/ ٢٠٠٥، فدمّرها عن بكرة أبيها، وقُدّرتْ الخسائر بقيمة ٢٥٠ مليار دولار !!.

واعلم أنّ كل مَنْ يسيء إلى هذا الدين، أو يؤذي مؤمنا في نفسه أو أهله أو ماله ولم يتبْ، فسوف ينتقم اللهُ منه عاجلا أم آجلا.

أسأل الله تعالى أن ينزل في الكافرين والظالمين بأسه الذي لا يُرد.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

[38] And verily, if you ask them: "Who created the heavens and the earth?" Surely, they will say: "Allâh (has created them)." Say: "Tell me then, the things that you invoke besides Allâh - if Allâh intended some harm for me, could they remove His harm? Or if He (Allâh) intended some mercy for me, could they withhold His Mercy?" Say: "Sufficient for me is Allâh; in Him those who trust (i.e. believers) must put their trust."

[38] Si tu leur demandais: "Qui a créé les cieux et la terre?", Ils diraient assurément: "Allah". Dis: "Voyez-vous ceux que vous invoquez en dehors d'Allah; si Allah me voulait du mal, est-ce que (ces divinités) pourraient dissiper Son mal? Ou s'Il me voulait une miséricorde, pourraient-elles retenir Sa miséricorde?" - Dis: "Allah me suffit: c'est en Lui que placent leur confiance ceux qui cherchent un appui".

[38] "Und wenn du sie fragst: ""Wer schuf die Himmel und die Erde?"", so werden sie sicher sagen: ""Allah."" Sprich: ""Seht ihr denn, was ihr außer Allah anruft? Wenn Allah mir Schaden zufügen will, können sie (dann) den Schaden entfernen? Oder wenn Er mir Barmherzigkeit erweisen will, können sie (dann) Seine Barmherzigkeit verhindern?"" Sprich: ""Allah genügt mir. Auf Ihn vertrauen die Vertrauenden.""

(٣٨) ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾:

والتوكل على الله تعالى هو نبع الثقة واليقين وأساس الطمأنينة ونصف الدين. وقد وردت آيات التوكل في مواضع كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى:

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [إبراهيم ١١]
- ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال ٢]
- ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق ٣]
- ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود ١٢٣] .

وفي اللغة، معنى توكل عليه: إستسلم له.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: " التوكل هو الثقة بالله "

وقال الإمام أحمد: " التوكل هو تفويض الأمر إلى الله "

وقال ابن حجر: "التوكل هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب".

وقيل: التوكل هو الجمع بين العمل والأمل مع هدوء القلب وطمأنينة النفس.

ورحم الله الشاعر الذي قال :

توكلْ على الرحمن في الأمر كله فما خاب حقاً مَنْ عليه توكلا

وقال آخر:

وكن واثقاً بالله في كل حالـة فليس سواه مَن يضرُ وينفعُ

وقال آخر :

سَلِّـمِ الأمـرَ إلى رب البشرْ واتركِ الهمَّ ودَعْ عنك الفِكَرْ

وقال آخر :

واشْدُدْ يديك بحبل الله معتصماً فإنهُ الركْنُ إنْ خانتْكَ أركانُ

وقال آخر :

ولا تجزعْ إذا مـا ناب هـمٌّ فكم يتلو الأسـى فَرَجٌ قريبُ

واعلم ـ أخي القاريء ـ أن توكل المرء لن يتحقق إلا بأمرين هما:

○ حُسْن الظن بالله تعالى.

○ التفويض. أي تفويض الأمر إلى الله بعد الأخذ بالأسباب. قال تعالى على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر ٤٤].

واعلم كذلك أن التوكل شرط من شروط الإيمان. قال تعالى:

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (المائدة ٢٣]
- ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[يونس ٨٤]
- ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة ٥١] .

كذلك اقترن التوكل بالتقوى كقوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق ٢-٣].

كذلك اقترن التوكل بالصبر كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل ٤٢] . وقوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ

عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾[إبراهيم ١٢] .

ولهذا قالوا: "الصبر والتوكل من أقوى الأسلحة في مواجهة الشدائد والصعاب".

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتوكلين.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

[39] Say: (O Muhammad (peace be upon him)) "O My people! Work according to your way, I am working (according to my way). Then you will come to know,

[39] Dis: "O mon peuple, agissez selon votre méthode, moi j'agirai (selon la mienne). Bientôt vous saurez

[39] ""Sprich: ""O mein Volk, handelt eurem Standpunkt gemäß, (auch) ich werde (entsprechend) handeln; (bald aber) werdet ihr erfahren,

(٣٩) هذه الآية والآية التي تليها تذكر العذاب. وقد وقفنا عند العذاب في الآيتين ٢٤، ٥٠ راجعهما.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

[40] "To whom comes a disgracing torment, and on whom descends an everlasting torment."

[40] sur qui s'abattra un châtiment qui l'avilira; et sur qui se justifiera un châtiment durable".

[40] ""über wen eine Strafe kommt, die ihn schänden wird, und auf wen eine ewige Strafe niederfährt.""

(٤٠) راجع الآيتين ٢٤، ٥٠ من هذه السورة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

[41] Verily, We have sent down to you (O Muhammad (peace be upon him)) the Book (this Qur'ân) for mankind in truth. So whosoever accepts the guidance, it is only for his own self, and whosoever goes astray, he goes astray only for his (own) loss. And you (O Muhammad (peace be upon him)) are not a Wakîl (trustee or disposer of affairs, or guardian) over them.

[41] Nous t'avons fait descendre le Livre, pour les hommes, en toute vérité. Quiconque se guide (le fait) pour son propre bien; et quiconque s'égare, s'égare à son détriment. Tu n'es nullement responsable (de leurs propres affaires).

[41] "Wahrlich, Wir haben dir das Buch mit der Wahrheit für die Menschen herabgesandt. Wer dann rechtgeleitet ist, der ist es zu seinem eigenen Besten; und wer irregeht, der geht dann irre zu seinem (eigenen) Schaden. Und du bist nicht ihr Sachwalter.

(٤١) الوقفة هنا عند قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. وهذا مثل قوله تعالى:

- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام ١٠٤].
- ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت ٤٦]
- ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام ١٦٤]

لا يستطيع أحدٌ أنْ ينفع أحداً أبداً، ولا تملك نفسٌ لنفس شيئاً. والذي يهتدي إنما يهتدي لنفسه هو، وهو الرابح. وإذا ضلّ فإنما يضل عليها، وهو في ذلك الخاسر. والمسؤولية فردية فلا يتحمل شخصٌ وزر شخص آخر، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر ١٨] . أي إنْ تدعُ

نفسٌ مثقلة بالذنوب نفساً أخرى لتحملَ عنها بعض الذنوب التي تحملها، لمْ تحملْ تلك النفسُ المدعوّة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانتْ قريبة لها في النسب !! حتى لو كانتْ أخاً أو أباً أو أماً. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس ٣٧] . ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾[المعارج ١٠] .

لن يفتديَ أحدٌ بأحد. كلٌّ واحد محاسب على ما كسبتْ يداه هو. فالتبعة والمسؤولية فردية. وفي ذلك حكمة: هي أنّ المرء يشعر بالطمأنينة حين يعلم أنّه لا يُؤاخَذ بجريرة غيره ! وهذا من عدل الله تعالى.

في بعض البلاد مع الأسف، إذا كان الشخص متهماً، ولم يُعثر عليه، ألقي القبض على أحد أقرباءه كرهينة !.

ما ذنب هذه الرهينة ؟ هذا عين الظلم. لا يجوز أنْ يؤخذ شخصٌ بجريرة غيره ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾[يوسف ٧٩].

من هنا فإنّ الله تعالى لا يحاسب الناس يوم القيامة جملة واحدة. إنما يحاسبهم فرداً فرداً، كُلاً حسب عمله !!. ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ

عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم ٩٤، ٩٥] .

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل ١١١].

إنّ هذا المفهوم (أي أن المرء لا يُحاسب بذنب غيره) لا يعني أنْ يمتنع الفرد من نُصح الآخرين وإصلاحهم. بل عليه نصحهم ودعوتهم إلى الله، لأن هذا سيكون في صالحه يوم القيامة.

صحيح أنّ الأب لا يحملُ وزر أبناءه وزوجه يوم القيامة إنْ هم أساءوا، ولكنّه يحملُ وزر تقصيره في نُصْحِهم وتوجيههم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر في الدنيا. أما بعد ذلك، إنْ هم أساءوا فلا يُؤآخذ هذا الأب بسبب إساءتهم.

من هنا لو أساء كل الناس، وأصلحتَ أنت، فلا تُؤآخذ بإساءتهم. كذلك لو صلح كل الناس وأسأتَ أنت، فلن ينفعَك صلاحُ الناس أبداً ولذلك كان أسوأ شخص على وجه الأرض هو منْ باع آخرته بدنيا غيره !!

واطمئن ! لن يُظلمَ أحدٌ في ذلك اليوم: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء ٤٧] . ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر ١٧].

أسأل الله تعالى أن يرحمنا في ذلك اليوم العصيب.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢ ﴾

[42] It is Allâh Who takes away the souls at the time of their death, and those that die not during their sleep. He keeps those (souls) for which He has ordained death and sends the rest for a term appointed. Verily, in this are signs for a people who think deeply.

[42] Allah reçoit les âmes au moment de leur mort ainsi que celles qui ne meurent pas au cours de leur sommeil. Il retient celles à qui Il a décrété la mort, tandis qu'Il renvoie les autres jusqu'à un terme fixé. Il y a certainement là des preuves pour des gens qui réfléchissent.

[42] Allah nimmt die Seelen (der Menschen) zur Zeit ihres Sterbens (zu Sich) und (auch die Seelen) derer, die nicht gestorben sind, wenn sie schlafen. Dann hält Er die zurück, über die Er den Tod verhängt hat, und schickt die anderen (wieder) bis zu einer bestimmten Frist (ins Leben zurück). Hierin sind sicher Zeichen für Leute, die nachdenken.

(٤٢) ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾:

الله سبحانه هو الذي يقبض الأنفس عند الموت، أي التي جاء أجلها، وكذلك يقبض الأنفس التي لم تمت، يقبضها أثناء النوم ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. فأما الأنفس التي حان أجلها، فإن الله تعالى يمسكها ولا يعيدها إلى الأبدان، وأما الأنفس النائمة، فيوقظها ويعيد إليها الإحساس ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

نفهم من هذه الآية الكريمة أن الميت والنائم يشتركان في حالة واحدة وهي قبض روحيْهما، إلا أن الفرق بينهما هو أن الميت تقبض روحه فلا تعود إلى جسده، وأما الشخص النائم، تُعاد إليه روحه ويصحو ليمارس حياته كالمعتاد إلى أجل مسمى، أي إلى أن يحين أجله!!.. ولهذا كان الرسول ﷺ حين يستيقظ من نومه يدعو ويقول: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" وكان يقول إذا أخذ مضجعه: "باسمك اللهم أموت وأحيا".

من هنا نستنتج أن النوم هو أخو الموت !. والخروج من القبر يوم البعث شبيه بالاستيقاظ من النوم. قال رسول الله ﷺ: "والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتبعثُنّ كما تستيقظون".

ولنقف ـ أخي القاريء ـ قليلاً عند النوم.

مما لا شك فيه أن النوم آية عجيبة من آيات الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم ٢٣] ◌. والنوم كذلك نعمة عظيمة من نعم الله تعالى. ولا يعرف قيمة هذه النعمة إلا مَن أرّقه السهر وتقلب على فراش من جمر!!. فالنوم له وظيفة شافية للدماغ، وفيه سكن وراحة للجسم كله. يقول الله تعالى:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل ٨٦]
- ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ [النبأ ٩]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان ٤٧]

ومعنى سباتا: أي راحة للأبدان، والنوم سبات لأن فيه تمدداً، وفي التمدد معنى الراحة.

وعلى الرغم مما أنجزه العلماء حول النوم، إلا أن أسراره لا تزال غامضة إلى حد ما. والأمر الذي أكده العلم الحديث حول النوم هو أن في وسط الدماغ غدة يطلق عليها اسم (Pineal Gland) .

هذه الغدة تفرز مادة كيماوية باعثة على النوم تسمى (الميلاتونين) أو هرمون النوم. فعندما يخيم الظلام تنشط هذه الغدة فيشعر المرء

بالنعاس، وعندما يحين وقت الاستيقاظ من النوم، توقف الغدة إفراز الهرمون وتأخذ أجفان العينين بالإنفتاح. أي إن هذه الغدة هي التي تضبط وقت النوم ووقت الاستيقاظ بأمر الله ومشيئته !!. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ [الأنعام ٦٠] ومعنى يتوفاكم بالليل: أي ينيمكم فيه. ومعنى يبعثكم فيه: أي يبعثكم في النهار بأن يجعلكم تستيقظون من نومكم.

ولقد أثبتت التجارب التي أجراها العلماء حول النوم أن أعراض الحرمان من النوم هي:

- انخفاض القدرة على التركيز والتفكير.
- كثرة النسيان
- زوغان البصر
- تهيج عصبي وهلوسة.

وإذا زادت مدة الحرمان من النوم عن خمسة أيام، فإن ذلك يؤدي إلى حالات من الهوس العقلي ونوبات من الصرع !!.

وقد قام أطباء بعلاج كثير من الأمراض الباطنية والعصبية بواسطة النوم، حتى أنه أقيمت في بعض الدول عيادات خاصة للنوم لمعالجة حالات القلق والأرق.

من هنا ندرك حكمة النعاس الذي غشي الجنود المسلمين قبيل معركة بدر. قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال ١١] ومعنى أمنة: أي طمأنينة وأماناً.

فالحمد لله على نعمة النوم.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

[43] Have they taken (others) as intercessors besides Allâh? Say: "Even if they have power over nothing whatever and have no intelligence?"

[43] Ont-ils adopté, en dehors d'Allah, des intercesseurs? Dis: "Quoi! Même s'ils ne détiennent rien et sont dépourvus de raison?

[43] "Oder haben sie etwa statt Allah Fürsprecher genommen? Sprich: ""Selbst wenn sie keine Macht über irgend etwas besitzen und keinen Verstand?""

(٤٣) راجع الآية التالية.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾

[44] Say: "To Allâh belongs all intercession. His is the Sovereignty of the heavens and the earth. Then to Him you shall be brought back."

[44] Dis: "L'intercession toute entière appartient à Allah. A Lui la royauté des cieux et de la terre. Puis c'est vers Lui que vous serez ramenés".

[44] ""Sprich: ""Alle Fürsprache gehört Allah. Sein ist das Königreich der Himmel und der Erde. Und zu Ihm werdet ihr zurückgebracht.""

(٤٤) الوقفة في هذه الآية عند (الشفاعة) :

الشفاعة من الفعل (شَفَعَ): أي توسّل. نقول: شفع إلى فلان. أي توسّل إليه بوسيلة. وشفع في الأمر: أي كان شفيعاً فيه. واستشفع: أي طلب الناصر والشفيع. وشفعاء جمع شفيع. والشفيعُ يوم القيامة مَنْ يشفع لشخص ما عند الله كي يعفو عنه.

وهذه الشفاعة هي لله وحده، ولا تتحقق إلا بإذنه، فيقبلها أو يردّها ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه ١٠٩]

فإذا أراد اللهُ سبحانه وتعالى العفو عن عبد من عباده، فإنّه يُكرم رسولاً من رسله (محمداً ﷺ) ويجعله سبباً لهذا العفو، فيأذن له بالشفاعة لذاك العبد. من هنا فإنّ الشفاعة الممنوحة للنبي ﷺ هي تكريمٌ وعطاءٌ من الله تعالى. ففي يوم الحساب يتقدّم محمدٌ ﷺ سائلاً الله تعالى أنْ يقضي بين عباده ليستريحوا من عناء الموقف وشدّة أهواله. فيُعطى تلك الشفاعة.

واعلم أنّه لا يستحق شفاعة النبي أيّ شخص ! إنّما يستحقّها فقط مَنْ آمن بالله ربّاً ولم يُشرك به شيئاً. مثل هذا الشخص هو مَنْ يفوز بشفاعة النبي. قال ﷺ: " أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَنْ قال: لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه "(رواه البخاري].

أي لا يكفي أنْ يقول (لا إله إلا الله) بلسانه فقط، بل لا بدّ أنْ يترجم معناها على أرض الواقع.

وبفضل شفاعة محمد ﷺ، يخرجُ قومٌ من النار ويدخلون الجنّة، ويُدعوْن الجهنميين. قال رسول الله ﷺ: " يخرجُ قومٌ من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يُسمّوْن الجهنميين ".

ومن فضل الله تعالى وكرمه، أنّه سبحانه يمنحُ الشفاعة أيضاً للعلماء والشهداء. بل إنّ القرآن والصيام يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي ربّ، إني أظمأتُ نهاره فشفّعني فيه. ويقولُ القرآنُ: أي ربّ، إني أسهرتُ ليلهُ فشفّعني فيه، فيشفعان.

كذلك من دعا عقب الأذان، حلّتْ له شفاعة النبي محمّد، كما قال عليه الصلاة والسلام: " مَنْ قال حين يسمعُ النداء (أي ألأذان): "اللهم ربّ هذه الدعوة التامّة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّتْ له شفاعتي يوم القيامة " [رواه البخاري].

أسأل الله تعالى أنْ يكرمنا بشفاعة النبي يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[45] And when Allâh Alone is mentioned, the hearts of those who believe not in the Hereafter are filled with disgust (from the Oneness of Allâh) and when those (whom they obey or worship) besides Him (like all false deities other than Allâh, - it may be a Messenger, an angel, a pious man, a jinni, or any other creature even idols, graves of religious people, saints, priests, monks and others.) are mentioned, behold, they rejoice!

[45] Et quand Allah est mentionné seul (sans associés), les cœurs de ceux qui ne croient pas en l'au-delà se crispent et quand on mentionne ceux qui sont en dehors de Lui, voilà qu'ils se réjouissent.

[45] "Und wenn Allah als Einziger genannt wird, dann krampfen sich die Herzen derer, die nicht an das Jenseits glauben, in Widerwillen zusammen; werden aber die genannt, die statt Ihm (verehrt werden), siehe, dann beginnen sie zu frohlocken.

(٤٥) ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: من الفعل (شَمَزَ) أي انقبض ونفر. وتشمّز وجهُهُ أي تغيّر واربدّ. والاشمئزاز: هوالنفور من الشيء مع الكراهية !!.

وهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة تشمئزّ قلوبهم حين يُذكرُ اسمُ الله تعالى ! أو حين يأتي ذكرُ الآخرة على مسامعهم. فهم لا يُطيقون سماع كلمة التوحيد، بل لا يطيق الواحد منهم أنْ يُقال له: (اتق

الله)! ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[البقرة ٢٠٦] . وهذا مثل قوله تعالى :

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء ٤١].
- ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء ٤٦]
- ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾[نوح ٧].

وبالرغم من أننا لا نلحظ ُ هذا الاشمئزاز، لكونه يحدث داخل القلب، إلا أنه ينعكس أحياناً على قسمات وجوههم ولغة عيونهم بعلامات من الضيق والامتعاض !. كما قال ابن قيّم الجوزية :

" العيونُ مغاريفُ القلوب، بها يُعرَف ما في القلوب وإنْ لمْ يتكلم صاحبها ". وكما قال الشاعر :

إنّ العيون لتبدي في نواظرهـا ما في القلوب من البغضاء والإحَـن

ولولا أنّ الله تعالى العليمَ بما في النفوس، فضح أساريرهم وأطلعنا على هذه الحقيقة لما علمنا بها.

هذه القلوب مثلما كانت تشمئز من ذكر الله تعالى في الدنيا، سوف تكون يوم القيامة واجفة خائفة، بحيث ينعكس هذا الخوف على أبصار أصحابها بالذل والانكسار﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات ٨، ٩] . فالجزاء من جنس العمل، وكما تدين تُدان.

أسأل الله تعالى أنْ يحيي قلوبنا بذكره.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

[46] Say (O Muhammad (peace be upon him)) "O Allâh! Creator of the heavens and the earth! All-Knower of the Ghaib (Unseen) and the seen. You will judge between your slaves about that wherein they used to differ."

[46] Dis: "O Allah, Créateur des cieux et de la terre, Connaisseur de tout ce que le monde ignore comme de ce qu'il perçoit, c'est Toi qui jugeras entre Tes serviteurs ce sur quoi ils divergeaient".

[46] "Sprich: ""O Allah! Schöpfer der Himmel und der Erde! Kenner des Verborgenen und des Offenbaren! Du allein wirst zwischen Deinen Dienern richten über das, worüber sie uneins waren.""

(٤٦) الوقفة في هذه الآية عند ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

في القرآن الكريم عدد كبير من الآيات التي تدل على أن الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة :

- ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام ٥٩]
- ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾[يونس ٢٠]
- ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾[السجدة ٦]

- ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ ٣]
- ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن ٢٦]
- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة ٧٨]

وكلمة (الغيب) في اللغة: ما غاب عن الإنسان. نقول غابت الشمس، وغاب الرجل. والغابة سُميتْ بذلك لأنها يُغاب فيها !. والغيبة سميت بذلك لأنها تُقال في غيبة الإنسان. وقالوا: الغيْبُ ما غاب عن الحواس.

وعالـَم الموجودات نوعان: عالم الغيب، وعالم الشهادة (أي المحسوسات). وكل ما أدركه الحِسّ مباشرة، أو بواسطة الوسائل العلمية فهو مِنْ عالم الشهادة. وكل ما لم يقع تحت الحواس، فهو من عالم الغيب. لذلك تحتاج الأمور الغيبية إلى الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة ٣] . يؤمنون بالغيب: أي يؤمنون بما غاب عنهم من الأمور، كالجنة والنار والحشر والحساب.

هذه الغيبيات عندما يراها الناس بأعيُنهم يوم القيامة، يصبح الإيمان بها لا قيمة له، لأن مكان الإيمان كان في الدنيا، يوم كانت هذه الأشياء غيباً. قال تعالى: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾ [السجدة ٢٩] ويوم الفتح هو يوم القيامة.

من هنا سوف يفاجأ الكافرون برؤية النار يوم القيامة، وحينئذ يعلنون إيمانهم، بل يقينهم بأن النار حق: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة ١٢] . لكن لا قيمة لإيمانهم ويقينهم في تلك اللحظة، لأن موضع الإيمان واليقين كان في الدنيا، والآن لا وجود لهذه الدنيا. ولذلك يطلبون الرجوع إلى الدنيا كي يؤمنوا!! ولكن هيهات فقد فات الأوان وانقضت الدنيا.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

[47] And those who did wrong (the polytheists and disbelievers in the Oneness of Allâh), if they had all that is in earth and therewith as much again, they verily, would offer it to ransom;and there will become apparent to them from Allâh what they had not been reckoning.

[47] Si les injustes possédaient tout ce qui se trouve sur la terre, - et autant encore -, ils l'offriraient comme rançon pour échapper au pire châtiment le Jour de la Résurrection; et leur apparaîtra, de la part d'Allah, ce qu'ils n'avaient jamais imaginé;

[47] "Besäßen diejenigen, die gefrevelt haben, auch alles, was auf Erden ist, und noch einmal soviel dazu, würden sie sich gewiß damit von der schlimmen Strafe am Tage der Auferstehung loskaufen wollen; aber es wird ihnen von Allah das erscheinen, mit dem sie nimmermehr gerechnet haben.

(٤٧) هذه مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [آل عمران ٩١]

لا ينقذه ولا ينجيه من عذاب الله شيء، حتى لو أنفق أعز ما كان يملك ! وحتى لو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، أي بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها !.

سبحان الله ! مستعدٌ أنْ يقدّم ملء الأرض ذهباً من أجل أنْ ينجو من عذاب الله يوم القيامة !؟. نعم، ملء الأرض ذهباً ! وهو الذي كان في الدنيا يبخل بالقرش والدينار في سبيل الله ! وكان يَحرم الفقراء والمحتاجين، وكان يمنع الزكاة !. كان يلعب بالملايين، وإذا طُلب منه أنْ يدفع شيئاً في وجوه البر، أبى واستكبر. أمّا اليوم فهو يتمنّى لو يدفع وزن الأرض ذهباً من أجل النجاة منْ هول العذاب!! بل يتمنّى لو يقدّم أبناءه وزوجه وعشيرته وأعزّ الناس إليه، وكل مَنْ على الأرض فداءً، مقابل النجاة والخلاص :

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج ١١- ١٤]

قال النبي ﷺ: "يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: أي رب نعم، فيقول الله: كذبتَ، قد أردتُ منك أهون من ذلك فلم تفعل، فيرد إلى النار."

والأعجب من ذلك، أنّ هذا الذهب وتلك الأموال التي يتمنّوْن تقديمها يوم القيامة، لو استطاعوا، فداء كي ينجوا من العذاب، والتي كانوا يكنزونها ويبخلون بها في الدنيا، سوف تكون وسيلة تعذيب لهم في جهنّم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة ٣٤، ٣٥].

روى البخاريُّ ومسلم، عن النبي ﷺ أنه قال:

"ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها (أي زكاتها) إلا صُفّحتْ له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وظهره. كلما بردَتْ أعيدتْ له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار".

فيا أيها الأغنياء، من الناعمين في ردهات الفلل والقصور، والنائمين على فرش النعيم، ادفعوا زكاة أموالكم ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ [إبراهيم ٣١] .

جاء في أحد التقارير أنّ مقدار الثروة الخاصة التي يملكها بعض الأفراد من الأثرياء المسلمين بلغتْ ما قيمته (تريليون دولار)!.

(التريليون = ألف مليار، والمليار = ألف مليون)!.

أحد الأغنياء من المسلمين يستورد الوجبات الغذائية اليومية الجاهزة والطازجة بقيمة نصف مليون دولار، تُحمل له على متن الطائرة من أفخم المطاعم الأوروبية !. وآلاف الأسر المسلمة لا تجد قوت يومها.

وآخر تعوّد على استيراد الزهور من أوروبا، إذ يقف مندوبه أمام المطار لاستلام طرد الزهور اليومي أو الاسبوعي. والفقراء لا يكادون يجدون ثمن الدواء !.

وثالث ينفق في ليلة حمراء واحدة نصف مليون دولار !.

إنه الترف. وليس للترف إلا العذاب في الدنيا قبل الآخرة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [المؤمنون ٦٤، ٦٥]

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

[48] And the evils of that which they earned will become apparent to them, and that which they used to mock at will encircle them.

[48] et leur apparaîtront les méfaits qu'ils ont commis, et ce dont ils se raillaient les enveloppera.

[48] Und das Böse dessen, was sie gewirkt haben, wird ihnen deutlich werden, und es wird sie das umschließen, worüber sie zu spotten pflegten.

(٤٨) الوقفة هنا عند لفظة ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

السخرية والاستهزاء بالدين وبالأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين، أمر قديم منذ زمن نوح عليه السلام وإلى يومنا هذا.

والآيات التي ذكر فيها الاستهزاء كثيرة منها قوله تعالى :

- ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾[هود ٣٨]
- ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾[الحجر ١١]
- ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾[الشعراء ٦]

ما من رسول إلا وتعرض للأذى والسخرية من قومه. حتى سيد البشر محمد رسول الله ﷺ تعرّض إلى أبشع أنواع الأذى، فقد شتمه قومه وآذوْه وسخروا منه وقالوا عنه مجنون وساحر وكذاب !!.

كانت أمّ جميل امرأة أبي لهب تحمل الشوك فتلقيه في طريقه.

وكان أميّة بن خلف يهمزه ويلمزه وهو(الهمزة اللمزة).

وجاء عقبة بن أبي مُعيْط بكرش جزور فألقاه فوقه وهو ساجد.

وسخروا منه فقالوا له: سَلْ ربك ينزل ملَكاً ينصرك.

وقال آخر: أسقط علينا من السماء كسَفًا كما زعمت.

وقال آخر: يا محمد لن نؤمن لك حتى تتخذ سُلّماً تصعد به إلى السماء فتأتي بالله والملائكة لينصروك علينا.

ولّما نزلت عليه آية: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر ٣٠] قال أبو جهل ضاحكاً ساخراً: يا معشر قريش، زبانية جهنم التي يخوفكم بها محمد تسعة عشر، فهل يعجز كل مئة منكم عن واحد منهم ؟!. فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر ٣١] .

وقال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تعرفون ما هي شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ هي عجوة يثرب بالزبدة !! فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان ٤٣ - ٤٦] .

حتى في عصرنا الحاضر لم تنقطع تلك السخرية من دين محمد ومن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام من قبل أعداء الدين. ما من لفظ في المعجم إلا واستعملوه في وصف المؤمنين، بقصد الإساءة والسخرية: رجعيون، أصوليون، إرهابيون، متطرفون، متزمتون، مختلون عقلياً، متحجرون، ظلاميون. .. الخ.

وتجد منهم من يستهزيء بالصلاة والمصلين. فهذا سفيه يقول: " أيها المصلون إذا ذهبتم للجنة فخذوها معكم !! ". مع الأسف يصدر ذلك عن أشخاص مسلمين ومن كُتّاب وصحفيين ولهم أسماء مثل أحمد ومحمد وعمر !!. ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة ٥٨] .

كنتُ أظن أن الاستهزاء بالصلاة كان مقصوراً على الكفار والمنافقين زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم أتصوّر أن يخرج علينا في عصرنا، ومن بلاد مسلمة، مَن يتهكم على الصلاة والمصلين! بل تجد كاتباً يسخر من الله عز وجل (تعالى الله علوا كبيرا) . وتجد رسّاماً يرسم كاريكاتيراً يسخر فيه من رسول الله ﷺ ومن زوجاته التسعة، فيرسم ديكا وتسع دجاجات !!. ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة ٦٥] . وتجد آخرين يسخرون من حجاب الفتاة المسلمة ويصفونه بأنه (أكفان الموتى) !! وتجد آخرين يسخرون من اللحية و أصحاب اللحى ويطلقون عليها لفظة (مكانس) !!. وتجد آخرين يهزؤن باللغة العربية لغة القرآن ويصفونها بالجمود والتحجر!!.

هؤلاء وأمثالهم ما أخال استهزائهم إلا كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنَها فلمْ يضرها وأوهى قرنَهُ الوعلُ

إنّ إساءة الأدب مع الله تعالى، والسخرية من دينه وأولياءه لا تجوز، ولأصحابها عذاب في الدنيا وفي الآخرة: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة ١٥]. ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الروم ١٠].

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

[49] When harm touches man, he calls to Us (for help); then when We have (rescued him from that harm and) changed it into a favor from Us, he says: "Only because of knowledge (that I possess) I obtained it." Nay, it is only a trial, but most of them know not!

[49] Quand un malheur touche l'homme, il Nous invoque. Quand ensuite Nous lui accordons une faveur de Notre part, il dit: "Je ne la dois qu'à (ma) science". C'est une épreuve, plutôt; mais la plupart d'entre eux ne savent pas.

[49] "Wenn nun den Menschen ein Schaden trifft, so ruft er Uns an. Dann aber, wenn Wir ihm Unsere Gnade zuteil werden lassen, sagt er: ""Dies wurde mir nur auf Grund (meines) Wissens gegeben."" Nein, es ist bloß eine Prüfung; jedoch die meisten von ihnen wissen es nicht.

(٤٩) راجع الآية ٨ من هذه السورة.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[50] Verily, those before them said it, yet (all) that they had earned availed them not.

[50] Ainsi parlaient ceux qui vécurent avant eux. Mais ce qu'ils ont acquis ne leur a servi à rien;

[50] "Die vor ihnen waren, sprachen auch schon so, doch all das, was sie erworben hatten, nutzte ihnen nichts.

(٥٠) حقا ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. ما أغنى عنهم هذا المال وهذا المنصب وهذا الجاه. ما أغنت عنهم قصورهم ومصانعهم، ولا متعهم وملذاتهم، ولا قوتهم وعبقريتهم:

- ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨٤﴾ [الحجر ٨٢-٨٤]
- ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء ٢٠٥-٢٠٧]
- ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨٢﴾ [غافر ٨٢]
- ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ [الأحقاف ٢٦]

- ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾[الدخان ٢٥-٢٩] .

خلّفوا وراءهم كل ما جمعوه مِن حطام الدنيا !.. تركوا قصوراً مُشْمَخرّة، وبيوتاً فارهة مؤثثة ً بكل وسائل الراحة، وحدائق غنّاء! ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متفكهين !.. ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ . ما أعجب هذه الآية !! هذه كناية عن القول: ما حزن أحدٌ لفقدهم، ولا أحدَ أخذ بثأرهم أو انتصر لهم !!

جَـرَتِ الريـاحُ علـى ديـارهِمُ ... فكـأنّهمْ كـانوا علـى ميعـادِ

ويقول أبو البقاء الرندي في قصيدة له يتأمل فيها تغيرات الزمان وكيف تؤول الدول :

لكل شيءٍ إذا ما تـمَّ نُقصـانُ ... فلا يُغَـرُّ بطِيبِ العيْـشِ إنسـانُ
هـي الأمورُ كما شاهدْتُها دولٌ ... مَـنْ سَـرَّهُ زمـنٌ سـاءتهُ أزمـانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي علـى أحدٍ ... ولا يـدومُ علـى حـالٍ لهـا شـانُ
أينَ الملوكُ ذوي التيجانِ مِنْ يَمَنٍ ... وأيـن منـهم أكاليـلٌ وتيجـانُ
وأين ما شـادَهُ شـدّادُ في إرَمٍ ... وأين ما ساسَهُ في الفُرْس ساسـانُ

وأين ما حازَهُ قارونُ مِنْ ذهـب   وأيــن عــادٌ وشــدادٌ وقحطــانُ
أتى علـى الكل أمْرٌ لا مَرَدّ له   حتى قَضَوْا فكأنّ القومَ مـا كـانوا

إن السببَ الحقيقي وراء نزول العقاب بالأمم والشعوب هو التمرّد على أوامر الله عز وجل ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ [الطلاق ٨].

والعذاب الذي يحل بالقرى ليس من قبيل الصدفة كما يظن البعض، بل هو عذاب مُدبَّر ومقصود من الله تعالى بسبب أعمالها السيئة. وإلا كيف تفسر مرور الإعصار المدمر فوق القرى والمدن فيدمر بعضاً منها ويترك الآخر ؟!. إن هذا الإعصار أو الزلزال أو الفيضان جندي من جنود الله، مدبَّر وموجَّه لفئة معينة دون أخرى بقصد العقوبة !!.

في أحد الأعوام ضرب إعصارٌ مدمّر شمال هولندا، حطّم كل شيء. رياح عاتية هدمت البيوت وقطعت خطوط الطاقة وحملت السيارات وحطمتها واقتلعت الأشجارَ من جذورها !!. ما تفسير ذلك؟ ليس من تفسير لذلك عندي إلا قول الله تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف ٢٤] .

وفي الزلزال البحري الذي ضرب مناطق جنوب شرقي آسيا يوم الأحد ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٤ يقول شاهد عيان: " كان الجو بديعاً. .. وفجأة رأيت الكل يصيح ويهرب !! إتجه بصري لأعلى، لم أشاهد السماء، بل شاهدتُ ماءً !! كانت موجة ً ولكنها لم تكن عادية. . كأنها كانت البحر كله!!". ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف ٩٥] .

وجاء في التقرير: " جنّات سياحية خلابة ذات الفنادق الفخمة، والشواطيء البلورية، يقصدها الملايين، بحثاً عن الشمس والرمال والمياه الدافئة، حطمتها الأمواج !! ". ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)﴾ [الأعراف ٩٨،٩٧] .

ليس من تعليل لكل ذلك إلا أن هناك قصداً وتدبيراً من لدن حكيم عليم. فكل شيء في الكون يتحرك ويسكن بأمر الله تعالى، وأن الكوارث الطبيعية لا تحدث هكذا جُزافا أو بصورة عفوية، وإنما تحدث بإرادة الله تعالى ومشيئته، ويُقصَدُ منها التدمير وإنزال العقوبة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)﴾ [الكهف ٥٩] . وقوله تعالى عن وقوع

الزلازل: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل ٢٦] .

والعجيب أن علماء الزلازل يقولون ما نصّه: " لو أن زلزالاً حدث في مدينة ما، فإنه يصيب المدينة بأكملها فقط دون المناطق المحيطة غير المأهولة ".

في هذا اعتراف ودليلٌ على أن الله تعالى يَقصِد المباني المأهولة بالذات حين يوقع العقوبة !!. أي أن هذه العقوبة موجهة للإنسان لغاية معلومة. ولذلك تجد أن الزلازل تتفاوت في شدتها:

- منها ما يكون خفيفاً. من أجل التحذير والتنبيه.
- ومنها ما يكون مخرِّباً.
- ومنها ما يكون مدمِّراً.
- ومنها ما يكون كارثياً ساحقاً!!.

وفي جميع الحالات فإن الإنسان هو المستَهدَف.

من الملاحظ أن الحيوانات مزوّدة بالقدرة على استشعار خطر الزلزال قبل وقوعه، ولذا فهي تهرب منه، والخسائر في عالم الحيوان قليلة جداً مقارنة بالخسائر البشرية.

عقب كارثة الزلزال البحري (تسونامي) الذي ضرب مناطق في آسيا قرأتُ خبراً مثيراً للسخرية ! يقول الخبر: " تحاول دول المحيط الهاديء تنسيق مراقبتها لحركة المحيط " !!.

يا حسرة على تلك الدول ! تراقب ماذا ؟! أما علموا أن العذاب يقع بغتة ؟. أما قرأوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام ٤٧] . وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء ١٢-١٥] .

الخلاصة: كل شيء في الكون يتحرك ويسكن بأمر الله تعالى. فالرياح تهُبُّ بأمر من الله تعالى، لذلك لا تجد في القرآن (هبّتْ الرياح) أو (أُرسلتْ الرياح) !. وإنما دائماً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم ٤٨] . ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾[الأعراف ٥٧] .

حتى البرَد موجّه بإرادة الله، ومقصود به أناس دون سواهم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور٤٣] . كذلك الصواعق مرسلة بإرادةٍ إلهية ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد ١٣] .

إذن لا صحة لمن يقول بأن تلك الظواهر تحدث وفق نظام ثابت أعمى، وتتحرك هنا وهناك حركة آلية جبرية !!. الصحيح هو أن هذه الظواهر تحدث ضمن مشيئة الله وإرادته ومن تدبيره، يرسلها في صورة ما في الوقت الذي يريد، وعلى مَنْ يريد ضمن سنن وقوانين هو خالقها وموجّهها.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾

[51] So, the evil results of that which they earned overtook them. And those who did wrong of these (people to whom you (Muhammad (peace be upon him)) have been sent) will also be overtaken by the evil results (torment) for that which they earned; and they will never be able to escape.

[51] Ils furent donc atteints par les mauvaises conséquences de leurs acquis. Ceux de ces gens (les Mecquois) qui auront commis l'injustice seront atteints par les mauvaises conséquences de leurs acquis et ils ne pourront s'opposer à la puissance (d'Allah).

[51] Und das Böse dessen, was sie gewirkt hatten, erfaßte sie. Und diejenigen unter ihnen, die Unrecht getan haben, wird (auch) das Böse dessen, was sie gewirkt haben, erfassen; und sie können sich diesem nicht entziehen.

(٥١) وهذا مثل قوله تعالى :

- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة ٤٩]
- ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور ٦٣] .

وهذا العذاب نتيجة طبيعية لما اقترفته أيديهم من الذنوب والمعاصي وعقوبة لهم على ما كسبوا من السيئات، وذلك في كل زمان ومكان.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ثمرة هذا الكسب السيّء:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [الأنعام ٧٠]
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۢ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [يونس ٢٧]

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى ٣٢-٣٤]
- ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر ٤٥] .

ولقد وقفنا طويلاً عند هذا العذاب، راجع الآية ٥٠ من هذه السورة.

أسأل الله تعالى أن يجنبنا سوء العذاب.



﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

[52] Do they not know that Allâh enlarges the provision for whom He wills, and straitens it (for whom He wills). Verily, in this are signs for the folk who believe!

[52] Ne savent-ils pas qu'Allah attribue Ses dons avec largesse ou les restreint à qui Il veut? Il y a en cela des preuves pour des gens qui croient.

[52] Wissen sie nicht, daß Allah dem die Mittel zum Unterhalt erweitert und beschränkt, dem Er will? Wahrlich, hierin liegen Zeichen für Leute, die glauben.

(٥٢) الوقفة هنا عند الرزق :

من الهموم التي تسيطر على كثير من الناس مسألة الرزق، علماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذي قدّر الأرزاق، وقسّم المعاشَ بين الناس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف ٣٢] .

والآيات التي تتحدث عن مسألة الرزق في القرآن الكريم كثيرة منها:

- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[سبأ ٣٦]
- ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾[النحل ٧١)

- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[العنكبوت ١٧]
- ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾(الشورى ٢٧]

واعلم ـ أخي القاريء ـ أن تقسيم الأرزاق بين الناس لا علاقة له بالحسب أو النسب، ولا بالعقل والذكاء، ولا بالمكانة والمنصب. وإنما يوزع الله عز وجل رزقه على عباده لحكمة هو يعلمها. فقد يعطي المجنون ويَحرمُ العاقل، وقد يعطي الوضيع ويمنع الحسيب !. كما قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاقُ تَجري على الحِجا هَلكْنَ إذاً مِـنْ جهلِهــنَّ البـــهائمُ

ومعنى الحجا: الفطنة والذكاء.

وكما قال الشافعي رضي الله عنه :

كم عاجز في الناس يُؤْتى رزقُـهُ رغَـداً، ويُحـــرَمُ كـيِّسٌ ويخيــَبُ

وقال آخر :

الرزقُ كالغيْثِ بين الناسِ مُنقسِمٌ هـذا غريـقٌ وهـذا يَشـتهي المطـرا

وقال آخر :

يا طالبَ الرزقِ في الآفاقِ مجتهداً أقصرْ عنـاكَ فـإنّ الـرزقَ مقسـومُ

وقال آخر :

قد يُرزَقُ المرءُ لا مِنْ فضلِ حيلتِـهِ ويُصرَفُ الرزقُ عن ذي الحيلةِ الـداهي

وقال آخر :

لا ترهبنَّ الفقرَ ما عِشتَ في غـدٍ لكـــل غـــدٍ رزقٌ مـــِنَ اللهِ واردُ

وقال آخر :

لا تعجلنَّ فليس الرزقُ بالعجـل الرزقُ في اللوحِ مكتوبٌ مع الأجـل

واعلم كذلك أن المال المسروق والمخالف لشرع الله تعالى ليس برزق، لأن الرزقَ هو ما يقسمه الله بين الناس بإرادته ورضاه. أما المال المكتسَب بطرق غير شرعية فهو مال قد أ ُخِذَ بدون استئذان من الله تعالى وبذلك يُعدّ حراماً.

معنى ذلك أن من يلجأ إلى أساليب ملتوية ومحرّمة للحصول على المال، يكون قد خالف الأسباب الشرعية التي يُستجلبُ بها الرزق.

وقد بيّن لنا هذا الدينُ العظيم مفاتيحَ الرزق المبارك، أذكر منها :

- **الاستغفار والتوبة** لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12)﴾[نوح ١٠، ١١]
- **الإنفاق في سبيل الله**، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)﴾[سبأ ٣٩]
- **وصلة الأرحام**، لقوله ﷺ: " مَنْ أحبَّ أنْ يُبسطَ له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصلْ رحمَه" (البخاري)

ومعنى ينسأ له في أثره: أي يُؤخّر في أجله وعمره.

وهذه المفاتيح الثلاثة يجب أن تكون مقرونة بالسعي والعمل.

أدعو الله أن يبارك لنا في أرزاقنا.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

[53] Say: "O 'Ibâdî (My slaves) who have transgressed against themselves (by committing evil deeds and sins)! Despair not of the Mercy of Allâh: verily, Allâh forgives all sins. Truly He is Oft-Forgiving, Most Merciful.

[53] Dis: "O Mes serviteurs qui avez commis des excès à votre propre détriment, ne désespérez pas de la miséricorde d'Allah. Car Allah pardonne tous les péchés. Oui, c'est Lui le Pardonneur, le Très Miséricordieux.

[53] "Sprich: ""O meine Diener, die ihr euch gegen eure eigenen Seelen vergangen habt, verzweifelt nicht an Allahs Barmherzigkeit; denn Allah vergibt alle Sünden; Er ist der Allverzeihende, der Barmherzige.

(٥٣) يقول العلماء: هذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة بالمغفرة من الذنوب والمعاصي للمسرفين على أنفسهم إذا ما تابوا وعادوا إلى الله.

كلنا نقع في الذنوب والمعاصي، مع اختلاف وتباين. ومن فضل الله تعالى أن جعل لهذه المعاصي مكفّرات كالصلوات والأعمال الصالحة. يقول تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ ﴾[هود ١١٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وأما ظُلمُ العبدِ نفسَه بصغائر الذنوب والمعاصي، من غير إصرار، فذلك تكفره آيتا النساء والنجم: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء ٣١] . وفي سورة النجم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم ٣٢].

واللمم: ما دون الكبائر من الذنوب. وقيل: مُقاربة المعصية مِنْ غير مُواقعَة. وقالوا: النظرة من غير تعمّد، فهي لمم، وهي مغفورة، فإنْ أعاد النظر فليس بلمم. فالصغيرة التي لا يُصرّ عليها صاحبها هي من هذا

اللمم الذي يغفره الله تعالى بالصلوات والأعمال الصالحة، بشرط اجتناب الفواحش والذنوب الكبار، كما جاء في الآيتين الكريمتين.

ولكن انتبه ! قد يَقترنُ بالصغيرة مِن قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف، ما يُلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى مراتب الكبائر!! وهذا مرجعه إلى ما يقوم في القلب مِن خوف أو عدم خوف من الله تعالى. والعبد يعرف ذلك من نفسه: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة ١٤] . ومَنْ كان بالله أعرَف، كان منه أخْوَف ! ولذلك قال بعض السلف الصالح: " لا تنظر إلى صِغر المعصية، ولكن انظرْ إلى عظمة مَنْ عصيْت !! ".

ولذلك قد تشتد غفلة صاحب المعصية، حتى إنّه ليفرحُ إذا ظفر بشهوة أو فعل معصية ! مما يدل على شدة الرغبة فيها، والجهل بعظمة مَنْ عصاه، والجهل بخطر المعصية وبسوء عاقبتها. فالبعض يظن أنه إذا فعل المعصية ولم يجد أثرها على الفور، فإنه لن يجدَه بعد ذلك ! كما قال الشاعر:

إذا لمْ يُغَبِّرْ حائطٌ في وقوعه ... فليس له بعد الوقوع غبارُ

ولذلك نسي الكثير من الناس أنّ شؤم المعصية يُدرك العبد ولو بعد أربعين سنة! بل قد لا يَظهرُ شؤمُها إلا في آخر لحظات العمر

على فراش الموت، حيث تسوء الخاتمة والعياذ بالله. لذا بادرْ بالتوبة قبل أنْ تُبادَر!.

هذا وقد أُمرْنا أن نلتمس التوبة على عجل، وأن لا نؤخرها إلى الموت، حيث لا تنفع !!. وما دام الموت متوقعاً في كل لحظة، فالتوبة واجبة على الفور: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء ١٧] .

واعلمْ أنّك عبدٌ لله تعالى، ولستَ حراً بأنْ تفعل ما يحلو لك، فاتباعُك لهواك خروج عن مقتضى العبودية لله تعالى.

هذه الحقيقة أدركها بشر بن الحارث وكانت سبباً في هدايته، وفيما يلي قصة هدايته أسردها لأخذ العبرة :

" كان بشر بن الحارث شابا صاحب لهو ولعب ومعصية. كان ذات يوم مع رفقاء له يشاركونه المجون في داره، وصوت طربهم يخرج من نوافذ الدار. فمرّ على الدار رجلٌ من الصالحين. قرع البابَ، فخرجتْ إليه جارية.

فسألها: أصاحبُ هذه الدار حرٌّ أم عبد ؟.

قالتْ: بل حر !.

قال: صدقتِ، لو كان عبداً لاستعمل الأدب مع سيده وترك اللهو!

فسمع بشر بن الحارث صوت الرجل الصالح، فاتّجَهَ نحو الباب يسأل: مَن المتحدث ؟ فإذا الرجل قد ولّى. فسأل الجارية، فأخبرته بما جرى، فألقى اللهُ في قلب بشر خوفاً من تلك الكلمة ! فخرج يتبع الرجل الصالح، حتى إذا لحق به قال له: أعِدْ عليّ الكلام. فأعاده، فقال بشر: كلا والله بل أنا عبد. (يقصد أنه عبدٌ لله) !!

ثم هام على وجهه حافياً نادماً على ما كان منه، حتى عُرفَ فيما بعد ببشر الحافي.

إنَّ صوت الحق يهتف في كل مكان ليهتدي الحائرون، ويجدد الخطاءون التوبة ! يقول رسول الله ﷺ: " إذا مضى شطر الليل أو ثلثاهُ، يَنزلُ الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيُعطى ؟ هل من داع فيستجاب له ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ حتى يبزغ الفجر ".

وفي حديث قدسي عن الله عز وجل: " يا ابن آدم إنك ما دعوْتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن

آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة. "

هذا الحديث وأمثاله جرعة تحيي الأمل في النفوس القانطة، وتحرك العزائم الجامدة لتبدأ السير إلى الله تعالى. ورحم الله القائل :

أسيءُ فيَجزي بالإساءة إفضالا وأعصي فيوليني بـرًّا وإمهالا
وكم مرة زغْتُ عن نهج طاعةٍ ولا حالَ عن ستر القبيح ولا زالا

أسأل الله تعالى أن يرزقنا قبل الموت توبة، وعند الموت مغفرة.

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ ﴾

[54] "And turn in repentance and in obedience with true Faith (Islâmic Monotheism) to your Lord and submit to Him (in Islâm) before the torment comes upon you, (and) then you will not be helped.

[54] Et revenez repentant à votre Seigneur, et soumettez-vous à Lui, avant que ne vous vienne le châtiment et vous ne recevez alors aucun secours.

[54] "Und kehrt euch zu eurem Herrn, und ergebt euch Ihm, bevor die Strafe über euch kommt; (denn) dann werdet ihr keine Hilfe finden.

(٥٤) هذه الآية والآية التي تليها تتحدثان عن الإنابة والرجوع إلى الله تعالى، وقد وقفنا عند ذلك في الآية السابقة [٥٣] فراجعها.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾

[55] "And follow the best of that which is sent down to you from your Lord (i.e. this Qur'ân, do what it orders you to do and keep away from what it forbids), before the torment comes on you suddenly while you perceive not!"

[55] Et suivez la meilleure révélation qui vous est descendue de la part de votre Seigneur, avant que le châtiment ne vous vienne soudain, sans que vous ne (le) pressentiez;

[55] Und folgt dem Besten, das zu euch von eurem Herrn herabgesandt wurde, bevor die Strafe unversehens über euch kommt, während ihr es nicht merkt,

(٥٥) راجع الآية (٥٣) .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

[56] Lest a person should say: "Alas, my grief that I was undutiful to Allâh (i.e. I have not done what Allâh has ordered me to do), and I was indeed among those who mocked (at the truth! i.e. Lâ ilâha illallâh (none has the right to be worshipped but Allâh), the Qur'ân, and Muhammad (peace be upon him) and at the faithful believers)

[56] avant qu'une âme ne dise: "Malheur à moi pour mes manquements envers Allah. Car j'ai été certes, parmi les railleurs";

[56] damit nicht etwa einer spreche: »O wehe mir um dessentwillen, was ich gegenüber Allah versäumte! Denn wahrlich, ich gehörte zu den Spöttern«;

(٥٦) تشير هذه الآية والآيتان التاليتان إلى أشد المشاعر وقعاً على النفس يوم القيامة، ألا وهو الشعور بالندم !.

كلٌّ منا لا بد وأنْ أحسّ بوخز الندم يوما ما على أمر لم يفعله، أو على أمر فعله !. والندم في الدنيا يهون، إلا أن أشد الندم على الإطلاق هو ما كان يوم القيامة. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الندم يوم القيامة بألفاظ مثل: يا ليتني، يا حسرتى، يا ويلتى.

يقول تعالى :

- ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الفرقان ٢٧، ٢٨]
- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحاقة ٢٥-٢٧]
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنعام ٢٧]
- ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾[الأحزاب ٦٦]

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨ ﴾ [الزخرف ٣٨]
- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام ٣١]
- ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤ ﴾[يونس ٥٤]

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ ﴾

[57] Or (lest) he should say: "If only Allâh had guided me, I should indeed have been among the Muttaqûn (the pious and righteous persons - see V.2:2)."

[57] ou qu'elle ne dise: "Si Allah m'avait guidée, j'aurais été certes, parmi les pieux";

[57] oder damit nicht etwa einer spreche: »Hätte mich Allah geleitet, so wäre auch ich unter den Gottesfürchtigen gewesen«;

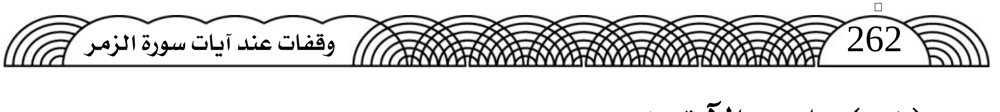
(٥٧) راجع الآية ٥٦

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

[58] Or (lest) he should say when he sees the torment: "If only I had another chance (to return to the world), then I should indeed be among the Muhsinûn (good-doers - see V.2:112)."

[58] ou bien qu'elle ne dise en voyant le châtiment: "Ah! S'il y avait pour moi un retour! Je serais alors parmi les bienfaisants".

[58] "oder damit nicht einer spreche, wenn er die Strafe sieht: »Gäbe es für mich doch eine Wiederkehr, dann wollte ich unter denen sein, die Gutes tun.«""



(٥٨) راجع الآية ٥٦

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

[59] Yes! Verily, there came to you My Ayât (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.) and you denied them, and were proud and were among the disbelievers.

[59] "Oh que si! Mes versets te sont venus et tu les as traités de mensonge, tu t'es enflé d'orgueil et tu étais parmi les mécréants".

[59] """"Nein; es kamen zu dir Meine Zeichen, aber du verwarfst sie, und du warst hochmütig und warst einer der Ungläubigen.""

(٥٩) الوقفة هنا عند كلمة ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ :

إنّ الكِبْر والغطرسة والغرور والإستعلاء والفرح والمرح بغير حق، ممقوتةٌ عند الله تعالى. وفي القرآن آيات كثيرة حول النهي عن هذه الصفات الذميمة :

- ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء ٣٧]
- ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان ١٨]
- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص ٧٦]
- ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص ٨٣]
- ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف ١٤٦]

وقال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر"[رواه مسلم] وقال: "ألا أخبركم بأهل النار؟: كلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مستكبر " [متفق عليه].

قال الأحنف: "عجبتُ لِمَنْ جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبّر"!؟.

وقال مالك بن دينار رحمه الله لأحد أبناء المهلّب وهو يتبختر في مشيه: " يا بنيّ لو تركتَ هذه الخيلاء لكان أجمل لك.

فقال الفتى: أو ما تعرفُني؟.

قال له مالك :" أعرفك معرفة جيدة، أوّلك نطفة" مَذِرة وآخرُك جيفة قذرة، وأنتَ بين ذلك تحملُ العذرة !!.

فأرخى الفتى رأسَه، وكفّ عمّا كان عليه.

لِمَ الكبْرُ والخيلاء ؟ ولِمَ هذا البطر والفرحُ بغير حق ؟

حقّاً: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾.

لو تذكّر أهلُ الغرب أنّ ما لديهم من علم وقوة، إنما هو من تمكين الله تعالى لخففوا من غرورهم وتعاليهم وانتفاشهم !!.

في أواخر القرن الماضي صنع الإنجليز باخرة عظيمة كانت كما يقولون فخرَ صناعتهم. فانطلقتْ في رحلة ترفيهية وعلى متنها عَليّة القوم، ونخبة من المجتمع. وقد بلغ الفخر والاعتزاز بصانعي السفينة

درجة كبيرة من الكبر والغرور، فأطلقوا عليها اسم (Titanic) أي الجبار الذي لا يُقهر!. بل سُمِعَ أحدُ أفراد طاقمها يقول أمام بعض كبار ركابها بما ترجمته: " حتى الله نفسه لا يستطيع أنْ يغرقها ". تعالى الله عمّا يقولون علوا كبيرا.

وفي اليوم الثالث من رحلتها في المحيط الأطلسي شاء الله تعالى أنْ تصطدم بجبل جليدي عائم، فتفتح فيها فجوة بطول تسعين متراً !! وبعد ساعتين تستقر الباخرةُ (التي لا تُقهَر) في قعر المحيط، ومعها ١٥٠٤ من الركاب وحمولة بلغت ٤٦٠٠٠ طن !! ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣] .

لقد فرحوا واغتروا بما أوتوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام ٤٤].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف ٥٥]

ومعنى آسفونا: أي أغضبونا.

وفي عام ١٩٨٦م أصيبوا بنشوة الكبْر والغرور يوم أطلقوا مكوك الفضاء الذي أسموْه Challenger أي المتحدّي !!

فماذا كانت النتيجة ؟ انفجر هذا (التشالنجر) بعد ٧٣ ثانية من إطلاقه، وقتل جميع من فيه وعددهم سبعة.

ولا زال الله تعالى يفعل من هذه الحوادث وغيرها ما شاء ومتى شاء. والله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

نعم، إنه ما خالط الكبر والغرورُ عملاً إلا أفسده، وجاءت النتيجة على غير المشتهَى.

ورحم الله الشاعر الذي قال:

يا رب هـذا الشّـرْبُ ألحـدَ عنـدما سخّـرْتَ لـه دُنيـاك

علمْتَـهُ مِـنْ عِلمك النوويّ مـا علمتـه فـإذا بـه عـاداك

ما كاد يُطلقُ للعُـلا صاروخَـهُ حتـى أشاح بوجهه وقـلاك

واغترّ حتى ظنّ أنّ الكـون في يُمنى بنـي الإنسان لا يُمنـاك

لو شئتَ يا ربّ هوى صاروخُهُ أو لو أردتَ لما استطاع حراك

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾

[60] And on the Day of Resurrection you will see those who lied against Allâh (i.e. attributed to Him sons, partners) - their faces will be black. Is there not in Hell an abode for the arrogant?

[60] Et au Jour de la Résurrection, tu verras les visages de ceux qui mentaient sur Allah, assombris. N'est-ce pas dans l'Enfer qu'il y aura une demeure pour les orgueilleux?

[60] "Und am Tage der Auferstehung wirst du diejenigen, die über Allah logen, mit geschwärzten Gesichtern sehen. Ist nicht in Dschahannam ein Aufenthalt für die Hochmütigen?

(٦٠) ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾. وهذا مثل قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران ١٠٦].
- ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس ٢٧]
- ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم ٥٠]
- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس ٤٠-٤٢]
- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة ٢٤، ٢٥]
- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية ٢ – ٤]
- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه ١٠٢]

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

وجاء في تفسير القرطبي رحمه الله: "والزرق خلاف الكحل. والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمه، أي تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم.

وقال الكلبي والفراء: "زرقا" أي عميا.

وقال الأزهري: عطاشا قد ازرقت أعينهم من شدة العطش.

وقال الزجّاج: لأن سواد العين يتغير ويزرق من العطش.

وقيل: إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف.

قال الشاعر:

لقد زرقتْ عيناك يا ابن مكعبر كما كل ضبي من اللؤم أزرقُ

وفي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)﴾

قال ابن عباس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿خَاشِعَةٌ﴾: أي ذليلة بالعذاب. وكل متضائل ساكن خاشع. يقال: خشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي تعبة. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم.

قال الكلبي: " يُجَرّون على وجوههم في النار، ويكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب،

بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار، كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقائها في صعود من نار، وهبوطها في انحدار منها، إلى غير ذلك من عذابها".

وفي قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة أي كالحة عابسة كاسفة تغير لونها. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ أي يعلوها الغبار والدخان وتغشاها قترة أي سواد. قال رسول الله ﷺ: "يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم".

أسأل الله تعالى أنْ يجعلنا من الذين ابيضت وجوههم.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾

[61] And Allâh will deliver those who are the Muttaqûn (the pious - see V.2:2) to their places of success (Paradise). Evil shall touch them not, nor shall they grieve.

[61] Et Allah sauvera ceux qui ont été pieux en leur faisant gagner (leur place au Paradis). Nul mal ne les touchera et ils ne seront point affligés.

[61] Und Allah wird diejenigen retten, die (Ihn) fürchteten, und ihnen Erfolg (verleihen). Weder wird sie das Ubel berühren, noch werden sie trauern.

(٦١) الوقفة هنا عند [النجاة] ، النجاة من أهوال القيامة، والنجاة من عذاب النار، والفوز والبشرى بالنعيم :

- ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء ١٠٣]
- ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران ١٨٥]
- ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل ٨٩]
- ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد ١٢].
- ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [التوبة ٢١]
- ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم ٧١، ٧٢]
- ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [مريم ٨٥]

قال رسول الله ﷺ: " من أحبّ أن يُزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآَخر، وليأتِ إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه".

وعن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: (يَحشر اللهُ مع كل امرئ عمله، فيكون عملُ المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح، فكلما كان رعبٌ أو خوفٌ قال له: لا ترعْ فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعني به، فإذا كثر ذلك عليه قال المؤمن: فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول: أما تعرفني ؟ أنا عملك الصالح حملتني على ثقلي، فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك. فهي التي قال الله: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء ١٠٣] . يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم:

﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي فأملوا ما يسركم وافرحوا ولا تحزنوا.

وقيل تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

ورد في تفسير ابن كثير رحمه الله حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ : " يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون إلى دار كرامته ورضوانه".

ولما نزلت هذه الآية قال أحد الصحابة: يا رسول الله، إني قد رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفدا إلا ركبانا، فما وفد الله ؟ فقال رسول الله ﷺ: (أما إنهم يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقا، ولكنهم يُؤتوْن بنوق من نوق الجنة لم يَنظر الخلائقُ إلى مثلها، رحالها الذهب وزمامها الزبرجد، فيركبون حتى يقرعوا باب الجنة).

أسأل الله تعالى أن يدخلنا في رحمته.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾

[62] Allâh is the Creator of all things, and He is the Wakîl (Trustee, Disposer of affairs, Guardian) over all things.

[62] Allah est le Créateur de toute chose, et de toute chose Il est Garant.

[62] Allah ist der Schöpfer aller Dinge, und Er ist der Erhalter aller Dinge.

(٦٢) الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء. في الأرض أو في السماوات العُلى. ليس هذا فحسب، بل هو على كل شيء وكيل: أي له الوكالة التامّة على كل شيء.

والقرآن الكريم أكّد هذه الحقيقة في آيات كثيرة :

- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام ١٠٢]
- ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد ١٦]
- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحشر ٢٤]
- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة ٧]
- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان ٢]
- ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل ٨٨]
- ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه ٥٠]
- ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى ٢، ٣]

أبدع وأحسن الخلق سبحانه وتعالى، قدّر ودبّر وهدى !!

ولو أردنا الحديث عن بديع صُنْع الله تعالى في خلقه لاستغرق ذلك صفحات طويلة، وحسبي هنا أن أعرض جانباً منْ عالم الحيوان كمثال على روعة الخلق وبديع صنع الله :

- مَنْ علّـم النحلَ أنْ تبنيَ هذه البيوتَ السداسية الدقيقة من الشمع بأبعادٍ محددة وأشكال سداسية متساوية الأضلاع كما لو أنها رُسمتْ بالمسطرة ؟!. ولماذا الشكل السداسي بالذات من دون سائر الأشكال ؟. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: " إختار النحل أنْ تبني بيوتها منْ أشكال موصوفة بصفتين:
  - أنْ لا تكون زواياها ضيقة، حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً.
  - أنْ تكون تلك البيوت مُصممة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامتلأ اللوح منها، لا يبقى منَ اللوح ضائع، فعلمتْ النحل أنّ الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو الشكل السداسي فقط. فإنّ المثلثات والمربعات وإنْ أمكَنَ امتلاء اللوح منها، إلا أنّ زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإنْ كانتْ زواياها واسعة كالشكل الثـُماني مثلاً، إلا أنّ اللوح لا يمتليء منها، بل يبقى فيما بينها فراغات خالية ضائعة. فسبحان مَنْ هداها إلى بناء بيوتها على هذا الشكل مِنْ غير مسطرة ولا آلة ولا مثال يُحتذى عليه".

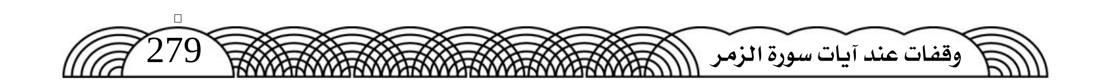
- مَنْ علـّم النملة حين تُخزّنُ الحَبّ أنْ تفلق الحبة فلقتين لكيلا يَنبُت، فإنْ كان ينبت مع فلقه باثنتين، فلقته بأربعة ؟!.
- وانظرْ إلى الهدهد. تجده مِن أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره. فسبحان من هداه إلى هذا.
- وانظر إلى الحَمام فهو مِنْ أعجب الحيوان هداية !. يقول الشافعي: " أعقل الطير الحمام ". والحمام إذا أراد السِّفادَ يلطف للأنثى غاية اللطف !. وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد، يقوم هو والأنثى بجمع العيدان و القصب، فيعملان منه عُشاً ينسجانه نسجاً متداخلاً، ويجعلان حوافـّه مرتفعة، لكيلا يتدحرج عنه البيض!!. مَنْ علـّم الحمام أنْ يفعل ذلك ؟!.
- ومن عجائب هداية الله في مخلوقاته ما يجيده الثعلب من مكر وحيلة ! فمِن عجيب أمره أنه إذا اشتد به الجوع انتفخ، ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة، فتتداوله الطير، فلا يُظهر حركة ولا نفَساً، فلا تشك الطير أنه ميّت ! حتى إذا نَقرتـْهُ في رأسه، وثب عليها، فضمّها ضمّة الموت !!.
- مَنْ علـّم الدّب، إذا أصابه جرح، أنْ يأتيَ إلى نبتة قد عرفها، وجهلها صاحب الحشائش، فيتداوى بها فيبرأ ؟!.

- مَن هدى أنثى الفيل، إذا دنا موعد ولادتها، أن تأتيَ إلى الماء فتلد فيه ؟ لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة !!، وهي عالية، فتخاف أن تُسقِط وليدها على الأرض فيتأذى، فتأتي ماءً وسطا تضعه فيه، فيكون كالفِراش اللين والوطاء الناعم !!.
- مَن هدى الجمل أن يشرب من خُفّه عندما يتعرض للجفاف، وانقطاع مياه الشرب عنه أياماً متلاحقة ؟! لقد ميّزه الله سبحانه وتعالى بخاصية عجيبة: وهي أنّ كمية من الماء على شكل جدائل تبقى مخزنة في خُفّي الجمل وسيقانه وسنامه، بحيث عند اشتداد الحاجة للماء، تنفكّ جدائلُ الماء هذه وتنساب في دمه، فتحميه من الهلاك عطشاً !!.

فسبحان الله ! نقولها تسبيح متيقظ لا تسبيح غافل.

يعرّف ابن الجوزي رحمه الله الفرق بين تسبيح الغافل وتسبيح المتيقظ فيقول:

"الغافل يقول سبحان الله عادةً. أما المتيقظ فلا يزال فكره في عجائب المخلوقات، وفي عظمة الخالق، فيحركه التدبر والتأمل في ذلك فيقول: سبحان الله، مما يدفعه إلى تعظيم الخالق وعبادته حق العبادة. فهذا تسبيح المتيقظين. أما الغافلون، نعم يقولون سبحان الله، ويقولون أستغفر الله، ولكن يقولونها عادةً. وشتان ما بين الفريقين".



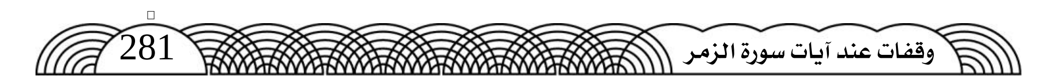
أسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من الغافلين.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

[63] To Him belong the keys of the heavens and the earth. And those who disbelieve in the Ayât (proofs, evidences, verses, signs, revelations, etc.) of Allâh, such are they who will be the losers.

[63] Il détient les clefs des cieux et de la terre; et ceux qui ne croient pas aux versets d'Allah, ce sont ceux-là les perdants.

[63] Sein sind die Schlüssel der Himmel und der Erde; und jene, die nicht an die Zeichen Allahs glauben, sind die Verlierenden.



(٦٣) وقفنا طويلا عند السماوات والأرض في الآيتين ٥ و ٦٧ من هذه السورة فارجع إليهما.

﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ ﴾

[64] Say (O Muhammad (peace be upon him) to the polytheists): "Do you order me to worship other than Allâh? O you fools !"

[64] Dis: "Me commanderez-vous d'adorer autre qu'Allah, O ignorants?"

[64] "Sprich: ""Verlangt ihr von mir etwa, daß ich (etwas) anderes als Allah anbete, ihr Toren?""

(٦٤) الوقفة هنا عند ﴿ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾:

الجهل هو السّفهُ وعدم العلم. وجَهِـل الشيء: أي لم يعرفه. وجهل الحق: أي أضاعه. ونقول رجلٌ جاهل، وجمعها :جُهّال أو جهلة. ومعنى تجاهل: أي أظهر أنه جاهل وهو ليس به، كما قال الشاعر :

ولمّا رأيْتُ الجهلَ في الناس فاشيا   تجاهـلتُ حتى قيل إنــيَ جاهــلُ
فوا عجباً كم يدّعي الفضلَ ناقصٌ   ووا أسفاً كم يُظهر النقصَ فاضـلُ

وعرّف ابن تيمية رحمه الله الجهل بقوله: " هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم، فمن لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا، ومن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركّبا ".

وأسوأ ما في الإنسان أنْ يكون جاهلا ولكنه لا يدري ! كما قال الشاعر:
جهلتَ ولم تعلمْ بأنك جاهلٌ   ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

وأسوأ منه ذاك الذي قال عنه الشاعر :
وما الداءُ إلا أنْ تُعلّم جـاهلاً   ويــزعم جهــلاً أنــه منــك أعلــمُ

وأسوأ منهما هو الرجل الذي عرك الحياة وعركته، وغزا الشيب مفرقه، وتقدّم به السن، ومع ذلك بقي جاهلا سفيها طائشا لم يتعلم، كما قال الشاعر :

إنّ الشباب لهم عذرٌ إذا جهلـوا   وليس يُقبَـلُ مِـنْ ذي شـيبة عـذرُ

والطامة الكبرى هي أنْ لا ينتفع الجاهلُ من علم أو حكمة تُسدى إليه، وتضيع جهود معلمه سدى، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله :

ومن يبذل العلم المصون لجاهل   فسوف يُلاقـي منـه قهـراً وينـدمُ

وقال آخر :

ومَن لم يذقْ ذلّ التعلّم سـاعة   تجـرّع ذل الجهـل طـول حياتـه

وقال آخر :

جهْلُ الفتى عـارٌ عليـه لذاتـه   وخمولـهُ عـارٌ علـى الأيـام

وقال آخر :

وذو الجهل ميْتٌ وهو ماش علـى   الثرى يُظنّ من الأحياء وهـو عـديمُ

وقال آخر:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله   فأجسـامهم قبـل القبـور قبـورُ

وقال آخر :

وإذا الصديق قسا عليك بجهله فاصفحْ لأجل الـودّ لـيس لأجلـهِ

يُروى أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله كان في مجلسه رجلٌ بدتْ عليه علامات العلم والوقار، وكان الإمام أبو حنيفة جالساً جلسة أدب واحترام، لأن من عادة أبي حنيفة أنْ يوقر العلماء ويُجلهم، ومن ذلك أن لا يمد رجليه بحضورهم، احتراما وحياءً. فوجّه الرجل للإمام سؤالاً وقال: متى يفطر الصائم ؟ فأجابه الإمام: عندما تغيب الشمس. فقال الرجل: وإذا لم تغب ؟!!. عندها نظر إليه الإمام وقال: آن لأبي حنيفة أنْ يمدّ رجله.

ولهذا يقول الشاعر :

ومن الغباوة أنْ تعظّم جـاهلاً لصـقال مَلبسـه ورونـق رقشـه

وقد قيل: لئن تموت طالباً للعلم خيرٌ من أنْ تعيش قانعاً بالجهل!.

واعلم أنّ الجهل أوسعُ الأبواب التي ينفذُ منها الشيطان إلى المرء.

والجاهلية هي عدم اتباع ما أنزل الله. ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف ١٣٨].

والعرب كانوا قبل الاسلام في جاهلية أي في جهل وضلال.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب ٣٣].

ومن صور جاهلية العرب قبل الإسلام ما يلي :

- إذا ولدتْ الناقة خمسة أبطن، وكان الأخير ذكراً، شقوا أذنها وحرموا ذبحها.
- إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم. فإنْ ولدتْ توأما ذكراً وأنثى، قالوا: وصلتْ أخاها، فلا يُذبح الذكر لآلهتهم !!.
- الأزلام هي سهام كانت لهم، مكتوبٌ على بعضها: (أمرني ربي) ، وعلى بعضها مكتوب: (نهاني ربي) . فإذا أراد الرجل سفراً أو عملاً هامّا، أخرج من الجعبة سهماً، فإذا خرج الأمر نفّذ عمله، وإذا خرج النهي لم ينفذ.
- كان أحدهم إذا رُزق بنتاً وأدها، أي دفنها في التراب وهي حيّة.

وكان بمكة جبل كانت قريش تئد فيه البنات. ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير ٨، ٩] .

- كان أحدهم إذا خرج إلى سفر، عمد إلى شجرة، فيعقد غصناً منها. فإذا عاد من سفره ووجد الغصن قد انحلّ، قال: قد خانتني امرأتي. وإنْ وجده على حالته، قال: لم تخنّي!!.
- زعموا أنّ الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أنْ يدخلها ونهق كما تنهقُ الحمير، لم يُصبْهُ وباؤها !!.
- زعموا أنّ الرجل إذا ضلّ في الطريق فقلب ثيابه اهتدى.
- كان زواج المقت من سُنتهم، وهو أنّ الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فتزوجها. فإنْ لم يرغب بالزواج منها، زوّجها لبعض إخوته بمهر جديد.
- كان الرجل إذا أراد أنْ ينجبَ ولداً، يقول لامرأته إذا طهرتْ من حيضها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه (أي اطلبي منه الجماع لتنالي به الولد) .
- أولّ منْ أدخل عبادة الأصنام إلى العرب هو عمرو بن لحي أبو خزاعة. سافر إلى الشام، فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك ! فسألهم: ما هذه الأصنام التي تعبدونها ؟ قالوا: هذه أصنامٌ نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا !!. فقال لهم: أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنماً يقال له هبل. جاء به مكة ونصبه وأمر الناس

بعبادته وتعظيمه. وهكذا اتخذ العرب الأصنام وانهمكوا في عبادتها. وكان في كل بيت صنم يعبدونه. فإذا أراد الرجل سفراً، تمسّح به حين يركب، وإذا عاد من سفره، بدأ به قبل أنْ يدخل إلى أهله. وكان صنم العُزى لقريش وبني كنانة، وصنم اللات لثقيف، وصنم مناة للأوس والخزرج !.

تلك كانت بعض أعمالهم ومعتقداتهم في الجاهلية. فجاء الإسلام العظيم، فأخرجهم من جاهليتهم وحوّلهم إلى أعظم أمة عرفتها البشرية.

أسأل الله تعالى أن يعيد الأمة الحالية إلى ما كانت عليه من قوة وعزة وأمجاد !!.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾

[65] And indeed it has been revealed to you (O Muhammad (peace be upon him)) as it was to those (Allâh's Messengers) before you: "If you join others in worship with Allâh, (then) surely (all) your deeds will be in vain, and you will certainly be among the losers."

[65] En effet, il t'a été révélé, ainsi qu'à ceux qui t'ont précédé: "Si tu donnes des associés à Allah, ton œuvre sera certes vaine; et tu seras très certainement du nombre des perdants.

[65] ""(Dies,) wo dir doch offenbart worden ist, wie schon denen vor dir: ""Wenn du (Allah) Nebengötter zur Seite stellst, so wird sich dein Werk sicher als eitel erweisen, und du wirst gewiß unter den Verlierenden sein.""

(٦٥) المقصود بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ هم الرسل والأنبياء عليهم السلام، فكما قيل للنبي محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، كذلك قيل لكل واحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام، كما قال الله عنهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ٨٨] . وإذا كان الشرك مُحبطاً لعمل الأنبياء على سبيل الفرض، فهو من باب أولى محبط لعمل غيرهم من الناس.

لنقف قليلاً مع كوكبة من هؤلاء الرسل والأنبياء الكرام، عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام. هؤلاء الذين أوحى الله إليهم، وبلغهم رسالته، وحمّلهم أمانة نشر دينه:

١- آدم [أبو البشر] عليه السلام:

خلقه الله تعالى من طين ونفخ فيه من روحه فصار بشراً، وعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له سجود تكريم لا سجود عبادة، ولكن إبليس رفض السجود. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه ١١٦]. وخلق زوجه حوّاء وأسكنهما الجنة، وأباح الله لهما كل شيء في الجنة إلا

شجرة حددها لهما. ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة ٣٥] . لكن إبليس وسوس لهما بالأكل من الشجرة، فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما.

ندم آدم على فعلته واعتذر، وتم إخراجهم من الجنة، ثم هداه الله وتاب عليه. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة ٣٧]. ومن ثم هبط آدم وحواء وإبليس إلى كوكب الأرض، لتبدأ بذلك الحياة البشرية. ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة ٣٦].

توفي آدم عليه السلام عن عمر يناهز ٩٣٠ سنة.

٢- إدريس عليه السلام :

هو أول نبي بعد آدم وشيث عليهما السلام. ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم ٥٦، ٥٧]. مرّ به النبي محمد ﷺ في السماء الرابعة أثناء رحلة الإسراء والمعراج. وهو أول من خط بالقلم، وكان عالماً بالنجوم وأسرار الفلك.

ولد عليه السلام ببابل ونشأ فيها، ثم هاجر إلى مصر مع أتباعه، وأقام فيها، وأخذ يدعو الناس إلى دين الله تعالى وتوحيده. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

من صفاته عليه السلام: كان تام القامة، حسن الوجه، كث اللحية، عريض المنكبين،، متأنياً في كلامه، كثير الصمت، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير التفكر. وكانت مدة إقامته في الأرض اثنتين وثمانين سنة.

٣- نوح عليه السلام :

هو النبي الثاني بعد آدم، وأول الرسل عليهم السلام. وما بين وفاة آدم وولادة نوح عليهما السلام ١٢٦ سنة.

كان قوم نوح يعبدون الأصنام وهي (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر)، فأرسل الله نوحاً لينذرهم إذا تمادوْا في ضلالهم ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾ [نوح ١].

مكث نوح عليه السلام مدة ٩٥٠ سنة وهو يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت ١٤].

أمره الله تعالى أنْ يصنع السفينة لتكون وسيلة لنجاته ومن معه من الغرق في الطوفان القادم. ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود ٣٧] ، وأنْ يحمل فيها أهله ما عدا امرأته، وأنْ يرفق معه من كل حيوان وطير زوجين اثنين، وأن يأخذ معه مَن آمن مِن قومه، وكان عددهم أربعين رجلاً وامرأة. ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود ٤٠]. ولما تمادى قومه في الكفر أهلكهم الله تعالى بالطوفان فانهمرت السماء بمطر شديد، وانفجرت عيون الأرض ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر ١١، ١٢].

وحملت السفينة كل من فيها ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود ٤٢].

وهكذا غرق قوم نوح ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف ٦٤].

٤- هود عليه السلام :

سكنتْ قبيلة عاد وهم قوم هود أرض الأحقاف [شمال حضرموت وجنوب صحراء الربع الخالي) . وكانت لديهم مدنية عظيمة فيها العمران والمصانع والنعيم المقيم. ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء ١٢٨- ١٣٠]. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾[الفجر ٦-٨].

بعث الله فيهم هوداً عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى، والكفّ عن عبادة الأصنام وظلم الناس، فأبوْا واستكبروا وقالوا له: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت ١٥]. ولما خوّفهم من عذاب الله تعالى تحدّوْه وقالوا له: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف ٧٠].

فكانت النتيجة أنْ أهلكهم الله تعالى بأنْ أرسل عليهم إعصاراً مدمّراً، استمر مدة سبع ليال وثمانية أيام ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة ٦، ٧].

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف ٢٤، ٢٥].

٥- صالح عليه السلام :

سكنتْ قبيلة ثمود وهم قوم صالح منطقة الحجر [بين الحجاز والأردن قرب خليج العقبة) . وجاءوا بعد قوم عاد. وبرعوا في صناعة النحت، فكانوا ينحتون بيوتهم في صخور الجبال ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ﴾[الأعراف ٧٤].

وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف ٧٣].

لكنهم طلبوا من صالح عليه السلام آية على صدقه، فأتاهم بالناقة، وطلب منهم أنْ لا يمسوها بسوء ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف ٧٣]. إلا أنّهم نقضوا العهد، وعقروا الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ [هود ٦٥].

بعد انقضاء المهلة، دمّرهم الله تعالى بالصاعقة ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤﴾ [الذاريات ٤٣، ٤٤].

٦- إبراهيم عليه السلام :

ولد إبراهيم في العراق وبينه وبين ولادة نوح ٨٩٠ سنة، وهذا يعني أنه عاصر نوحاً ما يقرب من ستين سنة.

عبد قومُه الأوثان، وكان أبوه نجاراً يصنع الأصنام ويبيعها للناس، فقام إبراهيم عليه السلام بتحطيمها فعاقبه قومه بإلقاءه في النار ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء ٦٨] . فأنجاه الله تعالى بأنْ عطّل خاصية الإحراق لتلك النار ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء ٦٩]. ومع ذلك رفض القوم دعوة إبراهيم عليه السلام، وقاطعوه، وهدّده أبوه بالرجم، ولم يؤمن من قومه سوى امرأته سارة وابن أخيه لوط. فتبرأ من أبيه، ولم يعد يرغب في الإقامة بين أهله وقومه، فقرر الهجرة مع امرأته وابن أخيه إلى مدينة (أور) غرب نهر الفرات، ثم إلى فلسطين﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت ٢٦] .

ثم هاجر عليه السلام بعد ذلك إلى مصر في عهد الهكسوس (الملوك العماليق) . واتفق إبراهيم ولوط عليهما السلام على أنْ يفترقا في مكان الإقامة، فذهب لوط إلى بلدة (سدوم) في الأردن

(موقع البحر الميت الآن) ، وبقي إبراهيم في مصر. وأهدى ملك مصر لسارة جارية اسمها هاجر.

رجع إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين مع سارة والجارية هاجر، وكانت سارة عاقراً لا تلد، فتزوج إبراهيم من هاجر، وأنجب منها إسماعيل عليه السلام. أما سارة فأنجبت بعد أنْ تقدّم بها العمر ولداً هو إسحاق عليه السلام، وكان عمرها تسعين سنة ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود ٧١، ٧٢] .

سافر إبراهيم عليه السلام إلى مكة مع هاجر وطفلهما الرضيع إسماعيل. وتركهما بواد مجدب قرب البيت، ولم تكن الكعبة مبنية. ثم عاد إلى فلسطين، وفي طريقه دعا الله بهذا الدعاء: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم ٣٧] .

كان عليه السلام يزور هاجر وإسماعيل بين الحين والآخر. وفي إحدى الزيارات أمره الله تعالى ببناء الكعبة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ

ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة ١٢٧]

كان إبراهيم عليه السلام يحب إكرام الضيف، وكان رقيق القلب، وكان يحب الاستطلاع، وهو أول من سمانا المسلمين، وهو أول من أحيا سنة الختان بأمر من الله تعالى. توفي إبراهيم عليه السلام عن عمر يناهز ١٧٥ سنة، ودفن في مدينة الخليل.

٧- لوط عليه السلام :

كان أهل سدوم (مكان البحر الميت) ذوي أخلاق سيئة، لا يخجلون ولا يتعففون من الإتيان بالمعاصي والمنكرات ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ [العنكبوت ٢٩]

وقد نصحهم لوط عليه السلام ونهاهم وخوّفهم من عذاب الله تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[الأعراف ٨٠] . ولكنهم لم يرتدعوا.

وحدث أنْ جاء ثلاثة من الملائكة لزيارة لوط، وكانوا بهيئة غلمان حسان الوجوه. ما أنْ علم أهل القرية بهذه الزيارة حتى

جاءوا إلى بيت لوط ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود ٧٧، ٧٨] . وما أنْ اقتحموا المنزل حتى طمس الله أعينهم ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾ [القمر ٣٧].

أخرجتْ الملائكة لوطاً وابنتيه وامرأته من القرية وأمروهم أنْ لا يلتفت أحدٌ منهم إلى الوراء، فأطاعوا الأوامر إلا امرأته فإنها التفتتْ إلى القرية، وكانت كافرة، فحلّ بها من السخط والعذاب ما حلّ بهم ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود ٨١] .

وهكذا دمّر الله تعالى قرية سدوم بأنْ أمطر عليها حجارة من سجيل، وقلبها فجعل عاليها سافلها ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود ٨٢] .

٨- يوسف عليه السلام :

كان يوسف عليه السلام محبوباً لدى أبيه، وكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه، فأضمروا له الشر، وقالوا لأبيهم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف ١١]

أجمع إخوته على أنْ يتركوه داخل البئر ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف ١٥]. فجاءت قافلة، وأنقذوه من الجب، ثم باعوه في مصر. وقد اشتراه العزيز وزير الملك حيث أسكنه في بيته وقال لامرأته﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف ٢١] .

وقد تعرّض يوسف عليه السلام في بيت العزيز لمحنة قاسية كانت سببها امرأة العزيز، وبفضل الله تعالى خرج منها منتصراً ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف ٢٤]

ورغم براءته فقد قرر العزيز بالتآمر مع امرأته ومستشاريه إدخال يوسف عليه السلام السجن ظلماً وعدواناً ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا

رَأَوُاْ ٱلْأَيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف ٣٥] . ثم فرّج الله عنه، فخرج من سجنه معززاً مكرّماً. وجعله ملك مصر على خزائن البلاد. وكان عمره في تلك الآونة ثلاثين سنة. ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف ٥٥، ٥٦]

ولما حضر إخوة يوسف إلى مصر لشراء القوت، التقى بهم، وجمع الله شملهم مع والديهم، وتوجّه يوسف إلى الله بهذا الدعاء: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف ١٠١] . توفي عليه السلام عن عمر يناهز ١١٠ سنة.

٩- شُعيب عليه السلام :

سكن قوم شعيب (مدين) من أرض الحجاز، وكانوا أهل تجارة وثراء، ومع ذلك عبدوا غير الله تعالى، وفعلوا الموبقات، فكانوا

يطففون الكيل والميزان ! وكان شعيب عليه السلام ينهاهم ويخوفهم من عذاب الله ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود ٨٤]. ورغم هذا هدّدوه بالإبعاد عن قريته هو ومن آمن معه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف ٨٨].

وفي نهاية المطاف سلّط الله عليهم زلزالاً مدمّراً (الرجفة) فهلكوا جميعاً، ونجّى الله شعيباً ومن آمن معه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأعراف ٩١] .

١٠- موسى عليه السلام :

بقي أبناء يعقوب عليه السلام (بنو إسرائيل) في مصر، وتكاثروا، وكان يُطلق عليهم (العبرانيون) . وحكم مصر في تلك الآونة ملكٌ هو (فرعون)، فخشي من تكاثر بني إسرائيل واتساع نفوذهم وامتلاكهم للسلطة، فقرر أنْ يقتل كل ذكر من أولادهم. وأما البنت

فتبقى! ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة ٤٩] . وقد أراد الله سبحانه وتعالى أنْ يُخلّص بني إسرائيل من هذا الإضطهاد، فأمر موسى عليه السلام أنْ يذهب إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه ٢٤] . وآزره برفقة أخيه هارون ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص ٣٥]. ولمّا دخلا عليه قال موسى: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف ١٠٤، ١٠٥].

وقد أيّده الله عز وجل بالآيات المعجزة، منها العصا التي انقلبت ثعباناً خلال الحفل الحاشد في يوم الزينة، فابتلعتْ جميع الحبال والعصي التي ألقاها السحرة ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه ٦٩] . حيث دُهش آل فرعون من هذا المشهد، وأدرك السحرة أن ما فعله موسى

ليس من قبيل السحر، وإنما هي القدرة الإلهية، فخرّوا لله ساجدين ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه ٧٠] . ومع ذلك تمادى فرعون في كفره، وأصر على الكبر والعناد، وهدّد موسى بالقتل ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر ٢٦].

عندئذ أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى أنْ يأخذ معه بني إسرائيل ويخرج بهم من مصر: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه ٧٧] . وصل موسى وقومُه إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، ولحق بهم فرعون وجنوده، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء ٦٣]، وما أنْ عبر بنو إسرائيل البحر نحو الشاطيء الشرقي حتى انطبقت مياه البحر على فرعون وجنوده ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشعراء ٦٥، ٦٦] .

انتهى فصلٌ مرير من معاناة موسى عليه السلام مع آل فرعون، ليبدأ مع قومه معاناة أشد مرارة !!. فبعد أنْ وصلوا شبه جزيرة سيناء حدث ما يلي :

- طلبوا الماء للشرب فهيأ الله تعالى لهم اثنتي عشرة عيناً: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف ١٦٠]
- ساق الله من أجلهم الغمام ليظلهم من حرّ الشمس، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف ١٦٠] . لم يعجبهم هذا الطعام، فطلبوا طعاماً آخر: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾ [البقرة ٦١].
- رغم هذا الفضل من الله تعالى، فقد طلبوا من موسى أنْ يجعل لهم إلهاً يعبدونه !! ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف ١٣٨].

- عبدوا تمثال العجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب الذي كان معهم، وذلك أثناء غياب موسى عنهم حين ذهب إلى جبل الطور لميقات ربّه ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف ١٤٨].
- رفضوا الامتثال لأمر موسى عليه السلام حين طلب منهم دخول الأرض المقدسة لتحريرها من الأمم الأخرى وقالوا له: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة ٢٤].
- تلكّأوا وماطلوا في ذبح البقرة حين أمرهم موسى عليه السلام بذلك: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة ٧١].
- طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الله تعالى عياناً وقالوا له: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة ٥٥].

لأجل كل ما تقدّم، فقد ابتلاهم الله تعالى بجملة من العقوبات لعلّهم يرتدعون. من هذه العقوبات :

- أرسل الله عليهم الصاعقة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة ٥٥، ٥٦]
- رفع الله فوقهم جبل الطور كأنّه ظُلّة ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف ١٧١].
- أوحى الله تعالى إلى موسى أنّ توبتهم هي أنْ يقتل بعضهم بعضاً، ففعلوا، حتى مات منهم عدد كبير ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة ٥٤].
- تاهوا في البريّة مدة أربعين سنة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [المائدة ٢٦]
- أصبحت قلوبهم قاسية ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة ٧٤].

- حلّ بهم غضب الله تعالى ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة ٦١].

وموسى عليه السلام هو أحد أولي العزم من الرسل، وهو كليم الله تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء ١٦٤]، وذهب إلى جبل الطور، ومكث فيه ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، وذلك من أجل أنْ يُكلّم ربه ويتلقى منه الألواح (أسفار التوراة) . ومات بعد أخيه هارون عليهما السلام.

١١- داود عليه السلام :

آتاه الله تعالى النبوة والمُلك في بني إسرائيل، وأنعم عليه نعماً عظيمة، فسخّر الجبال يسبحن معه صباحا ومساء، وعلمه منطق الطير، وألان له الحديد، وأعطاه الزبور﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص ١٧-٢٠].

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء ١٦٣] . وكان عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يوماً. كانت فترة مُلكه أربعين سنة.

١٢- سليمان عليه السلام :

صار ملكاً بعد أبيه داود عليه السلام. آتاه الله الحكمة وأنعم عليه بنعم عظيمة، فسخّر له الرياح يصرفها بقدرته كيف يشاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص ٣٦] . وسخّر له الجن تطيعه وتنفذ أوامره ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [سبأ ١٢]. وكان عليه السلام أول من صهر النحاس ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ [سبأ ١٢] . كما سخّر الله له الطير يخاطبها ويفهم لغتها، ومن ذلك قصة الهدهد وملكة سبأ. وكان عليه السلام يدعو إلى دين الله وتوحيده، فدعا ملكة سبأ في اليمن وقومها إلى الإيمان بالله، فآمنتْ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل ٤٤]، وذلك بعدما شاهدتْ من مظاهر القوة والعبقرية ما يُبهر الألباب، ومن ذلك الصرح العظيم الذي بناه لها سليمان عليه السلام.

١٣- أيوب عليه السلام :

قيل بأنه عاش قبل إبراهيم بنحو مئة سنة. كان قبل النبوة عبداً صالحاً، ابتلاه الله تعالى في ماله ونفسه وأهله، فصبر صبراً جميلاً،

فعوّضه الله تعالى بالصحة والعافية، وآتاه أكثر مما فقد من مال وولد، وأثنى الله عليه بأحسن الثناء، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء ٨٣، ٨٤]

١٤- يونس عليه السلام :

ورد ذكره في القرآن الكريم في عدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء ٨٧] . وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم ٤٨]

ابتلعه الحوت فكان يدعو الله ويسبحه، حتى نُبذ على ساحل البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

(١٤٤) ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦)﴾ [الصافات ١٤٢-١٤٦]. بعثه الله تعالى بعد ذلك إلى قرية نينوى، وكان عدد سكانها مئة ألف نسمة أو أكثر، فدعاهم إلى الإيمان بالله فآمنوا: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾ [الصافات ١٤٧، ١٤٨] .

١٥- زكريا عليه السلام :

عاش قبل مجيء المسيح بنحو ثلاثة قرون. وهو الذي تكفّل بتربية مريم ورعايتها بعد وفاة أبيها عمران وهي صغيرة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران ٣٧] . وكان زكريا يسأل مريم كلما رزقها الله برزق فيقول لها: ﴿يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾ فتقول له ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران ٣٧] .

كان زكريا عليه السلام قد تقدّم به العمر، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، فتمنى إنجاب ولدٍ يخلفه من بعده في الدعوة إلى الله وخدمة بيته، فتوجه إلى الله بالدعاء أنْ يحقق له تلك الأمنية ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨)﴾

[آل عمران ٣٨]. واستجاب الله دعاءه ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران ٣٩] . وهكذا حملت امرأته بيحيى. ومن ثم كان يحيى نبياً ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم ١٢-١٥]

١٦- عيسى عليه السلام :

هو آخر الأنبياء في بني إسرائيل. الفترة بينه وبين محمد ﷺ نحو خمسة قرون. ولد عيسى عليه السلام من غير أب بقدرة الله تعالى الذي أوجد آدم من غير أب ولا أم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران ٥٩]. وأمّه هي مريم عليها السلام، حملتْ به حين نفخ الملك في جيبها.

ورد ذكر عيسى في القرآن الكريم تارة بلفظ (عيسى بن مريم) وتارة أخرى بلفظ (المسيح) . كلّم الناس وهو في المهد وقال لهم:

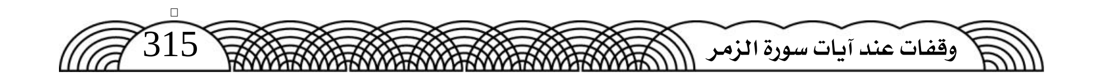
﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم ٣٠-٣٣]. تلقى النبوّة وهو في الثلاثين من عمره، وأنزل الله عليه الإنجيل، وهو كتاب تضمن الهدى والنور ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة ٤٦]. أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل بعد أنْ قست قلوبهم، وحرّفوا شريعة الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام من قبل، ولم يؤمن بعيسى سوى عدد قليل ومنهم الحواريون وهم أنصاره الذين سارعوا في الإيمان وآزروه، فاختارهم عيسى ليكونوا تلاميذه، وكانوا اثني عشر رجلاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف ١٤].

أيّد الله سبحانه وتعالى نبيه عيسى عليه السلام بالمعجزات مثلما أيّد رسلاً من قبله. ومن تلك المعجزات أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. ومنها كذلك أنّه يُبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة ١١٠].

وخاتمة عيسى عليه السلام هي أنه لم يُقتلْ ولم يُصلبْ، وإنما رفعه الله تعالى إليه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء ١٥٧، ١٥٨] .

صلوات الله وسلامه على نبينا محمد وعلى أولئك الرسل الكرام، طلائع الموكب الإيماني على مدار الأجيال والقرون.

أسأل الله تعالى أنْ يجمعنا بهم في مستقر رحمته.



[66] Nay! But worship Allâh (Alone and none else), and be among the grateful.

[66] Tout au contraire, adore Allah seul et sois du nombre des reconnaissants".

[66] "Nein, diene denn Allah und sei einer der Dankbaren.

(٦٦) الوقفة هنا عند الشكر :

أمر الله تعالى الناس أنْ يشكروه. والآيات التي تحث على الشكر في القرآن كثيرة :

- ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢ ﴾[البقرة ١٥٢]
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ ﴾ [البقرة ١٧٢]
- ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١١٤ ﴾ [النحل ١١٤]
- ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٥]
- ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧ ﴾ [إبراهيم ٧]

إنّ عدم شكر الله تعالى خسّة ونذالة. إنّك لو أكرمتَ شخصا فأستضفته في بيتك وأطعمته وأسقيته وأغدقت عليه بالمال والهدايا، ثم هو بعد ذلك تنكّر لك، وأشاح بوجهه عنك، ونسي كل هذا

المعروف، ماذا يكون موقفك منه ؟ لا شك أنّ انشقاق الأرض وابتلاعَها له أفضل من بقاءه على ظهرها !!. فكيف بمَنْ خلق من عدم، ورزق وأعطى ورعى ووهب ؟ ثم تجد أناساً يأكلون من خيره، ويسكنون في أرضه ويتنعمون بفضله وكرمه وعطاياه، ثم يكفرون به، ويجحدون نعمه، ويحاربون دينه وأولياءه، ويظلمون الناس ويتكبرون في الأرض بغير حق. إنّ هؤلاء يمشون فوق تراب لو نطق لاشتكى منهم. إنّ هؤلاء وأمثالهم عبء ثقيل على الحياة، إنّ في موتهم راحة لجميع الكائنات حتى الجمادات، وفي الآخرة هم حطب جهنم.

إنّ كفر النعمة والإعراض عن شرع الله والظلم والفساد والترف والبطر والربا والزنا من عوامل زوال النعم ونزول العذاب. والأمثلة على ذلك كثيرة :

- قصة سبأ مثال على ذلك. هذه البلدة كانت مزدهرة ثم صارت خرابا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ ١٥- ١٧]

- كم من أمة، وكم من شعب، وكم من دولة كان مساؤها نعيماً وعيْشاً لاهياً، ثم صار صبحُها عذاباً وتشريداً وجوعاً وخوفاً : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل ١١٢].
- كان أحدُ أمراءُ إشبيلية في الأندلس يعيش حياة مترفة غاية في التنعّم واللذة. طيبات الدنيا تُجلب إليه. اشتهتْ زوجته ذات يوم أنْ تخوض في الطين، ونفّذ رغبتها. نُثر التراب في ساحة القصر، ثم عُجن بماء الورد كي تخوض فيه زوجه. كانت حياتها حياة مرح ولذة وبهجة، فهل دامت لهم تلك المباهج والمتع ؟

دارت الدائرة عليه، فسلّط الله عليه قوات المرابطين وصفّدوه بالأغلال، واستُذل بنوه وبناته !. وفي يوم من أيام سجنه ببلدة أغمات، دخلتْ عليه بناته في يوم العيد وهنّ في ثياب رثة، ومعهنّ المغازل يغزلن بها للناس كي يحصلن على بعض القوت. فقال معاتباً نفسه بأبيات من الشعر:

فيما مضى كُنتَ بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمـات مأسـورا
بعــدك في مُلْـكٍ يُســرّ بــه فإنمــا بـات بـالأحلال مغــرورا

والشكر هو شكر القلب وشكر اللسان وشكر الجوارح. وفي سيرة النبي ﷺ، وسيرة السلف الصالح من مظاهر الشكر ودلائل الحمد ما يملأ النفس بهجة وسرورا :

- كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من النوم يقول: " الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره" وكان إذا انتهى من الطعام يقول: " الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ". وكان إذا لبس ثوباً جديداً يقول: " الحمد لله الذي كساني هذا ورزقني إيّاه من غير حول مني ولا قوة. وكان إذا عاد من السفر يقول: " آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون. "
- وقال رسول الله ﷺ: " مَن لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ".
- قال أبو هارون: دخلتُ على أبي حازم فقلتُ له: يرحمك الله، ما شكرُ العينين ؟ قال: " إذا رأيت بهما خيراً ذكرتَه، وإذا رأيتَ

بهما شراً سترته. " قلتُ: فما شكرُ الأذنين ؟. قال: " إذا سمعتَ بهما خيراً حفظته، وإذا سمعتَ بهما شراً نسيته.

- وقيل جعل الله لعباده علامة يُعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر. وإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه، وماله في نقصان، علمنا أنه قد أخلّ بالشكر، إما أنه لا يزكي ماله، أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته.
- وقال بعض الحكماء: مَنْ أعطى أربعاً، لم يُمنعْ من أربع. من أعطى الشكر لم يُمنع المزيد. ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول. ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة. ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب.
- وقال أحد الصالحين: " ما أنعم اللهُ على عبد نعمة، فعلم أنها من الله، إلا كتب الله له شكرَها قبل أنْ يحمدَه عليها !!."
- وقال الشاعر :

ولو أنّ لي في كل منبت شعرة   لساناً يُطيلُ الشـكر كنـتُ مقصـرا

- وأنشد آخر مناجياً ربّه :

أوليتني نعمـاً أبــوحُ بشـكرها وكفيـتني كـل الأمـور بأسرهـا
فلأشكُرنّك ما حييتُ وإنْ أمُـتْ فلتشـكرنّك أعظُمـي في قبرهـا

- وقال آخر :

إلهي لك الحمدُ الذي أنت أهلـه على نعم ما كُنتُ قـط لهـا أهـلا
إن ازددتُ تقصيراً تزدني تفضلا كأني بالتقصير أستوجبُ الفضـلا

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[67] They made not a just estimate of Allâh such as is due to Him. And on the Day of Resurrection the whole of the earth will be grasped by His Hand and the heavens will be rolled up in His Right Hand. Glorified is He, and High is He above all that they associate as partners with Him!

[67] Ils n'ont pas estimé Allah comme Il devrait l'être alors qu'au Jour de la Résurrection, Il fera de la terre entière une poignée, et les cieux seront pliés dans Sa (main) droite. Gloire à Lui! Il est au-dessus de ce qu'ils Lui associent

[67] Und sie haben Allah nicht richtig nach Seinem Wert eingeschätzt. Und am Tage der Auferstehung wird die ganze Erde in Seinem Griff sein, und die Himmel werden in Seiner Rechten zusammengerollt sein. Preis (sei) Ihm! Hoch Erhaben ist Er über das, was sie anbeten.

(٦٧) يقول علماء الفلك: إن هذا الكون في شكله المنظور يتألف من وحدات هي " المجرات"، والمجرة عبارة عن مجموعات لا تعد ولا تحصى من النجوم والكواكب. ونظراً لهول المسافات التي تفصل بين النجوم وبين المجرات فإن هذه المسافات تقاس بالسنوات الضوئية، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في مدة سنة واحدة، والضوء أسرع ما عرف الإنسان (سرعة الضوء = ٣٠٠,٠٠٠ كم/ الثانية) .

فما بالك بالمسافة التي يقطعها الضوء في دقيقة واحدة ؟ إنها تساوي ١٨ مليون كم (لاحظ أن الضوء يقطع في مدة ٨ دقائق مسافة ١٥٠ مليون كم وهي المسافة بيننا وبين الشمس).

فما بالك بالمسافة التي يقطعها الضوء في ساعة ؟. . بل في يوم؟.. في شهر ؟.. بل ما بالك بالمسافة التي يقطعها الضوء في سنة ؟.. (إنها السنة الضوئية) إنها مسافة تدير الرؤوس !!..

هل تعلم أن أقرب سديم إلينا يبعد عنا مسافة مقدارها ٧٥٠ ألف سنة ضوئية ! بل إن العلماء رصدوا بواسطة جهاز المطياف مجرة تدعى (إندروميدا) والتي تبعد عنا مسافة ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية!!.

فكيف لو علمتَ أن طول المجرة التي نسكن أحد كواكبها يساوي (مئة الف مليون سنة ضوئية!!) ؟

بل اسمح لي أيها القاري الكريم أن أطلعك على حدث أوردته وسائل الإعلام المختلفة، وقف العلماء حياله مشدوهين مذهولين :

"شاهد العلماء مؤخراً ومن خلال تلسكوب (سويفت) أبعد إنفجار كوني على الإطلاق، وهذا الإنفجار كان لأشعة "غاما"، بحيث أصدر طاقة هائلة في دقائق معدودة تعادل ما تصدره شمسنا خلال ١٠ مليارات سنة !!.

ففي يوم ٤/٩/ ٢٠٠٥ تمت مشاهدة الانفجار واستمر ٣ دقائق (من رحمة الله تعالى أن هذا الانفجار حدث بعيداً عنا) وقد قدر العلماء بُعد الانفجار عن كوكب الأرض بما يعادل ١٣ مليار سنة ضوئية !!!. إنها مسافة يعجز الدماغ تصورها !!. حقاً: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة ٧٥،٧٦] .

ومجرتنا وتدعى (درب التبانة) هي من المجرات الصغيرة نسبياً، وإن سماءنا الدنيا تتكون من ملايين المجرات، فكيف بباقي السماوات؟! فسبحان الذي بكلمة منه كان كل ذلك.

والأرض التي يسكنها الإنسان هي أحد الكواكب التابعة للشمس. والأرض هذه بالنسبة إلى مجرتنا " درب التبانة " كحبة رمل بالنسبة إلى الصحراء الكبرى !!.

هذه السماوات بما فيها من أجرام ومجرات وكذلك الأرض تكون جميعها في قبضة الله تعالى يوم القيامة، وسوف يطويها الله عز وجل يوم القيامة كطي السجل للكتب: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الانبياء ١٠٤]

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾

[68] And the Trumpet will be blown, and all who are in the heavens and all who are on the earth will swoon away, except him whom Allâh wills. Then it will blown a second time, and behold they will be standing, looking on (waiting).

[68] Et on soufflera dans la Trompe, et voilà que ceux qui seront dans les cieux et ceux qui seront sur la terre seront foudroyés, sauf ceux qu'Allah voudra (épargner). Puis on y soufflera de nouveau, et les voilà debout à regarder.

[68] Und in den Sur wird gestoßen, und alle, die in den Himmeln sind, und alle, die auf Erden sind, werden tot niederstürzen; mit Ausnahme derjenigen, die Allah (ausnehmen) will. Dann wird wiederum in den Sur gestoßen, und siehe, da stehen sie auf und schauen zu.

(٦٨) تشير هذه الآية الكريمة إلى النفختين :

- نفخة الصعق: أي الموت في الحال، حيث يموت كل من في السماوات من ملائكة، ومن في الأرض من إنس وجن، باستثناء الملك المكلف بالنفخ في الصور ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ولكن الله تعالى يميته بعد أداء مهمته.
- ونفخة البعث: حيث تبعث جميع الخلائق من جديد، يخرجون من قبورهم واقفين على أرجلهم ينظرون !!.

وفيما يلي بعض الحقائق حول مسألة البعث بعد الموت:

- تعجّب كفار قريش في عهد النبي عليه الصلاة والسلام من إعادة الخلق بعد الموت ! وتساءلوا باستغراب: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ [الإسراء ٥١] . أجابهم القرآنُ بالعقل والمنطق: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء ٥١].
- جاء الوليد بن المغيرة إلى الرسول ﷺ، وكان يحمل رفات عظام بليتْ ورمّتْ وقال: أتزعم يا محمد أنّ ربك قادرٌ على أنْ يحيي هذه العظام بعدما بليتْ ورمّتْ ؟ فقال له النبي ﷺ: "نعم ويدخلك النار" فنزل قول الله تعالى مجيباً على سؤاله بأسلوب موضوعي وعقلاني: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ

خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس ٧٨، ٧٩]

- بيّن رسول الله ﷺ قضية البعث في حديث يعدّ من معجزات النبوّة. قال عليه الصلاة والسلام: " ما بين النفختين أربعون سنة، ثم يُنزلُ اللهُ من السماء ماءً، فينبتون كما ينبتُ البقل، إلا عظماً واحداً هو عَجْبُ الذنَب، ومنه يُركّبُ الخلقُ يوم القيامة " [رواه البخاري ومسلم] . وفي رواية أخرى: " كلُّ بني آدم يأكله الترابُ إلا عَجْبَ الذنَبِ منه خُلق ومنه يُركّب".
- عجْبُ الذنب هو الجزء الأخير من العمود الفقري لدى الإنسان (عظمة العصعص) . أثبت العلم الحديث أنّ أجزاء الجنين تبدأ بالتكوّن من هذا الجزء. يقول علماء الأجنّة: " إنّ الجنين ينبثق في الأيام الأولى من تكوينه، منْ شريط يسمى الشريط الأوّلي [Primitive Streak] . هذا الشريط يضمر في الأسبوع الثالث من عمر الجنين ويصبح مُركزاً في عجب الذنب ". مَنْ أخبر محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الحقيقة حين قال: " منه خلق ومنه يُركب"؟!!.
- يبيّنُ لنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث أنّ الله تعالى إذا أراد بعث الناس من قبورهم يوم القيامة، ينزلُ من السماء مطراً

خاصّاً، فينبتُ كلُّ مخلوق (مِنْ عجْبِ ذنبهِ) كما تَنْبُتُ البقلةُ منْ بذرتها!! وتقترنُ كل روح بجسدها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ [التكوير ٧] . أي اقترنتْ كل روح بالجسد الخاص بها!!. وبهذا يُعاد الخلق مرة ثانية، كما بُدءَ أول مرة بقدرة الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٤].

ولك أنْ تتصوّر خروج الناس منْ قبورهم في ذلك اليوم المشهود! ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧﴾ [القمر ٧] . ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤﴾[ق ٤٤].

تصوّرْ مشهد تشقق الأرض عن هذه الخلائق التي لا يعلم عددها إلا الله تعالى. تصوّرْ نهوضهم من القبور التي تعاقب فيها الموتى عبر القرون والأزمان وأنا وأنت منهم، كما قال الشاعر :

رُبّ قبر قد صار قبراً مراراً ضاحكٍ منْ تزاحم الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفين في طويلِ الآجالِ والآماد

ويبقى سؤال: لماذا البعثُ يوم القيامة ؟.

والقرآن يُجيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل ٣٨، ٣٩].

ليبين مَنْ كان في الدنيا على حق، ومن كان على باطل !.

ليعلم الكافرون والمنافقون في كل زمان ومكان أنهم كانوا على خطأ.

كي يُجازى المسيءُ على إساءته، ويكافأ المحسنُ على إحسانه.

كثيرٌ من الذين ارتكبوا جرائم حرب ضد الأبرياء، لم تنلهم يدُ العدالة في الدنيا. هل من العدل أن تذهب جرائمهم أدراج الرياح ودون عقاب ؟ ألا يكونُ لهم يومٌ بعد الموت، يلقوْن فيه الجزاء على ما اقترفتْ أيديهم ؟!.

كذلك الأبرياء الذين ظُلموا وعُذبوا وذُبح أبناؤهم وانتهكتْ أعراضهم وهدّمتْ منازلهم وسُلبتْ أموالهم، ثم ماتوا ولم يُنصفوا. ألا يكونُ لهم يومٌ يُنْصفون ويُجزوْن فيه على صبرهم ؟!!.

بلى والله. . مَنْ ظـُلم في الدنيا أُنصف هناك، ومَنْ جار وظَلم في الدنيا عوقب هناك. ورحم الله القائل :

إلى ديّـان يـوم الـدين نمضـي وعنــد الله تجتمــعُ الخصــومُ

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحداثاً جساماً تمس بنية الكون، تقع قبل موعد النفختين، أي تقع والناس مازالوا أحياء على سطح الأرض يمارسون أعمالهم. من هذه الأحداث:

الزلزال العظيم، الذي أشارت إليه سورة الزلزلة وأوائل سورة الحج. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ ففي الآية: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ دليل على أن الإنسان موجود لحظة وقوع الزلزال يسأل: ما الأمر ؟ ماذا حدث ؟.

ويصاب الناس بالفزع والرعب الشديدين لدرجة أن المرضع تترك طفلها، والحامل تسقط ما في رحمها. !! قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج ١] .

وفي المجمل نستطيع أن نلخص المراحل التي تمر بها البشرية في رحلتها إلى العالم الآخر بمراحل ست :

- علامات الساعة الكبرى. ومنها طلوع الشمس من المغرب، وهذا يعني انعكاس دوران الأرض حول محورها ليصبح باتجاه عقارب الساعة. (أتجاه الدوران الحالي بعكس عقارب الساعة)
- الزلزال العظيم وتخريب منظومة الكون.
- النفخ في الصور (نفختان: نفخة الصعق ثم نفخة البعث) .
- الحشر وتجميع الخلائق على أرض محددة. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن ٩]
- الحساب وعرض الأعمال. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ [الزلزلة ٦]
- الجزاء وخاتمة المطاف. إما إلى الجنة وإما إلى النار ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ (الشورى ٧)

أسأل الله تعالى أن يرحمنا في ذلك اليوم العصيب.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ
وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

[69] And the earth will shine with the light of its Lord (Allâh, when He will come to judge among men): and the Book will be placed (open); and the Prophets and the witnesses will be brought forward; and it will be judged between them with truth, and they will not be wronged.

[69] Et la terre resplendira de la lumière de son Seigneur; le Livre sera déposé et on fera venir les prophètes et les témoins; on décidera parmi eux en toute équité et ils ne seront point lésés;

[69] Und das (Versammlungs-) Gelände wird erstrahlen im Lichte seines Herrn, und das Buch wird vorgelegt, und die Propheten und die Zeugen werden herbeigebracht; und es wird zwischen ihnen in Gerechtigkeit gerichtet werden, und sie sollen kein Unrecht erleiden.

(٦٩) ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ :

صنفان من الناس سوف يتم استدعاءهم من أجل الإدلاء بشهادتهم أمام محكمة العدل الإلهية: الأنبياء والشهداء. والله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى الشهادة فهو خير الشاهدين، ولكن الغرض هو إقامة الحجة على الناس.

والوقفة التالية عند الشهداء :

الشهداء جمع شهيد، والشهيد كما عرفه النبي ﷺ هو مَن قاتل في سبيل الله. ولما سألوه: أي القتال في سبيل الله؟

قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ".

ومعنى الشهيد: أن الله تعالى يَطلب منه في الدنيا أداء الشهادة على أن الإسلام هو الحق، فيشهد، فتكون شهادته بأنْ يُقتَل !!.

ولهذا قال العلماء: للشهيد شروط منها أن يكون المقتول مسلماً.

والشهداء أحياء ولكننا لا نشعر، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة ١٥٤].

وهم ليسوا أحياء فحسب، بل ويرزقون أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران ١٦٩] .

بل ويشعرون بالفرح: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [آل عمران ١٧٠] .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾ [الحديد ١٩] أشارت الكلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ إلى قرب الشهداء من الله!!.

ورد في الصحيحين: " أنَّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرحُ في الجنة حيث شاءتْ ".

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦ ﴾ [محمد ٤-٦] بشارة عظيمة من الله تعالى لهم.

وذكر لنا رسول الله ﷺ أن الشهيد يُمنح ستَّ خصال هي :

- عند أوّل قطرة من دمه، تُكفّر عنه كل خطيئة.
- يَرى مقعدَه من الجنة.
- يُزوّج من الحور العين.
- يَأمن منْ عذاب القبر.
- يَأمن منَ الفزع الأكبر.

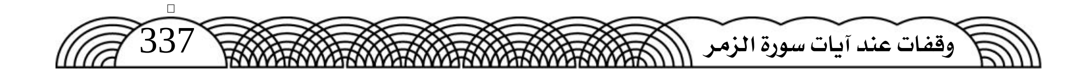
- يُحلـّى حُلة الإيمان.

والشهيد لا يُغسَّل ولا يُكفّن، بل يُدفن بدمائه وملابسه. أما الصلاةُ على الشهيد، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قد صلى على الشهداء، وثبت أنه لم يُصلّ على شهداء آخرين. فكلا الأمرين جائز.

ومن كرم الله عز وجل وعظيم هذا الدين، أنه وَسّع دائرة الشهادة لتشمل أنواعاً سبعة. لأنه عندما سَأل الرسولُ ﷺ أصحابَه وقال: " ما تَعدّونَ الشهيدَ فيكم ؟ قالوا: يا رسول الله، مَنْ قُتل في سبيل الله فهو شهيد. قال لهم: إنّ شهداءَ أمتي إذنْ قليل. قالوا: فمن هم يا رسول الله ؟ قال: المطعون شهيد (أي الذي يموت بسبب الطاعون) ، والغريق شهيد، والمبطون شهيد (أي الذي يموت بمرض البطن) ، وصاحب الحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة (أي التي تموت عند الولادة) ".

قال العلماء: المراد بشهادة هؤلاء أنهم يكون لهم في الآخرة ثواب الشهداء، أما في الدنيا فيغسّلون ويكفنون ويُصلى عليهم.

أسأل الله تعالى أن يبلغنا نُزُلَ الشهداء.



[70] And each person will be paid in full of what he did; and He is Best Aware of what they do.

[70] et chaque âme sera pleinement rétribuée pour ce qu'elle aura œuvré. Il (Allah) connaît mieux ce qu'ils font.

[70] Und jedem von ihnen wird voll vergolten werden, was er getan hat; und Er weiß am besten, was sie tun.

(٧٠) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾:

- يُنصب يوم القيامة ميزانُ عدل مطلق، بحيث لن يضيع أي عمل مهما صغر حتى لو كان بمقدار ذرة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾
- لن ينفع أحدٌ أحداً، ولا تملك نفسٌ لنفس شيئا: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار ١٩].
- المحكمة الإلهية في الآخرة قاضيها هو ربُّ العالمين سبحانه وتعالى، والبيّنات فيها ثلاث: شهادة الأنبياء، وشهادة الملائكة الذين كانوا يُدوّنون الأعمال، وشهادة أعضاء الجسم: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور ٢٤].
- تُنشر صحف الأعمال وتُوزّعُ على الناس. ويتسلم كل فرد كتاب أعماله التي عملها في الدنيا ليقرأه ويعرف ما فيه: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء ١٣، ١٤].

- يُناوَل كلٌّ فرد كتابَ أعماله إمّا بيمينه وإمّا بشماله. فإذا تسلّم المرء كتابه بيمينه، فسوف يفرح فرَحا شديدا ويقول بصوت عال أمام الجموع: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾ [الحاقة ١٩، ٢٠] . وإذا تسلّم كتابه بشماله أو وراء ظهره، فسوف يغتمّ غمّاً شديدا ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ [الحاقة ٢٥-٢٩]

أسأل الله تعالى أن يؤتينا كتب أعمالنا بأيماننا.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ
أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ
ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

[71] And those who disbelieved will be driven to Hell in groups till, when they reach it, the gates thereof will be opened (suddenly like a prison at the arrival of the prisoners). And its keepers will say, "Did not the Messengers come to you from yourselves, reciting to you the Verses of your Lord, and warning you of the Meeting of this Day of yours?" They will say: "Yes, but the Word of torment has been justified against the disbelievers!"

[71] Et ceux qui avaient mécru seront conduits par groupes à l'Enfer. Puis, quand ils y parviendront, ses portes s'ouvriront et ses gardiens leur diront: "Des messagers (choisis) parmi vous ne vous sont-ils pas venus, vous récitant les versets de votre Seigneur et vous avertissant de la rencontre de votre jour que voici?" Ils diront: si, mais le décret du châtiment s'est avéré juste contre les mécréants.

[71] "Und die Ungläubigen werden in Scharen zu Dschahannam geführt werden, bis daß, wenn sie sie erreichen, sich ihre Pforten öffnen und ihre Wächter zu ihnen sprechen: ""Sind nicht Gesandte aus eurer Mitte zu euch gekommen, um euch die Verse eures Herrn zu verlesen und euch vor dem Eintreffen dieses euren Tages zu warnen?"" Sie werden sagen: ""Ja!"" Doch das Strafurteil ist in Gerechtigkeit gegen die Ungläubigen fällig geworden.

(٧١) سيق: من الفعل ساق يسوق، أي قاد. ومنه السائق: مَن يقود الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق ٢١] ومنه المساق: أي المسير والانقياد كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة ٢٩، ٣٠] . وتُستعملُ لفظة (سيق) لكلا الفريقين الكافرين والمؤمنين. لكن شتّان ما بين الحالتين. فالمؤمنون يُساقون إلى الجنة سوْق إعزاز وتكريم، والكافرون يُساقون إلى النار سوْق إذلال ومهانة !!.

وفي قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ . لجهنم سبعة أبواب. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر ٤٣، ٤٤] . وتُفتَح هذه الأبواب بمجرد وصولهم إليها مثلما يُفتحُ بابُ السجن للمجرم حال وصوله إليه !!. وحينئذ ينهال عليهم التأنيب والتقريع :

- ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ [الملك ٨]
- ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١﴾ [الجاثية ٣١]

- ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ [المؤمنون ١٠٥]
- ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون ١٠٨]
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام ١٣٠]

وفوق هذا التأنيب يُقال لهم :

- ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ [السجدة ١٤]
- ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة ٢٠]
- ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران ١٨١]
- ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ ٣٠]
- ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾ [الطور ١٦]

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾

[72] It will be said (to them): "Enter you the gates of Hell, to abide therein. And (indeed) what an evil abode of the arrogant!"

[72] "Entrez, (leur) dira-t-on, par les portes de l'Enfer, pour y demeurer éternellement". Qu'il est mauvais le lieu de séjour des orgueilleux!

[72] ""Es wird gesprochen werden: ""Geht denn ein durch die Pforten der Dschahannam und bleibt darin auf ewig! Und übel ist die Wohnstatt der Hochmütigen.""

(٧٢) نعم ادخلوا ابواب جهنم، ووالله إنكم تستحقون: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر ٧٥] .

كنتم تسرحون على ظهر الارض وتمرحون، تستكبرون وتظلمون وكأنكم باقون إلى الأبد !

كنتم لا تستحيون ولا تخجلون من فعل المنكرات. نسيتم أن الله أوجدكم من العدم، وأسكنكم على ظهر هذا الكوكب (الأرض) ، ورحتم تتنعمون بنعمه وعطاياه، وأراد منكم أداء جملة أمور في إطار حياتكم، ولكنكم رفضتم واعتبرتم وجودكم على ظهر الأرض أشبه ما يكون بجلسة سمر أو نزهة ترويح عن النفس تأكلون وتلعبون، وكأن الأمر كله عبث وفوضى !!. فاليوم تجمعون كقطيع الخراف، ويُلقى بكم في نار جهنم جزاء ما اقترفتم من جرائم في الدنيا !!..

كلكم تُلقوْن في النار أنتم وكل مَن على شاكلتكم من المنافقين والظالمين والفاسقين والغاوين !! ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء ٩٤، ٩٥]

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

[73] And those who kept their duty to their Lord will be led to Paradise in groups, till, when they reach it, and its gates will be opened (before their arrival for their reception) and its keepers will say: Salâmun 'Alaikum (peace be upon you)! You have done well, so enter here to abide therein."

[73] Et ceux qui avaient craint leur Seigneur seront conduits par groupes au Paradis. Puis, quand ils y parviendront et que ses portes s'ouvriront ses gardiens leur diront: "Salut à vous! vous avez été bons: entrez donc, pour y demeurer éternellement".

[73] ""Und jene, die ihren Herrn fürchteten, werden in Scharen in das Paradies geführt werden, bis daß, wenn sie es erreichen, seine Pforten sich öffnen und seine Wächter zu ihnen sprechen: ""Friede sei auf euch! Seid glücklich und geht dort ein und weilt auf ewig darin.""

(٧٣) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾. وهذه مثل قوله تعالى:

- ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤﴾[الأحزاب ٤٤]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾[الفرقان ٧٥]
- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل ٣٢]
- ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد ٢٤] .

حقاً ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ : طابت أنفسكم، وطابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم، وطابت نياتكم ومقاصدكم. .

وسلام عليكم بما صبرتم في الدنيا !!

صبرتم على السجن والاعتقال والتعذيب، واعتقال أبناءكم وذويكم، وهدم بيوتكم، ومصادرة أراضيكم وأموالكم !!..

وصبرتم على التهجير والتشريد والإبعاد عن أوطانكم، والمنع من السفر وحرية التنقل، وحرية الكلام والتعبير !!..

وصبرتم على الحصار والجوع، والفقر والمرض، ونقص الأموال وموت الولد وفراق الأحبة !!..

وصبرتم على سخرية الظالمين والكافرين منكم، واستهزاءهم بكم والتهكّم عليكم !!.

وصبرتم على ألم الطاعة في العبادة، في الصوم والحج وقيام الليل.

وصبرتم على غض البصر، ومدافعة الشيطان والشهوات وأهواء النفس.

وصبرتم على أذى الناس ومداراة الآخرين وكظم الغيظ.

الآن ادخلوا هذه الجنة فهي مفتوحة الأبواب، ومعدّة ومهيئة لاستقبالكم مسبقا: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ص ٥٠].

إن جميع تلك الآلآم والمنغصات التي عانوْا منها وصبروا عليها في الدنيا، سوف ينسوْنها بمجرد وصولهم إلى أبواب الجنة.

يقول رسول الله ﷺ: " يُؤتى بأنعم أهل الدنيا مِنْ أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صَبغة (أي يُغمس غمسة) ثم يُقال له: هل رأيْتَ خيراً قط ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قط ؟.

فيقول: لا والله يا رب.

ويُؤتى بأشد الناس بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيُقال له: هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مرّ بك شدة قط ؟

فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدّة قط!!."

أما الكافرون فيُقالُ لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف ٢٠] .

أخذوا حظهم من المتع والملذات في الدنيا: أكلوا أشهى المأكولات، وناموا في أفخم الفنادق، ولعبوا على الشواطيء البلورية، وعاقروا الخمر والنساء، وركبوا متن الطائرات المجهزة بأفضل وسائل الراحة. .. أما اليوم فلا نصيب لهم إلا النار !!.

لا دارَ للمرءِ بعد الموتِ يسكنُها ‏ ‏ ‏ إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإنْ بناها بخير طابَ مَسْكنُهُ ‏ ‏ ‏ وإنْ بناها بشرّ خابَ بانيها

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾

[74] And they will say: "All the praises and thanks are to Allâh Who has fulfilled His Promise to us and has made us inherit (this) land. We can dwell in Paradise where we will; how excellent a reward for the (pious good) workers!"

[74] Et ils diront: "Louange à Allah qui nous a tenu Sa promesse et nous a fait hériter la terre! Nous allons nous installer dans le Paradis là où nous voulons". Que la récompense de ceux qui font le bien est excellente!

[74] ""Sie werden sagen: ""Alles Lob gebührt Allah, Der Seine Verheißung an uns erfüllt hat und uns die (Paradies-) Landschaft zum Erbe gegeben hat, so daß wir im Paradies wohnen können, wo immer es uns gefällt."" Wie schön ist also der Lohn derer, die (dafür) vorgesorgt haben.

(٧٤) الوقفة في هذه الآية عند كلمتين. الأولى: ﴿صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾.

والثانية: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ .

في قوله تعالى على لسان المتقين في الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ حقاً صدق الله وعده !! وعد بأن هناك بعثاً ونشوراً، وبأن هناك جنة وناراً.

والآيات التي ذكرت وعد الله تعالى وصدقه في تنفيذ الوعد كثيرة، منها:

- ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ [مريم ٦١]
- ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء ١٠٣]
- ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء ١٠٤]

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف ١٦]
- ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾ [الفرقان ١٦]
- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة ١١١]
- ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس ٤]

وأما الوقفة الثانية فعند قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ !.

هذه الكلمة عجيبة، مثيرة للدهشة، وملفتة للإنتباه !.

ومعنى ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي كأنّ أرض الجنة صارت من غيرهم إليهم فملكوها وتصرفوا بها. أي يرث أهل الجنة عن أهل النار مقاعدهم التي كانت مخصصة لهم في الجنة ـ لو آمنوا ـ.

ويرث أهل النار عن أهل الجنة مقاعدهم في النار التي كانوا سيدخلونها لو أنهم كفروا ولم يؤمنوا.

وحيث أنّ عدد الكافرين الذين سيدخلون النار كبير، فهذا يعني أن حصتهم التي تخلوا عنها في الجنة كبيرة، وبالتالي تصبح هذه الحصة من نصيب المؤمنين في الجنة.

وقد وُصفتْ الجنة بأنّ عرضها كعرض السماوات والأرض ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ (الحديد ٢١] في حين أن النار لم توصف بذلك، ومع هذا فأعداد الداخلين لها أعداد غفيرة: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ [ق ٣٠]

من هذه الآية الكريمة نستنبط أن جهنم ستكون مكتظة ومزدحمة بأصحابها. ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان ١٣].

الخلاصة: الأصل أن يدخل الجنة التي عرضها السماوات والأرض كل الناس، لأن الله تعالى يدعو دائماً إلى دار السلام ولا يريد لعباده الكفر، ولكن بسبب كفر الغالبية الساحقة منهم، باختيارهم هم، فقد حرموا من حصتهم المخصصة لهم في الجنة، فدخلوا النار.

كذلك كان هناك عدد من الكافرين مرشحين لدخول النار، لكنهم آمنوا في الدنيا قبل موتهم فنجوا، فقدّر الله لهم دخول الجنة مع المؤمنين.

والآيات التي تتحدث عن هذا الميراث كثيرة منها قوله تعالى :

- ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون ١١]
- ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف ٤٣].
- ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ [الشعراء ٨٥].

• ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف ٧٢].

أسأل الله تعالى أن يورثنا الفردوس الأعلى بفضله وكرمه.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

[75] And you will see the angels surrounding the Throne (of Allâh) from all round, glorifying the praises of their Lord (Allâh). And they (all the creatures) will be judged with truth. And it will be said, "All the praises and thanks are to Allâh, the Lord of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists)."

[75] Et tu verras les Anges faisant cercle autour du Trône, célébrant les louanges de leur Seigneur et Le glorifiant. Et il sera jugé entre eux en toute équité, et l'on dira: "Louange à Allah, Seigneur de l'univers".

[75] ""Und du wirst die Engel auf allen Seiten den Thron umgeben sehen, wo sie das Lob ihres Herrn preisen. Und es wird zwischen ihnen in Gerechtigkeit entschieden werden. Und es wird gesprochen werden: ""Alles Lob gebührt Allah, dem Herrn der Welten.""

(٧٥) سنقف في هذه الآية مرتين: مرّة عند (الملائكة) ، ومرة عند (حَمْدِ الله) .

أما الملائكة :

- هم رُسُلُ الله إلى الأنبياء أنزلوا معهم الكتب إليهم.
- خَلقهم اللهُ تعالى قبل البشر وقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة ٣٠]
- أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم، سجود تحية لا سجود عبادة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة ٣٤) .
- خُلقوا من أجل الطاعة الخالصة لله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم ٦]
- يظهرون أحياناً في صورة بشر، كما في قصة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم ١٧] .

- مكان إقامتهم السماء، ينزلون منها إلى الأرض بأمر من الله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم ٦٤]
- خلقهم الله تعالى ذوي أجنحة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [فاطر ١]
- لهم وظائف ومهامّ متعددة :
  - منهم مَنْ ينزل بالوحي على الرسل وهو جبريل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء ١٩٢ - ١٩٤]
  - ومنهم من يقبض الأرواح عند الموت: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة ١١].
  - ومنهم الموكل بالنفخ في الصور مرتين: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر ٦٨)
  - ومنهم من يحمل عرش الرحمن: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة ١٧].

- ومنهم المشرفون على استقبال وترحيب أهل الجنة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد ٢٣، ٢٤].
- ومنهم المشرفون على أهل النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم ٦] .
- ومنهم من يكتب ويُدوّن أعمال الإنسان في الدنيا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار ١٠، ١١].

وأخيراً نقف عند كلمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ :

هي أول كلمة افتتح الله بها الوجود: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، وهي آخر كلمة اختتم بها الوجود: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

والحمد لله هي رأس الشكر، وهي رداء الرحمن، وهي أفضل الدعاء. فالحمد لله في الأولى والآخرة.

- قال رسول الله ﷺ: " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ".
- قال آدم عليه السلام عندما عطس: الحمد لله.
- وقال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون ٢٨] .
- وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم ٣٩]
- وقال داود وسليمان عليهما السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل ١٥]
- وقال الله تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء ١١١]
- وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ﴾ [فاطر ٣٤]

وأنا أقول: الحمد لله الذي أعانني على إتمام هذا الكتاب بفضله وكرمه.

أحمدك ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً يليق بعظمتك وكبرياءك.

سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة بأهم المراجع

١. القرآن الكريم
٢. تفسير القرطبي
٣. تفسير الجلالين
٤. تفسير السعدي
٥. التفسير الواضح ـ د. محمد حجازي
٦. في ظلال القرآن ـ سيد قطب
٧. زبدة التفسير ـ د. محمد الأشقر
٨. رياض الصالحين ـ الإمام النووي
٩. منهاج الصالحين ـ عز الدين بليق
١٠. من وصايا الرسول ـ طه عفيفي
١١. المعجم الوسيط ـ إخراج مجموعة مؤلفين
١٢. قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار
١٣. وقاية الإنسان من الجن والشيطان ـ وحيد عبد السلام
١٤. المستطرف ـ الأبشيهي
١٥. الإنسان بين العلم والدين ـ شوقي أبو خليل
١٦. موسوعة المشاهدة العيانية [الكون] ـ د. عصام المياس
١٧. علوم الأرض والبيئة ـ مجموعة مؤلفين
١٨. ماذا بعد الموت ـ شاكر عبد الجبار
١٩. هندسة الزلازل والبيئة العمرانية ـ د. عادل عوض
٢٠. تعريف عام بدين الإسلام ـ علي الطنطاوي
٢١. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ـ إبن قيم الجوزية
٢٢. من بلاغة القرآن ـ د. أحمد بدوي
٢٣. الفوائد ـ إبن قيم الجوزية.

لمّا اجتاز موسى عليه السلام البحر مع قومه، وتبعهم فرعون، قال أصحابُ موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾. فردّ عليهم بثقة وطمأنينة: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء ٦٢].

ولّما هدّد فرعون السحرة الذين آمنوا، قالوا له بكل ثقة وطمأنينة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه ٧٢] .

ولّما سُجن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال بكل ثقة وطمأنينة كلمته المشهورة: " ماذا يصنعُ فيّ أعدائي ؟ إنّ جنتي وبستاني في صدري لا تفارقني، إنّ سجني خلوة، وإنّ قتلي شهادة، وإنّ نفيي سياحة، ولو أعطيْتُ الناسَ الذين سجنوني مقدار ملء هذه القلعة ذهباً، ما وفيتهم الحق الذي أعطاني الله إيّاه ".

ولّما وقع الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة في الأسر أثناء فتح بلاد الشام، جيء به إلى كسرى ملك الروم.

قال له الملـك: يـا عبـد الله هـل لـك أنْ تتنصّـر، فأقربـك مـني، وأزوجك ابنتي ؟.

فقال عبد الله: فإنْ لم أفعل ؟!.

قال الملك: ألآن ترى !.

وأمر به فصُلب، وأمر الرماة المهرة، فرموْه بسهمين قرب رأسه.

قال له الملك: ألا تجيبني فتنجو بنفسك ؟!.

فيجيبه عبد الله: فإنْ لم أفعل ؟!.

فيغضب الملك ويقول لعبد الله: ألآن ترى !.

ويأمر بقدْر تغلي فيه الماء، فيقذف فيه أحد الأسـرى، فـإذا لحمـه يتناثر، ثم يقترب من عبد الله ويكرر عليه السؤال: ألا تجيـبني فتنجـو بنفسك ؟!.

فيرد عليه عبد الله: فإنْ لم أفعل ؟!.

فيزداد الملك غضباً، ويأمر بقذفه داخل القدر. عندئـذ بكـى عبـد الله، وانفرجت أسارير الملك فرحاً، وأمر بوقف العقوبة.

وقال لعبد الله: أما كنتَ في غنى عن كل هذا لو أنـك أجبـتني إلى ما عرضتُهُ عليك ؟!.

فيردّ عليه عبد الله: " كأنّك أيها الملكُ حسـبتني بكيـتُ خوفـاً مـن الموت، لا والله ليس الأمر كما حسبتَ، ولكنني تذكرتُ أنْ لـيس لـي

إلا نفْسٌ واحدة أموت بها هذه الميتة في سبيل الله، وقد كنتُ أتمنى لو أنّ لي ألف نفس تموتُ هذه الميتة في سبيل الله. فذلك ما أبكاني ".

دُهش الملك من شجاعة عبد الله بن حذافة وأطلق سراحه مع ثمانين أسيراً من المسلمين !. ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران ١٧٤].

كـانوا لا يخشـوْن أحـداً إلا الله، ولا يخـافون في الله لومـة لائـم. مُلئتْ قلوبهم ثقة بالله ومحبة ويقينا.

والله أكرمُ مولـىً أنـتَ آملـه يوماً وأعظمُ مَنْ يُعطي ومن يُسَل

وقال آخر:

كم عسرة ضاق الفتى لنزولها لله فـي أعطافـها ألطـافُ

وقال آخر:

وما نال عبدٌ قـطّ فضلاً بقوّةٍ ولكنّـه مـن الإلـه وفضلـهِ

وقال آخر:

ولا ترجُ غير الله في كل حالـة فمنهُ العطا والمنعُ والنفـعُ والضُّـرُّ

وقال آخر:

وإذا العنايةُ لاحظتْكَ عيونُها نَمْ فالمخاوفُ كلّهنّ أمانُ

وقال آخر:

يا صاحب الهمّ إنّ الهمّ منفرجٌ	أبشـــرْ بخـير فـإنّ الفــارجَ اللهُ
اليأسُ يقطعُ أحيانـاً بصاحبـه	لا تيْأســـنّ فـــإنّ الكافـــي اللهُ
إذا بُليتَ فثقْ بـالله وارضَ بـه	إنّ الذي يكشفُ البلـوى هـو اللهُ
والله ما لك غير الله منْ أحـد	فحسْـبُك الله فــي كـلّ ٍ لـك الله

أسأل الله تعالى أنْ يرزقنا الثقة واليقين به.

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

[37] And whomsoever Allâh guides, for him there will be no misleader. Is not Allâh All-Mighty, Possessor of Retribution?

[37] Quiconque Allah guide, nul ne peut l'égarer. Allah n'est-Il pas Puissant et Détenteur du pouvoir de châtier?

[37] Und für einen, den Allah rechtleitet, gibt es keinen, der ihn irreführen könnte. Ist Allah nicht Erhaben und Mächtig, um Vergeltung zu nehmen?

(٣٧) الوقفة هنا عند : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ وهذا مثل قوله تعالى :

- ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [إبراهيم ٤٧]
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة ٩٥]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾[آل عمران ٤]
- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾[الأعراف ١٣٦]
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم ٤٧]

وفيما يلي بعض الأمثلة على انتقام الله تعالى من المكذبين، على مستوى الشعوب والأفراد في الماضي والحاضر :

٨. الانتقام من قوم نوح بالطوفان: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف ٦٤]

٩. الانتقام من عاد قوم هود بالإعصار المدمّر: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾[القمر ١٩، ٢٠]

١٠. الانتقام من ثمود قوم صالح بالصيحة: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾ [هود ٦٧]

١١. الانتقام من قوم لوط: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾ [الأعراف ٨٤]

١٢. الانتقام من أهل مدين قوم شُعيب بالرجفة: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الأعراف ٩١]

١٣. الانتقام من فرعون وجنوده بإغراقهم في البحر:﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾[القصص ٤٠]

١٤. الانتقام من قارون بأنْ خسف الله به وبداره الأرض: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾[القصص ٨١]

وفي عهد النبي ﷺ، لم ينتقم الله من قومه كما حدث للأقوام السابقة، وإنما انتقم من بعض الأفراد الذين أمعنوا في إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام والتطاول عليه. انتقم الله منهم في الحال بمجرد أن دعا عليهم رسول الله. ومن هؤلاء الأشخاص :

- الأسود بن المطلب بن أسد (أعمى الله بصره في الحال) .
- الأسود بن عبد يغوث (مات من انتفاخ في بطنه) .
- الوليد بن المغيرة (مات من أثر جرح في رجله) .
- العاص بن وائل (قتلته شوكة دخلت في أخمص قدمه) .
- الحارث بن الطلاطلة (امتخض رأسُهُ قيحاً فمات) .
- عتبة بن أبي لهب (تمادى في إيذاء النبي ﷺ، فدعا عليه النبي وقال: "اللهم سلط عليه كلبا من كلابك". فسلط الله عليه أسداً فغر رأسه فمات في الحال، وكان في رحلة إلى الشام) .
- عبد الله بن قمئة (ضرب النبي ﷺ بحجر يوم أحد فشجه في وجهه وكسر رباعيته، فدعا عليه النبي وهو يمسح الدم عن وجهه. فسلط الله عليه تيساً ظل ينطحه بقرنيه حتى ألقاه من فوق الجبل صريعاً) .

- أربد بن قيس (تجرأ على رسول الله ﷺ، فدعا عليه الرسول، فأرسل الله تعالى عليه صاعقة فأحرقته) .
- كسرى عظيم الفرس (مزّق خطاب النبي ﷺ الذي أرسله إليه يدعوه إلى الإسلام، فدعا عليه النبي قائلاً: " اللهم مزّقْ مُلكَه"، فانتقم الله منه بأنْ مزّق دولته وجعلها غنيمة للمسلمين، ثم سلط الله عليه ابنَه ويدعى شيرويه فقتله).
- ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه أنّ أحد الكفرة وقف أمام قومه يخطب فيهم وينتقص من شأن النبي عليه الصلاة والسلام، وكان بجانبه كلب مربوط، فلما بالغ في الانتقاص، وثب عليه الكلب وخمشه في وجهه، فأبعدوه عنه. فقال له أحد الحضور: هذا بسبب كلامك في محمد !. قال: لا. ثم عاد إلى انتقاص النبي من جديد بل وأكثر. عندها هجم عليه الكلب مرة أخرى، فنهش زردمته فقلعها، فمات من حينه !.

وأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفاً من قومه !!.

وفي العصر الحديث هناك أمثلة كثيرة جداً على انتقام الله تعالى سواء من الأفراد أو من الشعوب، وأكتفي بذكر مثال أو مثالين :

- في حديقة (هايد بارك) في لندن حيث يلتقي الخطباء والمتحدثون، وقف أحد الدعاة المسلمين وتحدث عن الإسلام، فانبرى له رجل بريطاني من غير المسلمين وصار يقاطع الداعية المسلم ويشوش عليه، ثم تمادى أكثر، فأخذ يسبّ الله عز وجل ويسب النبي ﷺ، فلم يمهله الله طرفة عين، وإذا به يخرّ في الحال على وجهه صريعاً!.
- الانتقام من ولاية لويزيانا الأمريكية، حيث سلط الله عليها إعصارا مدمّرا (إعصار كاترينا) الذي ضرب مدينة(نيوأورليانز) يوم الإثنين ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٥، فدمّرها عن بكرة أبيها، وقُدّرتْ الخسائر بقيمة ٢٥٠ مليار دولار !!.

واعلم أنّ كل مَنْ يسيء إلى هذا الدين، أو يؤذي مؤمنا في نفسه أو أهله أو ماله ولم يتبْ، فسوف ينتقم اللهُ منه عاجلا أم آجلا.

أسأل الله تعالى أن ينزل في الكافرين والظالمين بأسه الذي لا يُرد.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

[38] And verily, if you ask them: "Who created the heavens and the earth?" Surely, they will say: "Allâh (has created them)." Say: "Tell me then, the things that you invoke besides Allâh - if Allâh intended some harm for me, could they remove His harm? Or if He (Allâh) intended some mercy for me, could they withhold His Mercy?" Say: "Sufficient for me is Allâh; in Him those who trust (i.e. believers) must put their trust."

[38] Si tu leur demandais: "Qui a créé les cieux et la terre?", Ils diraient assurément: "Allah". Dis: "Voyez-vous ceux que vous invoquez en dehors d'Allah; si Allah me voulait du mal, est-ce que (ces divinités) pourraient dissiper Son mal? Ou s'Il me voulait une miséricorde, pourraient-elles retenir Sa miséricorde?" - Dis: "Allah me suffit: c'est en Lui que placent leur confiance ceux qui cherchent un appui".

[38] "Und wenn du sie fragst: ""Wer schuf die Himmel und die Erde?"", so werden sie sicher sagen: ""Allah."" Sprich: ""Seht ihr denn, was ihr außer Allah anruft? Wenn Allah mir Schaden zufügen will, können sie (dann) den Schaden entfernen? Oder wenn Er mir Barmherzigkeit erweisen will, können sie (dann) Seine Barmherzigkeit verhindern?"" Sprich: ""Allah genügt mir. Auf Ihn vertrauen die Vertrauenden.""

(٣٨) ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

والتوكل على الله تعالى هو نبع الثقة واليقين وأساس الطمأنينة ونصف الدين. وقد وردت آيات التوكل في مواضع كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى:

- ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم ١١]
- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال ٢]
- ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق ٣]
- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود ١٢٣] .

وفي اللغة، معنى توكل عليه: إستسلم له.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: " التوكل هو الثقة بالله "

وقال الإمام أحمد: " التوكل هو تفويض الأمر إلى الله "

وقال ابن حجر: "التوكل هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب".

وقيل: التوكل هو الجمع بين العمل والأمل مع هدوء القلب وطمأنينة النفس.

ورحم الله الشاعر الذي قال :

توكلْ على الرحمن في الأمر كله فما خاب حقاً مَنْ عليه توكلا

وقال آخر:

وكن واثقاً بالله في كل حالـة فليس سواه مَن يضرُ وينفعُ

وقال آخر :

سَلِّـمِ الأمـرَ إلى رب البشرْ واتركِ الهمَّ ودَعْ عنك الفِكَرْ

وقال آخر :

واشْدُدْ يديك بحبل الله معتصماً فإنهُ الركْنُ إنْ خانتْكَ أركانُ

وقال آخر :

ولا تجزعْ إذا مـا ناب هـمٌّ فكم يتلو الأسـى فَرَجٌ قريبُ

واعلم ـ أخي القاريء ـ أن توكل المرء لن يتحقق إلا بأمرين هما:

- حُسْن الظن بالله تعالى.
- التفويض. أي تفويض الأمر إلى الله بعد الأخذ بالأسباب. قال تعالى على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون:

﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ ﴾ [غافر ٤٤].

واعلم كذلك أن التوكل شرط من شروط الإيمان. قال تعالى:

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ (المائدة ٢٣]
- ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾[يونس ٨٤]
- ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة ٥١] .

كذلك اقترن التوكل بالتقوى كقوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[الطلاق ٢-٣].

كذلك اقترن التوكل بالصبر كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾ [النحل ٤٢] . وقوله تعالى: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ

عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[إبراهيم ١٢] .

ولهذا قالوا: "الصبر والتوكل من أقوى الأسلحة في مواجهة الشدائد والصعاب".

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتوكلين.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩)﴾

[39] Say: (O Muhammad (peace be upon him)) "O My people! Work according to your way, I am working (according to my way). Then you will come to know,

[39] Dis: "O mon peuple, agissez selon votre méthode, moi j'agirai (selon la mienne). Bientôt vous saurez

[39] ""Sprich: ""O mein Volk, handelt eurem Standpunkt gemäß, (auch) ich werde (entsprechend) handeln; (bald aber) werdet ihr erfahren,

(٣٩) هذه الآية والآية التي تليها تذكر العذاب. وقد وقفنا عند العذاب في الآيتين ٢٤، ٥٠ راجعهما.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

[40] "To whom comes a disgracing torment, and on whom descends an everlasting torment."

[40] sur qui s'abattra un châtiment qui l'avilira; et sur qui se justifiera un châtiment durable".

[40] ""über wen eine Strafe kommt, die ihn schänden wird, und auf wen eine ewige Strafe niederfährt.""

(٤٠) راجع الآيتين ٢٤، ٥٠ من هذه السورة.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾

[41] Verily, We have sent down to you (O Muhammad (peace be upon him)) the Book (this Qur'ân) for mankind in truth. So whosoever accepts the guidance, it is only for his own self, and whosoever goes astray, he goes astray only for his (own) loss. And you (O Muhammad (peace be upon him)) are not a Wakîl (trustee or disposer of affairs, or guardian) over them.

[41] Nous t'avons fait descendre le Livre, pour les hommes, en toute vérité. Quiconque se guide (le fait) pour son propre bien; et quiconque s'égare, s'égare à son détriment. Tu n'es nullement responsable (de leurs propres affaires).

[41] "Wahrlich, Wir haben dir das Buch mit der Wahrheit für die Menschen herabgesandt. Wer dann rechtgeleitet ist, der ist es zu seinem eigenen Besten; und wer irregeht, der geht dann irre zu seinem (eigenen) Schaden. Und du bist nicht ihr Sachwalter.

(٤١) الوقفة هنا عند قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾. وهذا مثل قوله تعالى:

- ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾[الأنعام ١٠٤].
- ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾[فصلت ٤٦]

- ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام ١٦٤]

لا يستطيع أحدٌ أنْ ينفع أحداً أبداً، ولا تملك نفسٌ لنفس شيئاً. والذي يهتدي إنما يهتدي لنفسه هو، وهو الرابح. وإذا ضلّ فإنما يضل عليها، وهو في ذلك الخاسر. والمسؤولية فردية فلا يتحمل شخصٌ وزر شخص آخر، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر ١٨] . أي إنْ تدعُ نفسٌ مثقلة بالذنوب نفساً أخرى لتحملَ عنها بعض الذنوب التي تحملها، لمْ تحملْ تلك النفسُ المدعوّة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانتْ قريبة لها في النسب !! حتى لو كانتْ أخاً أو أباً أو أماً. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس ٣٧] . ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج ١٠] .

لن يفتديَ أحدٌ بأحد. كلُّ واحد محاسب على ما كسبتْ يداه هو. فالتبعة والمسؤولية فردية. وفي ذلك حكمة: هي أنّ المرء يشعر

بالطمأنينة حين يعلم أنّه لا يُؤاخَذ بجريرة غيره ! وهذا من عدل الله تعالى.

في بعض البلاد مع الأسف، إذا كان الشخص متهماً، ولم يُعثر عليه، ألقي القبض على أحد أقرباءه كرهينة !.

ما ذنب هذه الرهينة ؟ هذا عين الظلم. لا يجوز أنْ يؤخذ شخصٌ بجريرة غيره ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف ٧٩].

من هنا فإنّ الله تعالى لا يحاسب الناس يوم القيامة جملة واحدة. إنما يحاسبهم فرداً فرداً، كُلاً حسب عمله !!. ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم ٩٤، ٩٥] .

﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل ١١١].

إنّ هذا المفهوم (أي أن المرء لا يُحاسب بذنب غيره) لا يعني أنْ يمتنع الفرد من نُصح الآخرين وإصلاحهم. بل عليه نصحهم ودعوتهم إلى الله، لأن هذا سيكون في صالحه يوم القيامة.

صحيح أنّ الأب لا يحملُ وزر أبناءه وزوجه يوم القيامة إنْ هم أساءوا، ولكنّه يحملُ وزر تقصيره في نُصْحِهم وتوجيههم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر في الدنيا. أما بعد ذلك، إنْ هم أساءوا فلا يُؤآخذ هذا الأب بسبب إساءتهم.

من هنا لو أساء كل الناس، وأصلحتَ أنت، فلا تُؤآخذ بإساءتهم. كذلك لو صلح كل الناس وأسأتَ أنت، فلن ينفعَك صلاحُ الناس أبداً ولذلك كان أسوأ شخص على وجه الأرض هو منْ باع آخرته بدنيا غيره !!

واطمئن ! لن يُظلمَ أحدٌ في ذلك اليوم: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء ٤٧] . ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر ١٧].

أسأل الله تعالى أن يرحمنا في ذلك اليوم العصيب.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

[42] It is Allâh Who takes away the souls at the time of their death, and those that die not during their sleep. He keeps those (souls) for which He has ordained death and sends the rest for a term appointed. Verily, in this are signs for a people who think deeply.

[42] Allah reçoit les âmes au moment de leur mort ainsi que celles qui ne meurent pas au cours de leur sommeil. Il retient celles à qui Il a décrété la mort, tandis qu'Il renvoie les autres jusqu'à un terme fixé. Il y a certainement là des preuves pour des gens qui réfléchissent.

[42] Allah nimmt die Seelen (der Menschen) zur Zeit ihres Sterbens (zu Sich) und (auch die Seelen) derer, die nicht gestorben sind, wenn sie schlafen. Dann hält Er die zurück, über die Er den Tod verhängt hat, und schickt die anderen (wieder) bis zu einer bestimmten Frist (ins Leben zurück). Hierin sind sicher Zeichen für Leute, die nachdenken.

(٤٢) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾:

الله سبحانه هو الذي يقبض الأنفس عند الموت، أي التي جاء أجلها، وكذلك يقبض الأنفس التي لم تمت، يقبضها أثناء النوم ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. فأما الأنفس التي حان أجلها، فإن

الله تعالى يمسكها ولا يعيدها إلى الأبدان، وأما الأنفس النائمة، فيوقظها ويعيد إليها الإحساس ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

نفهم من هذه الآية الكريمة أن الميت والنائم يشتركان في حالة واحدة وهي قبض روحيْهما، إلا أن الفرق بينهما هو أن الميت تقبض روحه فلا تعود إلى جسده، وأما الشخص النائم، تُعاد إليه روحه ويصحو ليمارس حياته كالمعتاد إلى أجل مسمى، أي إلى أن يحين أجله!!.. ولهذا كان الرسول ﷺ حين يستيقظ من نومه يدعو ويقول: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" وكان يقول إذا أخذ مضجعه: "باسمك اللهم أموت وأحيا".

من هنا نستنتج أن النوم هو أخو الموت !. والخروج من القبر يوم البعث شبيه بالاستيقاظ من النوم. قال رسول الله ﷺ: "والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتبعثُـنّ كما تستيقظون".

ولنقف ـ أخي القاريء ـ قليلاً عند النوم.

مما لا شك فيه أن النوم آية عجيبة من آيات الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم ٢٣] ○. والنوم كذلك نعمة عظيمة من نعم الله تعالى. ولا يعرف قيمة هذه النعمة إلا مَن أرّقه

السهر وتقلب على فراش من جمر!!. فالنوم له وظيفة شافية للدماغ، وفيه سكن وراحة للجسم كله. يقول الله تعالى:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾ [النمل ٨٦]
- ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)﴾ [النبأ ٩]
- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان ٤٧]

ومعنى سباتا: أي راحة للأبدان، والنوم سبات لأن فيه تمدداً، وفي التمدد معنى الراحة.

وعلى الرغم مما أنجزه العلماء حول النوم، إلا أن أسراره لا تزال غامضة إلى حد ما. والأمر الذي أكده العلم الحديث حول النوم هو أن في وسط الدماغ غدة يطلق عليها اسم (Pineal Gland) .

هذه الغدة تفرز مادة كيماوية باعثة على النوم تسمى (الميلاتونين) أو هرمون النوم. فعندما يخيم الظلام تنشط هذه الغدة فيشعر المرء بالنعاس، وعندما يحين وقت الاستيقاظ من النوم، توقف الغدة إفراز الهرمون وتأخذ أجفان العينين بالإنفتاح. أي إن هذه الغدة هي التي تضبط وقت النوم ووقت الاستيقاظ بأمر الله ومشيئته !!. قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ

يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ [الأنعام ٦٠] ومعنى يتوفاكم بالليل: أي ينيمكم فيه. ومعنى يبعثكم فيه: أي يبعثكم في النهار بأن يجعلكم تستيقظون من نومكم.

ولقد أثبتت التجارب التي أجراها العلماء حول النوم أن أعراض الحرمان من النوم هي:

- انخفاض القدرة على التركيز والتفكير.
- كثرة النسيان
- زوغان البصر
- تهيج عصبي وهلوسة.

وإذا زادت مدة الحرمان من النوم عن خمسة أيام، فإن ذلك يؤدي إلى حالات من الهوس العقلي ونوبات من الصرع !!.

وقد قام أطباء بعلاج كثير من الأمراض الباطنية والعصبية بواسطة النوم، حتى أنه أقيمت في بعض الدول عيادات خاصة للنوم لمعالجة حالات القلق والأرق.

من هنا ندرك حكمة النعاس الذي غشي الجنود المسلمين قبيل معركة بدر. قال تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ [الأنفال ١١] ومعنى أمنة: أي طمأنينة وأماناً.

فالحمد لله على نعمة النوم.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

[43] Have they taken (others) as intercessors besides Allâh? Say: "Even if they have power over nothing whatever and have no intelligence?"

[43] Ont-ils adopté, en dehors d'Allah, des intercesseurs? Dis: "Quoi! Même s'ils ne détiennent rien et sont dépourvus de raison?

[43] "Oder haben sie etwa statt Allah Fürsprecher genommen? Sprich: ""Selbst wenn sie keine Macht über irgend etwas besitzen und keinen Verstand?""

(٤٣) راجع الآية التالية.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[44] Say: "To Allâh belongs all intercession. His is the Sovereignty of the heavens and the earth. Then to Him you shall be brought back."

[44] Dis: "L'intercession toute entière appartient à Allah. A Lui la royauté des cieux et de la terre. Puis c'est vers Lui que vous serez ramenés".

[44] ""Sprich: ""Alle Fürsprache gehört Allah. Sein ist das Königreich der Himmel und der Erde. Und zu Ihm werdet ihr zurückgebracht.""

(٤٤) الوقفة في هذه الآية عند (الشفاعة) :

الشفاعة من الفعل (شَفَعَ): أي توسّل. نقول: شفع إلى فلان. أي توسّل إليه بوسيلة. وشفع في الأمر: أي كان شفيعاً فيه. واستشفع: أي طلب الناصر والشفيع. وشفعاء جمع شفيع. والشفيعُ يوم القيامة مَنْ يشفع لشخص ما عند الله كي يعفو عنه.

وهذه الشفاعة هي لله وحده، ولا تتحقق إلا بإذنه، فيقبلها أو يردّها ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾﴾[طه ١٠٩]

فإذا أراد اللهُ سبحانه وتعالى العفو عن عبد من عباده، فإنّه يُكرم رسولاً من رسله (محمداً ﷺ) ويجعله سبباً لهذا العفو، فيأذن له بالشفاعة لذاك العبد. من هنا فإنّ الشفاعة الممنوحة للنبي ﷺ هي تكريمٌ وعطاءٌ من الله تعالى. ففي يوم الحساب يتقدّم محمدٌ ﷺ سائلاً الله تعالى أنْ يقضي بين عباده ليستريحوا من عناء الموقف وشدّة أهواله. فيُعطى تلك الشفاعة.

واعلم أنّه لا يستحق شفاعة النبي أيّ شخص ! إنّما يستحقّها فقط مَنْ آمن بالله ربّاً ولم يُشرك به شيئاً. مثل هذا الشخص هو مَنْ يفوز بشفاعة النبي. قال ﷺ: " أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَنْ قال: لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه "[رواه البخاري].

أي لا يكفي أنْ يقول (لا إله إلا الله) بلسانه فقط، بل لا بدّ أنْ يترجم معناها على أرض الواقع.

وبفضل شفاعة محمد ﷺ، يخرجُ قومٌ من النار ويدخلون الجنّة، ويُدعوْن الجهنميين. قال رسول الله ﷺ: " يخرجُ قومٌ من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يُسمّوْن الجهنميين ".

ومن فضل الله تعالى وكرمه، أنّه سبحانه يمنحُ الشفاعة أيضاً للعلماء والشهداء. بل إنّ القرآن والصيام يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي ربّ، إني أظمأتُ نهاره فشفّعني فيه. ويقولُ القرآنُ: أي ربّ، إني أسهرتُ ليلهُ فشفّعني فيه، فيشفعان.

كذلك من دعا عقب الأذان، حلّتْ له شفاعة النبي محمّد، كما قال عليه الصلاة والسلام: " مَنْ قال حين يسمعُ النداء (أي ألأذان): "اللهم ربّ هذه الدعوة التامّة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّتْ له شفاعتي يوم القيامة " [رواه البخاري].

أسأل الله تعالى أنْ يكرمنا بشفاعة النبي يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[45] And when Allâh Alone is mentioned, the hearts of those who believe not in the Hereafter are filled with disgust (from the Oneness of Allâh) and when those (whom they obey or worship) besides Him (like all false deities other than Allâh, - it may be a Messenger, an angel, a pious man, a jinni, or any other creature even idols, graves of religious people, saints, priests, monks and others.) are mentioned, behold, they rejoice!

[45] Et quand Allah est mentionné seul (sans associés), les cœurs de ceux qui ne croient pas en l'au-delà se crispent et quand on mentionne ceux qui sont en dehors de Lui, voilà qu'ils se réjouissent.

[45] "Und wenn Allah als Einziger genannt wird, dann krampfen sich die Herzen derer, die nicht an das Jenseits glauben, in Widerwillen zusammen; werden aber die genannt, die statt Ihm (verehrt werden), siehe, dann beginnen sie zu frohlocken.

(٤٥) ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: من الفعل (شَمَزَ) أي انقبض ونفر. وتشمّز وجهُهُ أي تغيّر واربدّ. والاشمئزاز: هوالنفور من الشيء مع الكراهية !!.

وهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة تشمئزّ قلوبهم حين يُذكرُ اسمُ الله تعالى ! أو حين يأتي ذكرُ الآخرة على مسامعهم. فهم لا يُطيقون سماع كلمة التوحيد، بل لا يطيق الواحد منهم أنْ يُقال له: (اتق

الله)! ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[البقرة ٢٠٦] . وهذا مثل قوله تعالى :

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الإسراء ٤١].
- ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء ٤٦]
- ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾[نوح ٧].

وبالرغم من أننا لا نلحظُ هذا الاشمئزاز، لكونه يحدث داخل القلب، إلا أنه ينعكس أحياناً على قسمات وجوههم ولغة عيونهم بعلامات من الضيق والامتعاض !. كما قال ابن قيّم الجوزية :

" العيونُ مغاريفُ القلوب، بها يُعرَف ما في القلوب وإنْ لمْ يتكلم صاحبها ". وكما قال الشاعر :

إنّ العيون لتبدي في نواظرهـا ما في القلوب من البغضاء والإحَـن

ولولا أنّ الله تعالى العليمَ بما في النفوس، فضح أساريرهم وأطلعنا على هذه الحقيقة لما علمنا بها.

هذه القلوب مثلما كانت تشمئز من ذكر الله تعالى في الدنيا، سوف تكون يوم القيامة واجفة خائفة، بحيث ينعكس هذا الخوف على أبصار أصحابها بالذل والانكسار﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾ [النازعات ٨، ٩] . فالجزاء من جنس العمل، وكما تدين تُدان.

أسأل الله تعالى أنْ يحيي قلوبنا بذكره.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

[46] Say (O Muhammad (peace be upon him)) "O Allâh! Creator of the heavens and the earth! All-Knower of the Ghaib (Unseen) and the seen. You will judge between your slaves about that wherein they used to differ."

[46] Dis: "O Allah, Créateur des cieux et de la terre, Connaisseur de tout ce que le monde ignore comme de ce qu'il perçoit, c'est Toi qui jugeras entre Tes serviteurs ce sur quoi ils divergeaient".

[46] "Sprich: ""O Allah! Schöpfer der Himmel und der Erde! Kenner des Verborgenen und des Offenbaren! Du allein wirst zwischen Deinen Dienern richten über das, worüber sie uneins waren.""

(٤٦) الوقفة في هذه الآية عند ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

في القرآن الكريم عدد كبير من الآيات التي تدل على أن الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة :

- ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام ٥٩]
- ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾[يونس ٢٠]
- ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾[السجدة ٦]

- ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ [سبأ ٣]
- ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجن ٢٦]
- ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التوبة ٧٨]

وكلمة (الغيب) في اللغة: ما غاب عن الإنسان. نقول غابت الشمس، وغاب الرجل. والغابة سُميتْ بذلك لأنها يُغاب فيها !. والغيبة سميت بذلك لأنها تُقال في غيبة الإنسان. وقالوا: الغيْبُ ما غاب عن الحواس.

وعالَـم الموجودات نوعان: عالم الغيب، وعالم الشهادة (أي المحسوسات). وكل ما أدركه الحِسّ مباشرة، أو بواسطة الوسائل العلمية فهو مِنْ عالم الشهادة. وكل ما لم يقع تحت الحواس، فهو من عالم الغيب. لذلك تحتاج الأمور الغيبية إلى الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة ٣] . يؤمنون بالغيب: أي يؤمنون بما غاب عنهم من الأمور، كالجنة والنار والحشر والحساب.

هذه الغيبيات عندما يراها الناس بأعيُنهم يوم القيامة، يصبح الإيمان بها لا قيمة له، لأن مكان الإيمان كان في الدنيا، يوم كانت هذه الأشياء غيباً. قال تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [السجدة ٢٩] ويوم الفتح هو يوم القيامة.

من هنا سوف يفاجأ الكافرون برؤية النار يوم القيامة، وحينئذ يعلنون إيمانهم، بل يقينهم بأن النار حق: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة ١٢] . لكن لا قيمة لإيمانهم ويقينهم في تلك اللحظة، لأن موضع الإيمان واليقين كان في الدنيا، والآن لا وجود لهذه الدنيا. ولذلك يطلبون الرجوع إلى الدنيا كي يؤمنوا!! ولكن هيهات فقد فات الأوان وانقضت الدنيا.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

[47] And those who did wrong (the polytheists and disbelievers in the Oneness of Allâh), if they had all that is in earth and therewith as much again, they verily, would offer it to ransom;and there will become apparent to them from Allâh what they had not been reckoning.

[47] Si les injustes possédaient tout ce qui se trouve sur la terre, - et autant encore -, ils l'offriraient comme rançon pour échapper au pire châtiment le Jour de la Résurrection; et leur apparaîtra, de la part d'Allah, ce qu'ils n'avaient jamais imaginé;

[47] "Besäßen diejenigen, die gefrevelt haben, auch alles, was auf Erden ist, und noch einmal soviel dazu, würden sie sich gewiß damit von der schlimmen Strafe am Tage der Auferstehung loskaufen wollen; aber es wird ihnen von Allah das erscheinen, mit dem sie nimmermehr gerechnet haben.

(٤٧) هذه مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [آل عمران ٩١]

لا ينقذه ولا ينجيه من عذاب الله شيء، حتى لو أنفق أعز ما كان يملك ! وحتى لو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، أي بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها !.

سبحان الله ! مستعدٌ أنْ يقدّم ملء الأرض ذهباً من أجل أنْ ينجو من عذاب الله يوم القيامة !؟. نعم، ملء الأرض ذهباً ! وهو الذي كان في الدنيا يبخل بالقرش والدينار في سبيل الله ! وكان يَحرم الفقراء والمحتاجين، وكان يمنع الزكاة !. كان يلعب بالملايين، وإذا طُلب منه أنْ يدفع شيئاً في وجوه البر، أبى واستكبر. أمّا اليوم فهو يتمنّى لو يدفع وزن الأرض ذهباً من أجل النجاة منْ هول العذاب!! بل يتمنّى لو يقدّم أبناءه وزوجه وعشيرته وأعزّ الناس إليه، وكل مَنْ على الأرض فداءً، مقابل النجاة والخلاص :

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج ١١- ١٤]

قال النبي ﷺ: " يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: أي رب نعم، فيقول الله: كذبتَ، قد أردتُ منك أهون من ذلك فلم تفعل، فيرد إلى النار."

والأعجب من ذلك، أنّ هذا الذهب وتلك الأموال التي يتمنّوْن تقديمها يوم القيامة، لو استطاعوا، فداء كي ينجوا من العذاب، والتي كانوا يكنزونها ويبخلون بها في الدنيا، سوف تكون وسيلة تعذيب

لهم في جهنّم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة ٣٤، ٣٥].

روى البخاريُّ ومسلم، عن النبي ﷺ أنه قال:

"ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها (أي زكاتها) إلا صُفّحتْ له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وظهره. كلما بردَتْ أعيدتْ له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار".

فيا أيها الأغنياء، من الناعمين في ردهات الفلل والقصور، والنائمين على فرش النعيم، ادفعوا زكاة أموالكم ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم ٣١] .

جاء في أحد التقارير أنّ مقدار الثروة الخاصة التي يملكها بعض الأفراد من الأثرياء المسلمين بلغتْ ما قيمته (تريليون دولار)!.

(التريليون = ألف مليار، والمليار = ألف مليون)!.

أحد الأغنياء من المسلمين يستورد الوجبات الغذائية اليومية الجاهزة والطازجة بقيمة نصف مليون دولار، تُحمل له على متن الطائرة من أفخم المطاعم الأوروبية !. وآلاف الأسر المسلمة لا تجد قوت يومها.

وآخر تعوّد على استيراد الزهور من أوروبا، إذ يقف مندوبه أمام المطار لاستلام طرد الزهور اليومي أو الاسبوعي. والفقراء لا يكادون يجدون ثمن الدواء !.

وثالث ينفق في ليلة حمراء واحدة نصف مليون دولار !.

إنه الترف. وليس للترف إلا العذاب في الدنيا قبل الآخرة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [المؤمنون ٦٤، ٦٥]

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾

[48] And the evils of that which they earned will become apparent to them, and that which they used to mock at will encircle them.

[48] et leur apparaîtront les méfaits qu'ils ont commis, et ce dont ils se raillaient les enveloppera.

[48] Und das Böse dessen, was sie gewirkt haben, wird ihnen deutlich werden, und es wird sie das umschließen, worüber sie zu spotten pflegten.

(٤٨) الوقفة هنا عند لفظة ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾:

السخرية والاستهزاء بالدين وبالأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين، أمر قديم منذ زمن نوح عليه السلام وإلى يومنا هذا.

والآيات التي ذكر فيها الاستهزاء كثيرة منها قوله تعالى :

- ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[هود ٣٨]
- ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾[الحجر ١١]
- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾[الشعراء ٦]

ما من رسول إلا وتعرض للأذى والسخرية من قومه. حتى سيد البشر محمد رسول الله ﷺ تعرّض إلى أبشع أنواع الأذى، فقد شتمه قومه وآذوْه وسخروا منه وقالوا عنه مجنون وساحر وكذاب !!.

كانت أمّ جميل امرأة أبي لهب تحمل الشوك فتلقيه في طريقه.

وكان أميّة بن خلف يهمزه ويلمزه وهو(الهمزة اللمزة).

وجاء عقبة بن أبي مُعيْط بكرش جزور فألقاه فوقه وهو ساجد.

وسخروا منه فقالوا له: سَلْ ربك ينزل ملَكاً ينصرك.

وقال آخر: أسقط علينا من السماء كسَفًا كما زعمت.

وقال آخر: يا محمد لن نؤمن لك حتى تتخذ سُلّماً تصعد به إلى السماء فتأتي بالله والملائكة لينصروك علينا.

ولّما نزلت عليه آية: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر ٣٠] قال أبو جهل ضاحكاً ساخراً: يا معشر قريش، زبانية جهنم التي يخوفكم بها محمد تسعة عشر، فهل يعجز كل مئة منكم عن واحد منهم ؟!. فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر ٣١] .

وقال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تعرفون ما هي شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ هي عجوة يثرب بالزبدة !! فنزل قوله

تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان ٤٣ - ٤٦] .

حتى في عصرنا الحاضر لم تنقطع تلك السخرية من دين محمد ومن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام من قبل أعداء الدين. ما من لفظ في المعجم إلا واستعملوه في وصف المؤمنين، بقصد الإساءة والسخرية: رجعيون، أصوليون، إرهابيون، متطرفون، متزمتون، مختلون عقلياً، متحجرون، ظلاميون. .. الخ.

وتجد منهم من يستهزيء بالصلاة والمصلين. فهذا سفيه يقول: " أيها المصلون إذا ذهبتم للجنة فخذوها معكم !! ". مع الأسف يصدر ذلك عن أشخاص مسلمين ومن كُتّاب وصحفيين ولهم أسماء مثل أحمد ومحمد وعمر !!. ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة ٥٨] .

كنتُ أظن أن الاستهزاء بالصلاة كان مقصوراً على الكفار والمنافقين زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم أتصوّر أن يخرج علينا في عصرنا، ومن بلاد مسلمة، مَن يتهكم على الصلاة والمصلين! بل تجد كاتباً يسخر من الله عز وجل (تعالى الله علوا كبيرا) . وتجد رسّاماً يرسم كاريكاتيراً يسخر فيه من رسول الله ﷺ ومن زوجاته

التسعة، فيرسم ديكا وتسع دجاجات !!. ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة ٦٥] . وتجد آخرين يسخرون من حجاب الفتاة المسلمة ويصفونه بأنه (أكفان الموتى) !! وتجد آخرين يسخرون من اللحية و أصحاب اللحى ويطلقون عليها لفظة (مكانس) !!. وتجد آخرين يهزؤن باللغة العربية لغة القرآن ويصفونها بالجمود والتحجر!!.

هؤلاء وأمثالهم ما أخال استهزائهم إلا كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنَها فلمْ يضرها وأوهى قرنَهُ الوعلُ

إنّ إساءة الأدب مع الله تعالى، والسخرية من دينه وأوليائه لا تجوز، ولأصحابها عذاب في الدنيا وفي الآخرة: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة ١٥]. ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الروم ١٠].

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

[49] When harm touches man, he calls to Us (for help); then when We have (rescued him from that harm and) changed it into a favor from Us, he says: "Only because of knowledge (that I possess) I obtained it." Nay, it is only a trial, but most of them know not!

[49] Quand un malheur touche l'homme, il Nous invoque. Quand ensuite Nous lui accordons une faveur de Notre part, il dit: "Je ne la dois qu'à (ma) science". C'est une épreuve, plutôt; mais la plupart d'entre eux ne savent pas.

[49] "Wenn nun den Menschen ein Schaden trifft, so ruft er Uns an. Dann aber, wenn Wir ihm Unsere Gnade zuteil werden lassen, sagt er: ""Dies wurde mir nur auf Grund (meines) Wissens gegeben."" Nein, es ist bloß eine Prüfung; jedoch die meisten von ihnen wissen es nicht.

(٤٩) راجع الآية ٨ من هذه السورة.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[50] Verily, those before them said it, yet (all) that they had earned availed them not.

[50] Ainsi parlaient ceux qui vécurent avant eux. Mais ce qu'ils ont acquis ne leur a servi à rien;

[50] "Die vor ihnen waren, sprachen auch schon so, doch all das, was sie erworben hatten, nutzte ihnen nichts.

(٥٠) حقا ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ما أغنى عنهم هذا المال وهذا المنصب وهذا الجاه. ما أغنت عنهم قصورهم ومصانعهم، ولا متعهم وملذاتهم، ولا قوتهم وعبقريتهم:

- ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر ٨٢-٨٤]
- ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء ٢٠٥-٢٠٧]
- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر ٨٢]

- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾[الأحقاف ٢٦]
- ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ (٢٩)﴾[الدخان ٢٥-٢٩] .

خلّفوا وراءهم كل ما جمعوه مِن حطام الدنيا !.. تركوا قصوراً مُشْمَخرّة، وبيوتاً فارهة مؤثثة ً بكل وسائل الراحة، وحدائق غنّاء! ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متفكهين !.. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ . ما أعجب هذه الآية !! هذه كناية عن القول: ما حزن أحدٌ لفقدهم، ولا أحدَ أخذ بثأرهم أو انتصر لهم !!

جَـرَتِ الريـاحُ علـى ديـارهِمُ   فكـأنّهمْ كـانوا علـى ميعـادِ

ويقول أبو البقاء الرندي في قصيدة له يتأمل فيها تغيرات الزمان وكيف تؤول الدول :

لكل شيء إذا ما تـمَّ نُقصـانُ   فلا يُغَـرُّ بطِيـبِ العيْـشِ إنسـانُ

هـي الأمورُ كما شاهدْتُها دولٌ مَـنْ سَـرَّهُ زمـنٌ سـاءتهُ أزمـانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ ولا يـدومُ علـى حـالٍ لها شـانُ
أينَ الملوكُ ذوي التيجان ِمِنْ يَمَنٍ وأيـن منـهم أكاليـلٌ وتيجـانُ
وأين ما شـادَهُ شـدّادُ في إرَمٍ وأين ما ساسَهُ في الفُرْس ساسانُ
وأين ما حازَهُ قارونُ مِنْ ذهـب وأيـن عـادٌ وشـدّادٌ وقحطـانُ
أتى على الكل أمْرٌ لا مَرَدّ له حتى قَضَوْا فكأنّ القومَ ما كـانوا

إن السببَ الحقيقي وراء نزول العقاب بالأمم والشعوب هو التمرّد على أوامر الله عز وجل ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ [الطلاق ٨].

والعذاب الذي يحل بالقرى ليس من قبيل الصدفة كما يظن البعض، بل هو عذاب مُدبَّر ومقصود من الله تعالى بسبب أعمالها السيئة. وإلا كيف تفسر مرور الإعصار المدمر فوق القرى والمدن فيدمر بعضاً منها ويترك الآخر ؟!. إن هذا الإعصار أو الزلزال أو الفيضان جندي من جنود الله، مدبَّر وموجَّه لفئة معينة دون أخرى بقصد العقوبة !!.

في أحد الأعوام ضرب إعصارٌ مدمّر شمال هولندا، حطّم كل شيء. رياح عاتية هدمت البيوت وقطعت خطوط الطاقة وحملت

السيارات وحطمتها واقتلعت الأشجارَ من جذورها !!. ما تفسير ذلك؟ ليس من تفسير لذلك عندي إلا قول الله تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف ٢٤] .

وفي الزلزال البحري الذي ضرب مناطق جنوب شرقي آسيا يوم الأحد ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٤ يقول شاهد عيان: " كان الجو بديعاً. .. وفجأة رأيت الكل يصيح ويهرب !! إتجه بصري لأعلى، لم أشاهد السماء، بل شاهدتُ ماءً !! كانت موجة ً ولكنها لم تكن عادية. . كأنها كانت البحر كله!!". ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف ٩٥] .

وجاء في التقرير: " جنّات سياحية خلابة ذات الفنادق الفخمة، والشواطيء البلورية، يقصدها الملايين، بحثاً عن الشمس والرمال والمياه الدافئة، حطمتها الأمواج !! ". ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف ٩٨،٩٧] .

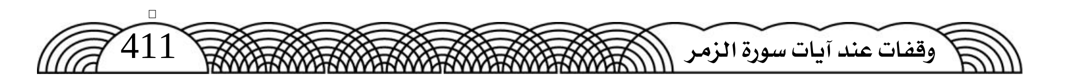
ليس من تعليل لكل ذلك إلا أن هناك قصداً وتدبيراً من لدن حكيم عليم. فكل شيء في الكون يتحرك ويسكن بأمر الله تعالى،

وأن الكوارث الطبيعية لا تحدث هكذا جُزافا أو بصورة عفوية، وإنما تحدث بإرادة الله تعالى ومشيئته، ويُقصَدُ منها التدمير وإنزال العقوبة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف ٥٩] . وقوله تعالى عن وقوع الزلازل: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل ٢٦] .

والعجيب أن علماء الزلازل يقولون ما نصّه: " لو أن زلزالاً حدث في مدينة ما، فإنه يصيب المدينة بأكملها فقط دون المناطق المحيطة غير المأهولة ".

في هذا اعتراف ودليلٌ على أن الله تعالى يَقصِد المباني المأهولة بالذات حين يوقع العقوبة !!. أي أن هذه العقوبة موجهة للإنسان لغاية معلومة. ولذلك تجد أن الزلازل تتفاوت في شدتها:

- منها ما يكون خفيفاً. من أجل التحذير والتنبيه.
- ومنها ما يكون مخرِّباً.
- ومنها ما يكون مدمِّراً.



- ومنها ما يكون كارثياً ساحقاً!!.

وفي جميع الحالات فإن الإنسان هو المستَهدَف.

من الملاحظ أن الحيوانات مزوّدة بالقدرة على استشعار خطر الزلزال قبل وقوعه، ولذا فهي تهرب منه، والخسائر في عالم الحيوان قليلة جداً مقارنة بالخسائر البشرية.

عقب كارثة الزلزال البحري (تسونامي) الذي ضرب مناطق في آسيا قرأتُ خبراً مثيراً للسخرية ! يقول الخبر: " تحاول دول المحيط الهاديء تنسيق مراقبتها لحركة المحيط "!!.

يا حسرة على تلك الدول ! تراقب ماذا ؟! أما علموا أن العذاب يقع بغتة ؟. أما قرأوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام ٤٧] . وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء ١٢-١٥] .

الخلاصة: كل شيء في الكون يتحرك ويسكن بأمر الله تعالى. فالرياح تهُبُّ بأمر من الله تعالى، لذلك لا تجد في القرآن (هبّتْ الرياح) أو (أُرسلتْ الرياح) !. وإنما دائماً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم ٤٨] . ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾[الأعراف ٥٧] .

حتى البرَد موجّه بإرادة الله، ومقصود به أناس دون سواهم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور٤٣] . كذلك الصواعق مرسلة بإرادةٍ إلهية ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد ١٣] .

إذن لا صحة لمن يقول بأن تلك الظواهر تحدث وفق نظام ثابت أعمى، وتتحرك هنا وهناك حركة آلية جبرية !!. الصحيح هو أن هذه الظواهر تحدث ضمن مشيئة الله وإرادته ومن تدبيره، يرسلها في صورة ما في الوقت الذي يريد، وعلى مَنْ يريد ضمن سنن وقوانين هو خالقها وموجّهها.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾

[51] So, the evil results of that which they earned overtook them. And those who did wrong of these (people to whom you (Muhammad (peace be upon him)) have been sent) will also be overtaken by the evil results (torment) for that which they earned; and they will never be able to escape.

[51] Ils furent donc atteints par les mauvaises conséquences de leurs acquis. Ceux de ces gens (les Mecquois) qui auront commis l'injustice seront atteints par les mauvaises conséquences de leurs acquis et ils ne pourront s'opposer à la puissance (d'Allah).

[51] Und das Böse dessen, was sie gewirkt hatten, erfaßte sie. Und diejenigen unter ihnen, die Unrecht getan haben, wird (auch) das Böse dessen, was sie gewirkt haben, erfassen; und sie können sich diesem nicht entziehen.

(٥١) وهذا مثل قوله تعالى :

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾[المائدة ٤٩]
- ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾[النور ٦٣] .

وهذا العذاب نتيجة طبيعية لما اقترفته أيديهم من الذنوب والمعاصي وعقوبة لهم على ما كسبوا من السيئات، وذلك في كل زمان ومكان.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ثمرة هذا الكسب السيّء:

- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنعام ٧٠]
- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖ ﴾ [يونس ٢٧]
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ ﴾[الشورى ٣٢-٣٤]
- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر ٤٥] .

ولقد وقفنا طويلاً عند هذا العذاب، راجع الآية ٥٠ من هذه السورة.

أسأل الله تعالى أن يجنبنا سوء العذاب.

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

[52] Do they not know that Allâh enlarges the provision for whom He wills, and straitens it (for whom He wills). Verily, in this are signs for the folk who believe!

[52] Ne savent-ils pas qu'Allah attribue Ses dons avec largesse ou les restreint à qui Il veut? Il y a en cela des preuves pour des gens qui croient.

[52] Wissen sie nicht, daß Allah dem die Mittel zum Unterhalt erweitert und beschränkt, dem Er will? Wahrlich, hierin liegen Zeichen für Leute, die glauben.

(٥٢) الوقفة هنا عند الرزق :

من الهموم التي تسيطر على كثير من الناس مسألة الرزق، علماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذي قدّر الأرزاق، وقسّم المعاشَ بين الناس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف ٣٢] .

والآيات التي تتحدث عن مسألة الرزق في القرآن الكريم كثيرة منها:

- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ ٣٦]
- ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل ٧١]
- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت ١٧]
- ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ (الشورى ٢٧]

واعلم - أخي القاريء - أن تقسيم الأرزاق بين الناس لا علاقة له بالحسب أو النسب، ولا بالعقل والذكاء، ولا بالمكانة والمنصب. وإنما يوزع الله عز وجل رزقه على عباده لحكمة هو يعلمها. فقد

يعطي المجنون ويَحرمُ العاقل، وقد يعطي الوضيع ويمنع الحسيب !.
كما قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاقُ تَجري على الحِجا هَلكْنَ إذاً مِـنْ جهلِهــنَّ البــهائمُ

ومعنى الحجا: الفطنة والذكاء.

وكما قال الشافعي رضي الله عنه :

كم عاجز في الناس يُؤْتى رزقُـهُ رغَـداً، ويُحــرَمُ كـيِّسٌ ويخيــَبُ

وقال آخر :

الرزقُ كالغيْثِ بين الناس ِ مُنقسِمٌ هـذا غريـقٌ وهـذا يَشـتهي المطـرا

وقال آخر :

يا طالبَ الرزق ِ في الآفاق ِ مجتهداً أقصرْ عنـاكَ فـإنّ الـرزقَ مقسـومُ

وقال آخر :

قد يُرزَقُ المرءُ لا مِنْ فضل ِ حيلتِـهِ ويُصرَفُ الرزقُ عن ذي الحيلةِ الـداهي

وقال آخر :

لا ترهبنَّ الفقرَ ما عِشتَ في غـدٍ لكـــل غـــدٍ رزقٌ مـــِنَ اللهِ واردُ

وقال آخر :

لا تعجلنَّ فليس الرزقُ بالعجـل الرزقُ في اللوح ِ مكتوبٌ مع الأجـل

واعلم كذلك أن المال المسروق والمخالف لشرع الله تعالى ليس برزق، لأن الرزقَ هو ما يقسمه الله بين الناس بإرادته ورضاه. أما المال المكتسَب بطرق غير شرعية فهو مال قد أُخِذَ بدون استئذان من الله تعالى وبذلك يُعدّ حراماً.

معنى ذلك أن من يلجأ إلى أساليب ملتوية ومحرّمة للحصول على المال، يكون قد خالف الأسباب الشرعية التي يُستجلبُ بها الرزق.

وقد بيّن لنا هذا الدينُ العظيم مفاتيحَ الرزق المبارك، أذكر منها :

- **الاستغفار والتوبة** لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾[نوح ١٠، ١١]
- **الإنفاق في سبيل الله**، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[سبأ ٣٩]
- **وصلة الأرحام**، لقوله ﷺ: " مَنْ أحبَّ أنْ يُبسطَ له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصلْ رحمَه" (البخاري)

ومعنى ينسأ له في أثره: أي يُؤخّر في أجله وعمره.

وهذه المفاتيح الثلاثة يجب أن تكون مقرونة بالسعي والعمل.

أدعو الله أن يبارك لنا في أرزاقنا.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

[53] Say: "O 'Ibâdî (My slaves) who have transgressed against themselves (by committing evil deeds and sins)! Despair not of the Mercy of Allâh: verily, Allâh forgives all sins. Truly He is Oft-Forgiving, Most Merciful.

[53] Dis: "O Mes serviteurs qui avez commis des excès à votre propre détriment, ne désespérez pas de la miséricorde d'Allah. Car Allah pardonne tous les péchés. Oui, c'est Lui le Pardonneur, le Très Miséricordieux.

[53] "Sprich: ""O meine Diener, die ihr euch gegen eure eigenen Seelen vergangen habt, verzweifelt nicht an Allahs Barmherzigkeit; denn Allah vergibt alle Sünden; Er ist der Allverzeihende, der Barmherzige.

(٥٣) يقول العلماء: هذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة بالمغفرة من الذنوب والمعاصي للمسرفين على أنفسهم إذا ما تابوا وعادوا إلى الله.

كلنا نقع في الذنوب والمعاصي، مع اختلاف وتباين. ومن فضل الله تعالى أن جعل لهذه المعاصي مكفّرات كالصلوات والأعمال الصالحة. يقول تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود ١١٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وأما ظُـلمُ العبدِ نفسَه بصغائر الذنوب والمعاصي، من غير إصرار، فذلك تكفره آيتا النساء والنجم: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء ٣١] . وفي سورة النجم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم ٣٢].

واللمم: ما دون الكبائر من الذنوب. وقيل: مُقاربة المعصية مِنْ غير مُواقعَة. وقالوا: النظرة من غير تعمّد، فهي لمم، وهي مغفورة، فإنْ أعاد النظر فليس بلمم. فالصغيرة التي لا يُصرّ عليها صاحبها هي من هذا اللمم الذي يغفره الله تعالى بالصلوات والأعمال الصالحة، بشرط اجتناب الفواحش والذنوب الكبار، كما جاء في الآيتين الكريمتين.

ولكن انتبه ! قد يَقترنُ بالصغيرة مِن قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف، ما يُلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى مراتب الكبائر!! وهذا مرجعه إلى ما يقوم في القلب مِن خوف أو عدم خوف من الله تعالى. والعبد يعرف ذلك من نفسه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة ١٤] . ومَنْ كان بالله أعرَف، كان منه أخْوَف !

ولذلك قال بعض السلف الصالح: " لا تنظر إلى صِغر المعصية، ولكن انظرْ إلى عظمة مَنْ عصيْت !! ".

ولذلك قد تشتد غفلة صاحب المعصية، حتى إنّه ليفرحُ إذا ظفر بشهوة أو فعل معصية ! مما يدل على شدة الرغبة فيها، والجهل بعظمة مَنْ عصاه، والجهل بخطر المعصية وبسوء عاقبتها. فالبعض يظن أنه إذا فعل المعصية ولم يجد أثرها على الفور، فإنه لن يجدَه بعد ذلك ! كما قال الشاعر:

إذا لمْ يُغَبِّرْ حائطٌ في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبارُ

ولذلك نسي الكثير من الناس أنّ شؤم المعصية يُدرك العبد ولو بعد أربعين سنة! بل قد لا يَظهرُ شؤمُها إلا في آخر لحظات العمر على فراش الموت، حيث تسوء الخاتمة والعياذ بالله. لذا بادرْ بالتوبة قبل أنْ تُبادَر!.

هذا وقد أُمرْنا أن نلتمس التوبة على عجل، وأن لا نؤخرها إلى الموت، حيث لا تنفع !!. وما دام الموت متوقعاً في كل لحظة، فالتوبة واجبة على الفور: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء ١٧] .

واعلمْ أنّك عبدٌ لله تعالى، ولستَ حراً بأنْ تفعل ما يحلو لك، فاتباعُك لهواك خروج عن مقتضى العبودية لله تعالى.

هذه الحقيقة أدركها بشر بن الحارث وكانت سبباً في هدايته، وفيما يلي قصة هدايته أسردها لأخذ العبرة :

" كان بشر بن الحارث شابا صاحب لهو ولعب ومعصية. كان ذات يوم مع رفقاء له يشاركونه المجون في داره، وصوت طربهم يخرج من نوافذ الدار. فمرّ على الدار رجلٌ من الصالحين. قرع البابَ، فخرجتْ إليه جارية.

فسألها: أصاحبُ هذه الدار حرٌّ أم عبد ؟.

قالتْ: بل حر !.

قال: صدقتِ، لو كان عبداً لاستعمل الأدب مع سيده وترك اللهو!

فسمع بشر بن الحارث صوت الرجل الصالح، فاتّجَهَ نحو الباب يسأل: مَن المتحدث ؟ فإذا الرجل قد ولّى. فسأل الجارية، فأخبرته بما جرى، فألقى اللهُ في قلب بشر خوفاً من تلك الكلمة ! فخرج يتبع الرجل الصالح، حتى إذا لحق به قال له: أعِدْ عليّ الكلام. فأعاده، فقال بشر: كلا والله بل أنا عبد. (يقصد أنه عبدٌ لله) !!

ثم هام على وجهه حافياً نادماً على ما كان منه، حتى عُرِفَ فيما بعد ببشر الحافي.

إنَّ صوت الحق يهتف في كل مكان ليهتدي الحائرون، ويجدد الخطاءون التوبة ! يقول رسول الله ﷺ: " إذا مضى شطر الليل أو ثلثاهُ، يَنزلُ الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيُعطى ؟ هل من داع فيستجاب له ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ حتى يبزغ الفجر".

وفي حديث قدسي عن الله عز وجل: " يا ابن آدم إنك ما دعوْتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة. "

هذا الحديث وأمثاله جرعة تحيي الأمل في النفوس القانطة، وتحرك العزائم الجامدة لتبدأ السير إلى الله تعالى. ورحم الله القائل :

أسيءُ فيَجزي بالإساءة إفضالا   وأعصي فيوليني بـرّا وإمهالا
وكم مرة زغْتُ عن نهج طاعةٍ   ولا حالَ عن ستر القبيح ولا زالا

أسأل الله تعالى أن يرزقنا قبل الموت توبة، وعند الموت مغفرة.

﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

[54] "And turn in repentance and in obedience with true Faith (Islâmic Monotheism) to your Lord and submit to Him (in Islâm) before the torment comes upon you, (and) then you will not be helped.

[54] Et revenez repentant à votre Seigneur, et soumettez-vous à Lui, avant que ne vous vienne le châtiment et vous ne recevez alors aucun secours.

[54] "Und kehrt euch zu eurem Herrn, und ergebt euch Ihm, bevor die Strafe über euch kommt; (denn) dann werdet ihr keine Hilfe finden.

(٥٤) هذه الآية والآية التي تليها تتحدثان عن الإنابة والرجوع إلى الله تعالى، وقد وقفنا عند ذلك في الآية السابقة [٥٣] فراجعها.

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

[55] "And follow the best of that which is sent down to you from your Lord (i.e. this Qur'ân, do what it orders you to do and keep away from what it forbids), before the torment comes on you suddenly while you perceive not!"

[55] Et suivez la meilleure révélation qui vous est descendue de la part de votre Seigneur, avant que le châtiment ne vous vienne soudain, sans que vous ne (le) pressentiez;

[55] Und folgt dem Besten, das zu euch von eurem Herrn herabgesandt wurde, bevor die Strafe unversehens über euch kommt, während ihr es nicht merkt,

(٥٥) راجع الآية (٥٣) .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

[56] Lest a person should say: "Alas, my grief that I was undutiful to Allâh (i.e. I have not done what Allâh has ordered me to do), and I was indeed among those who mocked (at the truth! i.e. Lâ ilâha illallâh (none has the right to be worshipped but Allâh), the Qur'ân, and Muhammad (peace be upon him) and at the faithful believers)

[56] avant qu'une âme ne dise: "Malheur à moi pour mes manquements envers Allah. Car j'ai été certes, parmi les railleurs";

[56] damit nicht etwa einer spreche: »O wehe mir um dessentwillen, was ich gegenüber Allah versäumte! Denn wahrlich, ich gehörte zu den Spöttern«;

(٥٦) تشير هذه الآية والآيتان التاليتان إلى أشد المشاعر وقعاً على النفس يوم القيامة، ألا وهو الشعور بالندم !.

كلٌّ منا لا بد وأنْ أحسّ بوخز الندم يوما ما على أمر لم يفعله، أو على أمر فعله !. والندم في الدنيا يهون، إلا أن أشد الندم على الإطلاق هو ما كان يوم القيامة. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الندم يوم القيامة بألفاظ مثل: يا ليتني، يا حسرتى، يا ويلتى.

يقول تعالى :

- ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الفرقان ٢٧، ٢٨]
- ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحاقة ٢٥-٢٧]
- ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنعام ٢٧]
- ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾[الأحزاب ٦٦]
- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزخرف ٣٨]
- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام ٣١]
- ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[يونس ٥٤]

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾

[57] Or (lest) he should say: "If only Allâh had guided me, I should indeed have been among the Muttaqûn (the pious and righteous persons - see V.2:2)."

[57] ou qu'elle ne dise: "Si Allah m'avait guidée, j'aurais été certes, parmi les pieux";

[57] oder damit nicht etwa einer spreche: »Hätte mich Allah geleitet, so wäre auch ich unter den Gottesfürchtigen gewesen«;

(٥٧) راجع الآية ٥٦

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

[58] Or (lest) he should say when he sees the torment: "If only I had another chance (to return to the world), then I should indeed be among the Muhsinûn (good-doers - see V.2:112)."

[58] ou bien qu'elle ne dise en voyant le châtiment: "Ah! S'il y avait pour moi un retour! Je serais alors parmi les bienfaisants".

[58] "oder damit nicht einer spreche, wenn er die Strafe sieht: »Gäbe es für mich doch eine Wiederkehr, dann wollte ich unter denen sein, die Gutes tun.«""

(٥٨) راجع الآية ٥٦

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

[59] Yes! Verily, there came to you My Ayât (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.) and you denied them, and were proud and were among the disbelievers.

[59] "Oh que si! Mes versets te sont venus et tu les as traités de mensonge, tu t'es enflé d'orgueil et tu étais parmi les mécréants".

[59] """"Nein; es kamen zu dir Meine Zeichen, aber du verwarfst sie, und du warst hochmütig und warst einer der Ungläubigen.""

(٥٩) الوقفة هنا عند كلمة ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ :

إنّ الكِبْر والغطرسة والغرور والإستعلاء والفرح والمرح بغير حق، ممقوتةٌ عند الله تعالى. وفي القرآن آيات كثيرة حول النهي عن هذه الصفات الذميمة :

- ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء ٣٧]
- ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان ١٨]

- ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[القصص ٧٦]
- ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[القصص ٨٣]
- ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف ١٤٦]

وقال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر"[رواه مسلم] وقال: "ألا أخبركم بأهل النار؟: كلُّ عُتُلٍّ جوّاظٍ مستكبر " [متفق عليه].

قال الأحنف: "عجبتُ لِمَنْ جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبّر"!؟.

وقال مالك بن دينار رحمه الله لأحد أبناء المهلّب وهو يتبختر في مشيه: " يا بنيّ لو تركتَ هذه الخيلاء لكان أجمل لك.

فقال الفتى: أو ما تعرفُني؟.

قال له مالك :" أعرفك معرفة جيدة، أوّلك نطفةٌ مَذِرة وآخرُك جيفة قذرة، وأنتَ بين ذلك تحملُ العذرة !!.

فأرخى الفتى رأسَه، وكفّ عمّا كان عليه.

لِمَ الكبْرُ والخيلاء ؟ ولِمَ هذا البطر والفرحُ بغير حق ؟
حقّاً: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

لو تذكّر أهلُ الغرب أنّ ما لديهم من علم وقوة، إنما هو من تمكين الله تعالى لخففوا من غرورهم وتعاليهم وانتفاشهم !!.

في أواخر القرن الماضي صنع الإنجليز باخرة عظيمة كانت كما يقولون فخرَ صناعتهم. فانطلقتْ في رحلة ترفيهية وعلى متنها عَليّة القوم، ونخبة من المجتمع. وقد بلغ الفخر والاعتزاز بصانعي السفينة درجة كبيرة من الكبر والغرور، فأطلقوا عليها اسم (Titanic) أي الجبار الذي لا يُقهر!. بل سُمِعَ أحدُ أفراد طاقمها يقول أمام بعض كبار ركابها بما ترجمته: " حتى الله نفسه لا يستطيع أنْ يغرقها ". تعالى الله عمّا يقولون علوا كبيرا.

وفي اليوم الثالث من رحلتها في المحيط الأطلسي شاء الله تعالى أنْ تصطدم بجبل جليدي عائم، فتفتح فيها فجوة بطول تسعين متراً !! وبعد ساعتين تستقر الباخرةُ (التي لا تُقهَر) في قعر المحيط، ومعها ١٥٠٤ من الركاب وحمولة بلغت ٤٦٠٠٠ طن !! ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣] .

لقد فرحوا واغتروا بما أوتوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام ٤٤].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف ٥٥]

ومعنى آسفونا: أي أغضبونا.

وفي عام ١٩٨٦م أصيبوا بنشوة الكبْر والغرور يوم أطلقوا مكوك الفضاء الذي أسموْه Challenger أي المتحدّي !!

فماذا كانت النتيجة ؟ انفجر هذا (التشالنجر) بعد ٧٣ ثانية من إطلاقه، وقتل جميع من فيه وعددهم سبعة.

ولا زال الله تعالى يفعل من هذه الحوادث وغيرها ما شاء ومتى شاء. والله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

نعم، إنه ما خالط الكبر والغرورُ عملاً إلا أفسده، وجاءت النتيجة على غير المشتهَى.

ورحم الله الشاعر الذي قال:

يا رب هـذا الشّـرْبُ ألحـدَ عنـدما سخّـرْتَ لـه دُنيـاك
علمْتَـهُ مِـنْ عِلمك النوويّ مـا علمتـه فـإذا بـه عـاداك
ما كاد يُطلقُ للعُـلا صاروخَـهُ حتـى أشاح بوجهه وقـلاك
واغترّ حتى ظنّ أنّ الكـون في يُمنى بنـي الإنسان لا يُمنـاك
لو شئتَ يا ربّ هوى صاروخُهُ أو لو أردتَ لما استطاع حراك

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

[60] And on the Day of Resurrection you will see those who lied against Allâh (i.e. attributed to Him sons, partners) - their faces will be black. Is there not in Hell an abode for the arrogant?

[60] Et au Jour de la Résurrection, tu verras les visages de ceux qui mentaient sur Allah, assombris. N'est-ce pas dans l'Enfer qu'il y aura une demeure pour les orgueilleux?

[60] "Und am Tage der Auferstehung wirst du diejenigen, die über Allah logen, mit geschwärzten Gesichtern sehen. Ist nicht in Dschahannam ein Aufenthalt für die Hochmütigen?

(٦٠) ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾. وهذا مثل قوله تعالى:

- ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[آل عمران ١٠٦].
- ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس ٢٧]
- ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم ٥٠]

- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس ٤٠-٤٢]
- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة ٢٤، ٢٥]
- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية ٢ - ٤]
- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه ١٠٢]

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

وجاء في تفسير القرطبي رحمه الله: "والزرق خلاف الكحل. والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمه، أي تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم.

وقال الكلبي والفراء: "زرقا" أي عميا.

وقال الأزهري: عطاشا قد ازرقت أعينهم من شدة العطش.

وقال الزجّاج: لأن سواد العين يتغير ويزرق من العطش.

وقيل: إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف.

قال الشاعر:

لقد زرقتْ عيناك يا ابن مكعبر ... كما كل ضبي من اللؤم أزرقُ

وفي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾

قال ابن عباس: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: أي ذليلة بالعذاب. وكل متضائل ساكن خاشع. يقال: خشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي تعبة. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم.

قال الكلبي: " يُجَرّون على وجوههم في النار، ويكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار، كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقائها في صعود من نار، وهبوطها في انحدار منها، إلى غير ذلك من عذابها".

وفي قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة أي كالحة عابسة كاسفة تغير لونها. ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ أي يعلوها الغبار والدخان وتغشاها قترة أي سواد. قال رسول الله ﷺ: "يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم ".

أسأل الله تعالى أنْ يجعلنا من الذين ابيضت وجوههم.

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

[61] And Allâh will deliver those who are the Muttaqûn (the pious - see V.2:2) to their places of success (Paradise). Evil shall touch them not, nor shall they grieve.

[61] Et Allah sauvera ceux qui ont été pieux en leur faisant gagner (leur place au Paradis). Nul mal ne les touchera et ils ne seront point affligés.

[61] Und Allah wird diejenigen retten, die (Ihn) fürchteten, und ihnen Erfolg (verleihen). Weder wird sie das Ubel berühren, noch werden sie trauern.

(٦١) الوقفة هنا عند [النجاة] . النجاة من أهوال القيامة، والنجاة من عذاب النار، والفوز والبشرى بالنعيم :

- ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء ١٠٣]
- ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران ١٨٥]
- ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل ٨٩]

- ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد ١٢].
- ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[التوبة ٢١]
- ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم ٧١، ٧٢]
- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾[مريم ٨٥]

قال رسول الله ﷺ: " من أحبّ أن يُزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه".

وعن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: (يَحشر اللهُ مع كل امرئ عمله، فيكون عملُ المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح، فكلما كان رعبٌ أو خوفٌ قال له: لا ترعْ فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعني به، فإذا كثر ذلك عليه قال المؤمن: فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول: أما تعرفني ؟ أنا عملك الصالح حملتني على ثقلي، فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك. فهي التي قال الله:

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾.

وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ [الأنبياء ١٠٣] . يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم:

﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ أي فأملوا ما يسركم وافرحوا ولا تحزنوا.

وقيل تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾.

ورد في تفسير ابن كثير رحمه الله حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥)﴾ : " يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون إلى دار كرامته ورضوانه".

ولما نزلت هذه الآية قال أحد الصحابة: يا رسول الله، إني قد رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفدا إلا ركبانا، فما وفد الله ؟ فقال

رسول الله ﷺ: (أما إنهم يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقا، ولكنهم يُؤتوْن بنوق من نوق الجنة لم يَنظر الخلائقُ إلى مثلها، رحالها الذهب وزمامها الزبرجد، فيركبون حتى يقرعوا باب الجنة).

أسأل الله تعالى أن يدخلنا في رحمته.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾

[62] Allâh is the Creator of all things, and He is the Wakîl (Trustee, Disposer of affairs, Guardian) over all things.

[62] Allah est le Créateur de toute chose, et de toute chose Il est Garant.

[62] Allah ist der Schöpfer aller Dinge, und Er ist der Erhalter aller Dinge.

(٦٢) الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء. في الأرض أو في السماوات العُلى. ليس هذا فحسب، بل هو على كل شيء وكيل: أي له الوكالة التامّة على كل شيء.

والقرآن الكريم أكّد هذه الحقيقة في آيات كثيرة :

- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام ١٠٢]
- ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد ١٦]
- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر ٢٤]
- ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ [السجدة ٧]

- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان ٢]
- ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل ٨٨]
- ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه ٥٠]
- ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى ٢، ٣]

أبدع وأحسن الخلق سبحانه وتعالى، قدّر ودبّر وهدى !!

ولو أردنا الحديث عن بديع صُنْع الله تعالى في خلقه لاستغرق ذلك صفحات طويلة، وحسبي هنا أن أعرض جانباً منْ عالم الحيوان كمثال على روعة الخلق وبديع صنع الله :

- مَنْ علـّم النحلَ أنْ تبنيَ هذه البيوتَ السداسية الدقيقة من الشمع بأبعادٍ محددة وأشكال سداسية متساوية الأضلاع كما لو أنها رُسمتْ بالمسطرة ؟!. ولماذا الشكل السداسي بالذات من دون سائر الأشكال ؟. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: " إختار النحل أنْ تبني بيوتها منْ أشكال موصوفة بصفتين:
  - أنْ لا تكون زواياها ضيقة، حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً.
  - أنْ تكون تلك البيوت مُصممة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامتلأ اللوح منها، لا يبقى منَ اللوح ضائع، فعلمتْ

النحل أنّ الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو الشكل السداسي فقط. فإنّ المثلثات والمربعات وإنْ أمكَنَ امتلاء اللوح منها، إلا أنّ زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإنْ كانتْ زواياها واسعة كالشكل الثـُماني مثلاً، إلا أنّ اللوح لا يمتليء منها، بل يبقى فيما بينها فراغات خالية ضائعة. فسبحان مَنْ هداها إلى بناء بيوتها على هذا الشكل مِنْ غير مسطرة ولا آلة ولا مثال يُحتذى عليه".

- مَنْ علـّم النملة حين تُخزّنُ الحَبّ أنْ تفلق الحبة فلقتين لكيلا يَنبُت، فإنْ كان ينبت مع فلقه باثنتين، فلقته بأربعة ؟!.
- وانظرْ إلى الهدهد. تجده مِن أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره. فسبحان من هداه إلى هذا.
- وانظر إلى الحَمام فهو مِنْ أعجب الحيوان هداية !. يقول الشافعي: " أعقل الطير الحمام ". والحمام إذا أراد السِّفادَ يلطف للأنثى غاية اللطف !. وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد، يقوم هو والأنثى بجمع العيدان و القصب، فيعملان منه عُشاً ينسجانه نسجاً متداخلاً، ويجعلان حوافـّه مرتفعة، لكيلا يتدحرج عنه البيض!!. مَنْ علـّم الحمام أنْ يفعل ذلك ؟!.

- ومن عجائب هداية الله في مخلوقاته ما يجيده الثعلب من مكر وحيلة ! فمِن عجيب أمره أنه إذا اشتد به الجوع انتفخ، ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة، فتتداوله الطير، فلا يُظهر حركة ولا نفَساً، فلا تشك الطير أنه ميّت ! حتى إذا نَقرتـهْ في رأسه، وثب عليها، فضمّها ضمّة الموت !!.
- مَنْ علّـم الدّب، إذا أصابه جرح، أنْ يأتيَ إلى نبتة قد عرفها، وجهلها صاحب الحشائش، فيتداوى بها فيبرأ ؟!.
- مَن هدى أنثى الفيل، إذا دنا موعد ولادتها، أن تأتيَ إلى الماء فتلد فيه ؟ لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة !!، وهي عالية، فتخاف أن تُسقِط وليدها على الأرض فيتأذى، فتأتي ماءً وسطا تضعه فيه، فيكون كالفِراش اللين والوطاء الناعم !!.
- مَن هدى الجمل أن يشرب من خُفّه عندما يتعرض للجفاف، وانقطاع مياه الشرب عنه أياماً متلاحقة ؟! لقد ميّزه الله سبحانه وتعالى بخاصية عجيبة: وهي أنّ كمية من الماء على شكل جدائل تبقى مخزنة في خُفّي الجمل وسيقانه وسنامه، بحيث عند اشتداد الحاجة للماء، تنفكّ جدائلُ الماء هذه وتنساب في دمه، فتحميه من الهلاك عطشاً !!.

فسبحان الله ! نقولها تسبيح متيقظ لا تسبيح غافل.

يعرّف ابن الجوزي رحمه الله الفرق بين تسبيح الغافل وتسبيح المتيقظ فيقول:

"الغافل يقول سبحان الله عادة ً. أما المتيقظ فلا يزال فكره في عجائب المخلوقات، وفي عظمة الخالق، فيحركه التدبر والتأمل في ذلك فيقول: سبحان الله، مما يدفعه إلى تعظيم الخالق وعبادته حق العبادة. فهذا تسبيح المتيقظين. أما الغافلون، نعم يقولون سبحان الله، ويقولون أستغفر الله، ولكن يقولونها عادةً. وشتان ما بين الفريقين".

أسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من الغافلين.

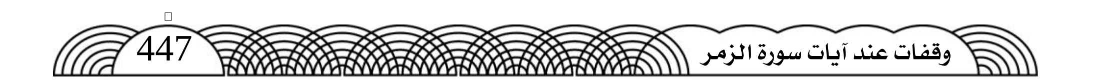
﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾

[63] To Him belong the keys of the heavens and the earth. And those who disbelieve in the Ayât (proofs, evidences, verses, signs, revelations, etc.) of Allâh, such are they who will be the losers.

[63] Il détient les clefs des cieux et de la terre; et ceux qui ne croient pas aux versets d'Allah, ce sont ceux-là les perdants.

[63] Sein sind die Schlüssel der Himmel und der Erde; und jene, die nicht an die Zeichen Allahs glauben, sind die Verlierenden.

(٦٣) وقفنا طويلا عند السماوات والأرض في الآيتين ٥ و ٦٧ من هذه السورة فارجع إليهما.



[64] Say (O Muhammad (peace be upon him) to the polytheists): "Do you order me to worship other than Allâh? O you fools !"

[64] Dis: "Me commanderez-vous d'adorer autre qu'Allah, O ignorants?"

[64] "Sprich: ""Verlangt ihr von mir etwa, daß ich (etwas) anderes als Allah anbete, ihr Toren?""

(٦٤) الوقفة هنا عند ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾:

الجهل هو السّفهُ وعدم العلم. وجَهِـل الشيء: أي لم يعرفه. وجهل الحق: أي أضاعه. ونقول رجلٌ جاهل، وجمعها :جُهّال أو جهلة. ومعنى تجاهل: أي أظهر أنه جاهل وهو ليس به، كما قال الشاعر :

ولمّا رأيْتُ الجهلَ في الناس فاشيا   تجاهـلتُ حتى قيل إنــيَ جاهــلُ

فوا عجباً كم يدّعي الفضلَ ناقصٌ   ووا أسفاً كم يُظهر النقصَ فاضـلُ

وعرّف ابن تيمية رحمه الله الجهل بقوله: " هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم، فمن لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا، ومن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركّبا ".

وأسوأ ما في الإنسان أنْ يكون جاهلا ولكنه لا يدري ! كما قال الشاعر:

جهلتَ ولم تعلمْ بأنك جاهلٌ ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

وأسوأ منه ذاك الذي قال عنه الشاعر :

وما الداءُ إلا أنْ تُعلّم جاهلاً ويزعم جهلاً أنه منك أعلمُ

وأسوأ منهما هو الرجل الذي عرك الحياة وعركته، وغزا الشيب مفرقه، وتقدّم به السن، ومع ذلك بقي جاهلا سفيها طائشا لم يتعلم، كما قال الشاعر :

إنّ الشباب لهم عذرٌ إذا جهلوا وليس يُقبَلُ مِنْ ذي شيبة عذرُ

والطامة الكبرى هي أنْ لا ينتفع الجاهلُ من علم أو حكمة تُسدى إليه، وتضيع جهود معلمه سدى، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله :

ومن يبذل العلم المصون لجاهل فسوف يُلاقي منه قهراً ويندمُ

وقال آخر :

ومَن لم يذقْ ذلّ التعلّم ساعة تجرّع ذل الجهل طول حياته

وقال آخر :

جهْلُ الفتى عارٌ عليه لذاته وخمولهُ عارٌ على الأيام

وقال آخر :

وذو الجهل ميْتٌ وهو ماش علـى الثرى يُظنّ من الأحياء وهـو عـديمُ

وقال آخر:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله فأجســامهم قبــل القبــور قبــورُ

وقال آخر :

وإذا الصديق قسا عليك بجهله فاصفحْ لأجل الـودّ لـيس لأجلـهِ

يُروى أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله كان في مجلسه رجلٌ بدتْ عليه علامات العلم والوقار، وكان الإمام أبو حنيفة جالساً جلسة أدب واحترام، لأن من عادة أبي حنيفة أنْ يوقر العلماء ويُجلهم، ومن ذلك أن لا يمد رجليه بحضورهم، احتراما وحياءً. فوجّه الرجل للإمام سؤالاً وقال: متى يفطر الصائم ؟ فأجابه الإمام: عندما تغيب الشمس. فقال الرجل: وإذا لم تغب ؟!!. عندها نظر إليه الإمام وقال: آن لأبي حنيفة أنْ يمدّ رجله.

ولهذا يقول الشاعر :

ومن الغباوة أنْ تعظّم جـاهلاً لصــقال مَلبســه ورونــق رقشــه

وقد قيل: لئن تموت طالباً للعلم خيرٌ من أنْ تعيش قانعاً بالجهل!.

واعلم أنّ الجهل أوسعُ الأبواب التي ينفذُ منها الشيطان إلى المرء.

والجاهلية هي عدم اتباع ما أنزل الله. ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف ١٣٨].

والعرب كانوا قبل الاسلام في جاهلية أي في جهل وضلال. ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب ٣٣].

ومن صور جاهلية العرب قبل الإسلام ما يلي :

- إذا ولدتْ الناقة خمسة أبطن، وكان الأخير ذكراً، شقوا أذنها وحرموا ذبحها.
- إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم. فإنْ ولدتْ توأما ذكراً وأنثى، قالوا: وصلتْ أخاها، فلا يُذبح الذكر لآلهتهم !!.
- الأزلام هي سهام كانت لهم، مكتوبٌ على بعضها: (أمرني ربي) ، وعلى بعضها مكتوب: (نهاني ربي) . فإذا أراد الرجل سفراً أو عملاً هامّا، أخرج من الجعبة سهماً، فإذا خرج الأمر نفّذ عمله، وإذا خرج النهي لم ينفذ.

- كان أحدهم إذا رُزق بنتاً وأدها، أي دفنها في التراب وهي حيّة. وكان بمكة جبل كانت قريش تئد فيه البنات. ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير ٨، ٩] .
- كان أحدهم إذا خرج إلى سفر، عمد إلى شجرة، فيعقد غصناً منها. فإذا عاد من سفره ووجد الغصن قد انحلّ، قال: قد خانتني امرأتي. وإنْ وجده على حالته، قال: لم تخنّي!!.
- زعموا أنّ الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أنْ يدخلها ونهق كما تنهقُ الحمير، لم يُصبْهُ وباؤها !!.
- زعموا أنّ الرجل إذا ضلّ في الطريق فقلب ثيابه اهتدى.
- كان زواج المقت من سُنتهم، وهو أنّ الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فتزوجها. فإنْ لم يرغب بالزواج منها، زوّجها لبعض إخوته بمهر جديد.
- كان الرجل إذا أراد أنْ ينجبَ ولداً، يقول لامرأته إذا طهرتْ من حيضها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه (أي اطلبي منه الجماع لتنالي به الولد) .
- أولّ منْ أدخل عبادة الأصنام إلى العرب هو عمرو بن لحي أبو خزاعة. سافر إلى الشام، فرأى العماليق يعبدون الأصنام،

فأعجبه ذلك ! فسألهم: ما هذه الأصنام التي تعبدونها ؟ قالوا: هذه أصنامٌ نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا !!. فقال لهم: أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنماً يقال له هبل. جاء به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. وهكذا اتخذ العرب الأصنام وانهمكوا في عبادتها. وكان في كل بيت صنم يعبدونه. فإذا أراد الرجل سفراً، تمسّح به حين يركب، وإذا عاد من سفره، بدأ به قبل أنْ يدخل إلى أهله. وكان صنم العُزى لقريش وبني كنانة، وصنم اللات لثقيف، وصنم مناة للأوس والخزرج !.

تلك كانت بعض أعمالهم ومعتقداتهم في الجاهلية. فجاء الإسلام العظيم، فأخرجهم من جاهليتهم وحوّلهم إلى أعظم أمة عرفتها البشرية.

أسأل الله تعالى أن يعيد الأمة الحالية إلى ما كانت عليه من قوة وعزة وأمجاد !!.

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾

[65] And indeed it has been revealed to you (O Muhammad (peace be upon him)) as it was to those (Allâh's Messengers) before you: "If you join others in worship with Allâh, (then) surely (all) your deeds will be in vain, and you will certainly be among the losers."

[65] En effet, il t'a été révélé, ainsi qu'à ceux qui t'ont précédé: "Si tu donnes des associés à Allah, ton œuvre sera certes vaine; et tu seras très certainement du nombre des perdants.

[65] ""(Dies,) wo dir doch offenbart worden ist, wie schon denen vor dir: ""Wenn du (Allah) Nebengötter zur Seite stellst, so wird sich dein Werk sicher als eitel erweisen, und du wirst gewiß unter den Verlierenden sein.""

(٦٥) المقصود بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ هم الرسل والأنبياء عليهم السلام، فكما قيل للنبي محمد ﷺ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، كذلك قيل لكل واحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام، كما قال الله عنهم: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام ٨٨] . وإذا كان الشرك مُحبطاً لعمل الأنبياء على سبيل الفرض، فهو من باب أولى محبط لعمل غيرهم من الناس.

لنقف قليلاً مع كوكبة من هؤلاء الرسل والأنبياء الكرام، عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام. هؤلاء الذين أوحى الله إليهم، وبلغهم رسالته، وحمّلهم أمانة نشر دينه:

١- آدم [أبو البشر] عليه السلام:

خلقه الله تعالى من طين ونفخ فيه من روحه فصار بشراً، وعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له سجود تكريم لا سجود عبادة، ولكن إبليس رفض السجود. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه ١١٦]. وخلق زوجه حوّاء وأسكنهما الجنة، وأباح الله لهما كل شيء في الجنة إلا شجرة حددها لهما. ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة ٣٥] . لكن إبليس وسوس لهما بالأكل من الشجرة، فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما.

ندم آدم على فعلته واعتذر، وتم إخراجهم من الجنة، ثم هداه الله وتاب عليه. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة ٣٧]. ومن ثم هبط آدم وحواء وإبليس إلى كوكب

الأرض، لتبدأ بذلك الحياة البشرية. ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة ٣٦].

توفي آدم عليه السلام عن عمر يناهز ٩٣٠ سنة.

٢- إدريس عليه السلام :

هو أول نبي بعد آدم وشيث عليهما السلام. ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم ٥٦، ٥٧]. مرّ به النبي محمد ﷺ في السماء الرابعة أثناء رحلة الإسراء والمعراج. وهو أول من خط بالقلم، وكان عالماً بالنجوم وأسرار الفلك.

ولد عليه السلام ببابل ونشأ فيها، ثم هاجر إلى مصر مع أتباعه، وأقام فيها، وأخذ يدعو الناس إلى دين الله تعالى وتوحيده. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

من صفاته عليه السلام: كان تام القامة، حسن الوجه، كث اللحية، عريض المنكبين،، متأنياً في كلامه، كثير الصمت، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير التفكر. وكانت مدة إقامته في الأرض اثنتين وثمانين سنة.

٣- نوح عليه السلام :

هو النبي الثاني بعد آدم، وأول الرسل عليهم السلام. وما بين وفاة آدم وولادة نوح عليهما السلام ١٢٦ سنة.

كان قوم نوح يعبدون الأصنام وهي (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر)، فأرسل الله نوحاً لينذرهم إذا تمادوْا في ضلالهم ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾ [نوح ١].

مكث نوح عليه السلام مدة ٩٥٠ سنة وهو يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى. ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت ١٤].

أمره الله تعالى أنْ يصنع السفينة لتكون وسيلة لنجاته ومن معه من الغرق في الطوفان القادم. ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود ٣٧] ، وأنْ يحمل فيها أهله ما عدا امرأته، وأنْ يرفق معه من كل حيوان وطير زوجين اثنين، وأن يأخذ معه مَن آمن مِن قومه، وكان عددهم أربعين رجلاً وامرأة. ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ

عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود ٤٠]. ولما تمادى قومه في الكفر أهلكهم الله تعالى بالطوفان فانهمرت السماء بمطر شديد، وانفجرت عيون الأرض ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر ١١، ١٢]. وحملت السفينة كل من فيها ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود ٤٢].

وهكذا غرق قوم نوح ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف ٦٤].

٤- هود عليه السلام :

سكنتْ قبيلة عاد وهم قوم هود أرض الأحقاف [شمال حضرموت وجنوب صحراء الربع الخالي) . وكانت لديهم مدنية عظيمة فيها العمران والمصانع والنعيم المقيم. ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء ١٢٨- ١٣٠]. ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر ٦-٨] .

بعث الله فيهم هوداً عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى، والكفّ عن عبادة الأصنام وظلم الناس، فأبوْا واستكبروا وقالوا له: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت ١٥]. ولما خوّفهم من عذاب الله تعالى تحدّوْه وقالوا له: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف ٧٠].

فكانت النتيجة أنْ أهلكهم الله تعالى بأنْ أرسل عليهم إعصاراً مدمّراً، استمر مدة سبع ليال وثمانية أيام ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقة ٦، ٧]. ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف ٢٤، ٢٥].

٥- صالح عليه السلام :

سكنتْ قبيلة ثمود وهم قوم صالح منطقة الحجر [بين الحجاز والأردن قرب خليج العقبة) . وجاءوا بعد قوم عاد. وبرعوا في صناعة النحت، فكانوا ينحتون بيوتهم في صخور الجبال ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ

جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف ٧٤].

وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف ٧٣]. لكنهم طلبوا من صالح عليه السلام آية على صدقه، فأتاهم بالناقة، وطلب منهم أنْ لا يمسوها بسوء ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف ٧٣]. إلا أنّهم نقضوا العهد، وعقروا الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود ٦٥].

بعد انقضاء المهلة، دمّرهم الله تعالى بالصاعقة ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات ٤٣، ٤٤].

٦- إبراهيم عليه السلام :

ولد إبراهيم في العراق وبينه وبين ولادة نوح ٨٩٠ سنة، وهذا يعني أنه عاصر نوحاً ما يقرب من ستين سنة.

عبد قومُه الأوثان، وكان أبوه نجاراً يصنع الأصنام ويبيعها للناس، فقام إبراهيم عليه السلام بتحطيمها فعاقبه قومه بإلقاءه في النار ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء ٦٨] . فأنجاه الله تعالى بأنْ عطّل خاصية الإحراق لتلك النار ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء ٦٩]. ومع ذلك رفض القوم دعوة إبراهيم عليه السلام، وقاطعوه، وهدّده أبوه بالرجم، ولم يؤمن من قومه سوى امرأته سارة وابن أخيه لوط. فتبرأ من أبيه، ولم يعد يرغب في الإقامة بين أهله وقومه، فقرر الهجرة مع امرأته وابن أخيه إلى مدينة (أور) غرب نهر الفرات، ثم إلى فلسطين﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت ٢٦] .

ثم هاجر عليه السلام بعد ذلك إلى مصر في عهد الهكسوس (الملوك العماليق) . واتفق إبراهيم ولوط عليهما السلام على أنْ يفترقا في مكان الإقامة، فذهب لوط إلى بلدة (سدوم) في الأردن

(موقع البحر الميت الآن) ، وبقي إبراهيم في مصر. وأهدى ملك مصر لسارة جارية اسمها هاجر.

رجع إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين مع سارة والجارية هاجر، وكانت سارة عاقراً لا تلد، فتزوج إبراهيم من هاجر، وأنجب منها إسماعيل عليه السلام. أما سارة فأنجبت بعد أنْ تقدّم بها العمر ولداً هو إسحاق عليه السلام، وكان عمرها تسعين سنة ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود ٧١، ٧٢] .

سافر إبراهيم عليه السلام إلى مكة مع هاجر وطفلهما الرضيع إسماعيل. وتركهما بواد مجدب قرب البيت، ولم تكن الكعبة مبنية. ثم عاد إلى فلسطين، وفي طريقه دعا الله بهذا الدعاء: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم ٣٧] .

كان عليه السلام يزور هاجر وإسماعيل بين الحين والآخر. وفي إحدى الزيارات أمره الله تعالى ببناء الكعبة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ

ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة ١٢٧]

كان إبراهيم عليه السلام يحب إكرام الضيف، وكان رقيق القلب، وكان يحب الاستطلاع، وهو أول من سمانا المسلمين، وهو أول من أحيا سنة الختان بأمر من الله تعالى. توفي إبراهيم عليه السلام عن عمر يناهز ١٧٥ سنة، ودفن في مدينة الخليل.

٧- لوط عليه السلام :

كان أهل سدوم (مكان البحر الميت) ذوي أخلاق سيئة، لا يخجلون ولا يتعففون من الإتيان بالمعاصي والمنكرات ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت ٢٩]

وقد نصحهم لوط عليه السلام ونهاهم وخوّفهم من عذاب الله تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[الأعراف ٨٠] . ولكنهم لم يرتدعوا.

وحدث أنْ جاء ثلاثة من الملائكة لزيارة لوط، وكانوا بهيئة غلمان حسان الوجوه. ما أنْ علم أهل القرية بهذه الزيارة حتى

جاءوا إلى بيت لوط ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود ٧٧، ٧٨] . وما أنْ اقتحموا المنزل حتى طمس الله أعينهم ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر ٣٧].

أخرجتْ الملائكة لوطاً وابنتيه وامرأته من القرية وأمروهم أنْ لا يلتفت أحدٌ منهم إلى الوراء، فأطاعوا الأوامر إلا امرأته فإنها التفتتْ إلى القرية، وكانت كافرة، فحلّ بها من السخط والعذاب ما حلّ بهم ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود ٨١] .

وهكذا دمّر الله تعالى قرية سدوم بأنْ أمطر عليها حجارة من سجيل، وقلبها فجعل عاليها سافلها ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود ٨٢] .

٨- يوسف عليه السلام :

كان يوسف عليه السلام محبوباً لدى أبيه، وكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه، فأضمروا له الشر، وقالوا لأبيهم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف ١١]

أجمع إخوته على أنْ يتركوه داخل البئر ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يوسف ١٥]. فجاءت قافلة، وأنقذوه من الجب، ثم باعوه في مصر. وقد اشتراه العزيز وزير الملك حيث أسكنه في بيته وقال لامرأته﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [يوسف ٢١] .

وقد تعرّض يوسف عليه السلام في بيت العزيز لمحنة قاسية كانت سببها امرأة العزيز، وبفضل الله تعالى خرج منها منتصراً ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف ٢٤]

ورغم براءته فقد قرر العزيز بالتآمر مع امرأته ومستشاريه إدخال يوسف عليه السلام السجن ظلماً وعدواناً ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا

رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف ٣٥] . ثم فرّج الله عنه، فخرج من سجنه معززاً مكرّماً. وجعله ملك مصر على خزائن البلاد. وكان عمره في تلك الآونة ثلاثين سنة. ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف ٥٥، ٥٦]

ولما حضر إخوة يوسف إلى مصر لشراء القوت، التقى بهم، وجمع الله شملهم مع والديهم، وتوجّه يوسف إلى الله بهذا الدعاء: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف ١٠١] . توفي عليه السلام عن عمر يناهز ١١٠ سنة.

٩- شُعيب عليه السلام :

سكن قوم شعيب (مدين) من أرض الحجاز، وكانوا أهل تجارة وثراء، ومع ذلك عبدوا غير الله تعالى، وفعلوا الموبقات، فكانوا

يطففون الكيل والميزان ! وكان شعيب عليه السلام ينهاهم ويخوفهم من عذاب الله ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود ٨٤]. ورغم هذا هدّدوه بالإبعاد عن قريته هو ومن آمن معه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف ٨٨].

وفي نهاية المطاف سلّط الله عليهم زلزالاً مدمّراً (الرجفة) فهلكوا جميعاً، ونجّى الله شعيباً ومن آمن معه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأعراف ٩١] .

١٠- موسى عليه السلام :

بقي أبناء يعقوب عليه السلام (بنو إسرائيل) في مصر، وتكاثروا، وكان يُطلق عليهم (العبرانيون) . وحكم مصر في تلك الآونة ملكٌ هو (فرعون)، فخشي من تكاثر بني إسرائيل واتساع نفوذهم وامتلاكهم للسلطة، فقرر أنْ يقتل كل ذكر من أولادهم. وأما البنت

فتبقى! ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة ٤٩] . وقد أراد الله سبحانه وتعالى أنْ يُخلـّص بني إسرائيل من هذا الإضطهاد، فأمر موسى عليه السلام أنْ يذهب إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤)﴾ [طه ٢٤] . وآزره برفقة أخيه هارون ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص ٣٥]. ولمّا دخلا عليه قال موسى: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)﴾ [الأعراف ١٠٤، ١٠٥].

وقد أيّده الله عز وجل بالآيات المعجزة، منها العصا التي انقلبت ثعباناً خلال الحفل الحاشد في يوم الزينة، فابتلعتْ جميع الحبال والعصي التي ألقاها السحرة ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ [طه ٦٩] . حيث دُهش آل فرعون من هذا المشهد، وأدرك السحرة أن ما فعله موسى

ليس من قبيل السحر، وإنما هي القدرة الإلهية، فخرّوا لله ساجدين ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه ٧٠] . ومع ذلك تمادى فرعون في كفره، وأصر على الكبر والعناد، وهدّد موسى بالقتل ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر ٢٦].

عندئذ أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى أنْ يأخذ معه بني إسرائيل ويخرج بهم من مصر: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه ٧٧] . وصل موسى وقومُه إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، ولحق بهم فرعون وجنوده، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشعراء ٦٣]، وما أنْ عبر بنو إسرائيل البحر نحو الشاطيء الشرقي حتى انطبقت مياه البحر على فرعون وجنوده ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء ٦٥، ٦٦] .

انتهى فصلٌ مرير من معاناة موسى عليه السلام مع آل فرعون، ليبدأ مع قومه معاناة أشد مرارة !!. فبعد أنْ وصلوا شبه جزيرة سيناء حدث ما يلي :

- طلبوا الماء للشرب فهيأ الله تعالى لهم اثنتي عشرة عيناً: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف ١٦٠]
- ساق الله من أجلهم الغمام ليظلهم من حرّ الشمس، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف ١٦٠] . لم يعجبهم هذا الطعام، فطلبوا طعاماً آخر: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾ [البقرة ٦١].
- رغم هذا الفضل من الله تعالى، فقد طلبوا من موسى أنْ يجعل لهم إلهاً يعبدونه !! ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ

قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف ١٣٨].

- عبدوا تمثال العجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب الذي كان معهم، وذلك أثناء غياب موسى عنهم حين ذهب إلى جبل الطور لميقات ربّه ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف ١٤٨].
- رفضوا الامتثال لأمر موسى عليه السلام حين طلب منهم دخول الأرض المقدسة لتحريرها من الأمم الأخرى وقالوا له: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة ٢٤].
- تلكّأوا وماطلوا في ذبح البقرة حين أمرهم موسى عليه السلام بذلك: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة ٧١].
- طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الله تعالى عياناً وقالوا له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة ٥٥].

لأجل كل ما تقدّم، فقد ابتلاهم الله تعالى بجملة من العقوبات لعلّهم يرتدعون. من هذه العقوبات :

- أرسل الله عليهم الصاعقة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة ٥٥، ٥٦]
- رفع الله فوقهم جبل الطور كأنّه ظُلّة ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف ١٧١].
- أوحى الله تعالى إلى موسى أنّ توبتهم هي أنْ يقتل بعضهم بعضاً، ففعلوا، حتى مات منهم عدد كبير ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة ٥٤].
- تاهوا في البريّة مدة أربعين سنة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [المائدة ٢٦]
- أصبحت قلوبهم قاسية ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ﴾ [البقرة ٧٤].

- حلّ بهم غضب الله تعالى ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة ٦١].

وموسى عليه السلام هو أحد أولي العزم من الرسل، وهو كليم الله تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء ١٦٤]، وذهب إلى جبل الطور، ومكث فيه ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، وذلك من أجل أنْ يُكلّم ربه ويتلقى منه الألواح (أسفار التوراة) . ومات بعد أخيه هارون عليهما السلام.

١١- داود عليه السلام :

آتاه الله تعالى النبوة والمُلك في بني إسرائيل، وأنعم عليه نعماً عظيمة، فسخّر الجبال يسبحن معه صباحا ومساء، وعلمه منطق الطير، وألان له الحديد، وأعطاه الزبور﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص ١٧-٢٠].

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء ١٦٣] . وكان عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يوماً. كانت فترة مُلكه أربعين سنة.

١٢- سليمان عليه السلام :

صار ملكاً بعد أبيه داود عليه السلام. آتاه الله الحكمة وأنعم عليه بنعم عظيمة، فسخّر له الرياح يصرفها بقدرته كيف يشاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص ٣٦] . وسخّر له الجن تطيعه وتنفذ أوامره ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [سبأ ١٢]. وكان عليه السلام أول من صهر النحاس ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ [سبأ ١٢] . كما سخّر الله له الطير يخاطبها ويفهم لغتها، ومن ذلك قصة الهدهد وملكة سبأ. وكان عليه السلام يدعو إلى دين الله وتوحيده، فدعا ملكة سبأ في اليمن وقومها إلى الإيمان بالله، فآمنتْ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل ٤٤]، وذلك بعدما شاهدتْ من مظاهر القوة والعبقرية ما يُبهر الألباب، ومن ذلك الصرح العظيم الذي بناه لها سليمان عليه السلام.

١٣- أيوب عليه السلام :

قيل بأنه عاش قبل إبراهيم بنحو مئة سنة. كان قبل النبوة عبداً صالحاً، ابتلاه الله تعالى في ماله ونفسه وأهله، فصبر صبراً جميلاً،

فعوّضه الله تعالى بالصحة والعافية، وآتاه أكثر مما فقد من مال وولد، وأثنى الله عليه بأحسن الثناء، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء ٨٣، ٨٤]

١٤- يونس عليه السلام :

ورد ذكره في القرآن الكريم في عدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء ٨٧] . وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم ٤٨]

ابتلعه الحوت فكان يدعو الله ويسبحه، حتى نُبذ على ساحل البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

(١٤٤) ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦)﴾ [الصافات ١٤٢-١٤٦]. بعثه الله تعالى بعد ذلك إلى قرية نينوى، وكان عدد سكانها مئة ألف نسمة أو أكثر، فدعاهم إلى الإيمان بالله فآمنوا: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾ [الصافات ١٤٧، ١٤٨] .

١٥- زكريا عليه السلام :

عاش قبل مجيء المسيح بنحو ثلاثة قرون. وهو الذي تكفّل بتربية مريم ورعايتها بعد وفاة أبيها عمران وهي صغيرة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران ٣٧] . وكان زكريا يسأل مريم كلما رزقها الله برزق فيقول لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فتقول له ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران ٣٧] .

كان زكريا عليه السلام قد تقدّم به العمر، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، فتمنى إنجاب ولدٍ يخلفه من بعده في الدعوة إلى الله وخدمة بيته، فتوجه إلى الله بالدعاء أنْ يحقق له تلك الأمنية ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨)﴾

[آل عمران ٣٨]. واستجاب الله دعاءه ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران ٣٩] . وهكذا حملت امرأته بيحيى. ومن ثم كان يحيى نبياً ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾[مريم ١٢-١٥]

١٦- عيسى عليه السلام :

هو آخر الأنبياء في بني إسرائيل. الفترة بينه وبين محمد ﷺ نحو خمسة قرون. ولد عيسى عليه السلام من غير أب بقدرة الله تعالى الذي أوجد آدم من غير أب ولا أم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران ٥٩]. وأمّه هي مريم عليها السلام، حملتْ به حين نفخ الملك في جيبها.

ورد ذكر عيسى في القرآن الكريم تارة بلفظ (عيسى بن مريم) وتارة أخرى بلفظ (المسيح) . كلّم الناس وهو في المهد وقال لهم:

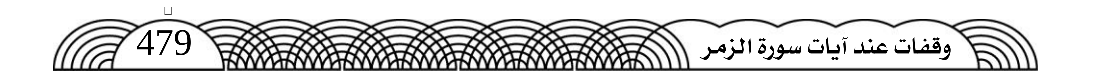
﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم ٣٠-٣٣]. تلقى النبوّة وهو في الثلاثين من عمره، وأنزل الله عليه الإنجيل، وهو كتاب تضمن الهدى والنور ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة ٤٦]. أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل بعد أنْ قست قلوبهم، وحرّفوا شريعة الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام من قبل، ولم يؤمن بعيسى سوى عدد قليل ومنهم الحواريون وهم أنصاره الذين سارعوا في الإيمان وآزروه، فاختارهم عيسى ليكونوا تلاميذه، وكانوا اثني عشر رجلاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف ١٤].

أيّد الله سبحانه وتعالى نبيه عيسى عليه السلام بالمعجزات مثلما أيّد رسلاً من قبله. ومن تلك المعجزات أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. ومنها كذلك أنّه يُبريء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة ١١٠].

وخاتمة عيسى عليه السلام هي أنه لم يُقتلْ ولم يُصلبْ، وإنما رفعه الله تعالى إليه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء ١٥٧، ١٥٨] .

صلوات الله وسلامه على نبينا محمد وعلى أولئك الرسل الكرام، طلائع الموكب الإيماني على مدار الأجيال والقرون.

أسأل الله تعالى أنْ يجمعنا بهم في مستقر رحمته.



[66] Nay! But worship Allâh (Alone and none else), and be among the grateful.

[66] Tout au contraire, adore Allah seul et sois du nombre des reconnaissants".

[66] "Nein, diene denn Allah und sei einer der Dankbaren.

(٦٦) الوقفة هنا عند الشكر :

أمر الله تعالى الناس أنْ يشكروه. والآيات التي تحث على الشكر في القرآن كثيرة :

- ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾[البقرة ١٥٢]
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) ﴾ [البقرة ١٧٢]
- ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾ [النحل ١١٤]
- ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٥]

- ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم ٧]

إنّ عدم شكر الله تعالى خسّة ونذالة. إنّك لو أكرمتَ شخصا فأستضفته في بيتك وأطعمته وأسقيته وأغدقت عليه بالمال والهدايا، ثم هو بعد ذلك تنكّر لك، وأشاح بوجهه عنك، ونسي كل هذا المعروف، ماذا يكون موقفك منه ؟ لا شك أنّ انشقاق الأرض وابتلاعَها له أفضل من بقاءه على ظهرها !!. فكيف بمَنْ خلق من عدم، ورزق وأعطى ورعى ووهب ؟ ثم تجد أناساً يأكلون من خيره، ويسكنون في أرضه ويتنعمون بفضله وكرمه وعطاياه، ثم يكفرون به، ويجحدون نعمه، ويحاربون دينه وأولياءه، ويظلمون الناس ويتكبرون في الأرض بغير حق. إنّ هؤلاء يمشون فوق تراب لو نطق لاشتكى منهم. إنّ هؤلاء وأمثالهم عبء ثقيل على الحياة، إنّ في موتهم راحة لجميع الكائنات حتى الجمادات، وفي الآخرة هم حطب جهنم.

إنّ كفر النعمة والإعراض عن شرع الله والظلم والفساد والترف والبطر والربا والزنا من عوامل زوال النعم ونزول العذاب. والأمثلة على ذلك كثيرة :

- قصة سبأ مثال على ذلك. هذه البلدة كانت مزدهرة ثم صارت خرابا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ

وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ ١٥- ١٧]

- كم من أمة، وكم من شعب، وكم من دولة كان مساؤها نعيماً وعيْشاً لاهياً، ثم صار صبحُها عذاباً وتشريداً وجوعاً وخوفاً : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل ١١٢].

- كان أحدُ أمراءُ إشبيلية في الأندلس يعيش حياة مترفة غاية في التنعّم واللذة. طيبات الدنيا تُجلب إليه. اشتهتْ زوجته ذات يوم أنْ تخوض في الطين، ونفّذ رغبتها. نُثر التراب في ساحة القصر، ثم عُجن بماء الورد كي تخوض فيه زوجه. كانت حياتها حياة مرح ولذة وبهجة، فهل دامت لهم تلك المباهج والمتع ؟

دارت الدائرة عليه، فسلّط الله عليه قوات المرابطين وصفّدوه بالأغلال، واستُذل بنوه وبناته !. وفي يوم من أيام سجنه ببلدة أغمات، دخلتْ عليه بناته في يوم العيد وهنّ في ثياب رثة، ومعهنّ المغازل يغزلن بها للناس كي يحصلن على بعض القوت. فقال معاتباً نفسه بأبيات من الشعر:

فيما مضى كُنتَ بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
بعدك في مُلْكٍ يُسرّ به فإنما بات بالأحلال مغرورا

والشكر هو شكر القلب وشكر اللسان وشكر الجوارح. وفي سيرة النبي ﷺ، وسيرة السلف الصالح من مظاهر الشكر ودلائل الحمد ما يملأ النفس بهجة وسرورا :

- كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من النوم يقول: " الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره" وكان إذا انتهى من الطعام يقول: " الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ". وكان إذا لبس ثوباً جديداً يقول: " الحمد لله الذي كساني هذا ورزقني إيّاه من غير حول مني ولا قوة. وكان إذا عاد من السفر يقول: " آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون. "

- وقال رسول الله ﷺ: " مَن لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ".
- قال أبو هارون: دخلتُ على أبي حازم فقلتُ له: يرحمك الله، ما شكرُ العينين ؟ قال: " إذا رأيت بهما خيراً ذكرتَه، وإذا رأيتَ بهما شراً سترته. " قلتُ: فما شكرُ الأذنين ؟. قال: " إذا سمعتَ بهما خيراً حفظته، وإذا سمعتَ بهما شراً نسيته.
- وقيل جعل الله لعباده علامة يُعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر. وإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه، وماله في نقصان، علمنا أنه قد أخلّ بالشكر، إما أنه لا يزكي ماله، أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته.
- وقال بعض الحكماء: مَنْ أعطى أربعاً، لم يُمنعْ من أربع. من أعطى الشكر لم يُمنع المزيد. ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول. ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة. ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب.
- وقال أحد الصالحين: " ما أنعم اللهُ على عبد نعمة، فعلم أنها من الله، إلا كتب الله له شكرَها قبل أنْ يحمدَه عليها !!."
- وقال الشاعر :

ولو أنّ لي في كل منبت شعرة لساناً يُطيلُ الشكر كنتُ مقصرا

● وأنشد آخر مناجياً ربّه :

أوليتني نعمـاً أبــوحُ بشـكرها وكفيــتني كــل الأمــور بأسرهـــا
فلأشكُرنّك ما حييتُ وإنْ أمُـتْ فلتشــكرنّك أعظُمــي في قبرهـــا

● وقال آخر :

إلهي لك الحمدُ الذي أنت أهلـه على نعم ما كُنتُ قـط لهـا أهــلا
إن ازددتُ تقصيراً تزدني تفضلا كأني بالتقصير أستوجبُ الفضــلا

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[67] They made not a just estimate of Allâh such as is due to Him. And on the Day of Resurrection the whole of the earth will be grasped by His Hand and the heavens will be rolled up in His Right Hand. Glorified is He, and High is He above all that they associate as partners with Him!

[67] Ils n'ont pas estimé Allah comme Il devrait l'être alors qu'au Jour de la Résurrection, Il fera de la terre entière une poignée, et les cieux seront pliés dans Sa (main) droite. Gloire à Lui! Il est au-dessus de ce qu'ils Lui associent

[67] Und sie haben Allah nicht richtig nach Seinem Wert eingeschätzt. Und am Tage der Auferstehung wird die ganze Erde in Seinem Griff sein, und die Himmel werden in Seiner Rechten zusammengerollt sein. Preis (sei) Ihm! Hoch Erhaben ist Er über das, was sie anbeten.

(٦٧) يقول علماء الفلك: إن هذا الكون في شكله المنظور يتألف من وحدات هي " المجرات"، والمجرة عبارة عن مجموعات لا تعد ولا تحصى من النجوم والكواكب. ونظراً لهول المسافات التي تفصل بين النجوم وبين المجرات فإن هذه المسافات تقاس بالسنوات الضوئية، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في مدة سنة واحدة، والضوء أسرع ما عرف الإنسان (سرعة الضوء = ٣٠٠,٠٠٠ كم/ الثانية) .

فما بالك بالمسافة التي يقطعها الضوء في دقيقة واحدة ؟ إنها تساوي ١٨ مليون كم (لاحظ أن الضوء يقطع في مدة ٨ دقائق مسافة ١٥٠ مليون كم وهي المسافة بيننا وبين الشمس).

فما بالك بالمسافة التي يقطعها الضوء في ساعة ؟. . بل في يوم؟.. في شهر ؟.. بل ما بالك بالمسافة التي يقطعها الضوء في سنة ؟.. (إنها السنة الضوئية) إنها مسافة تدير الرؤوس !!..

هل تعلم أن أقرب سديم إلينا يبعد عنا مسافة مقدارها ٧٥٠ ألف سنة ضوئية ! بل إن العلماء رصدوا بواسطة جهاز المطياف مجرة تدعى (إندروميدا) والتي تبعد عنا مسافة ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية!!.

فكيف لو علمتَ أن طول المجرة التي نسكن أحد كواكبها يساوي (مئة الف مليون سنة ضوئية!!) ؟

بل اسمح لي أيها القاري الكريم أن أطلعك على حدث أوردته وسائل الإعلام المختلفة، وقف العلماء حياله مشدوهين مذهولين :

"شاهد العلماء مؤخراً ومن خلال تلسكوب (سويفت) أبعد إنفجار كوني على الإطلاق، وهذا الإنفجار كان لأشعة "غاما"، بحيث أصدر طاقة هائلة في دقائق معدودة تعادل ما تصدره شمسنا خلال ١٠ مليارات سنة !!.

ففي يوم ٤/ ٩/ ٢٠٠٥ تمت مشاهدة الانفجار واستمر ٣ دقائق (من رحمة الله تعالى أن هذا الانفجار حدث بعيداً عنا) وقد قدر العلماء بُعد الانفجار عن كوكب الأرض بما يعادل ١٣ مليار سنة ضوئية !!!. إنها مسافة يعجز الدماغ تصورها !!. حقاً: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة ٧٥،٧٦] .

ومجرتنا وتدعى (درب التبانة) هي من المجرات الصغيرة نسبياً، وإن سماءنا الدنيا تتكون من ملايين المجرات، فكيف بباقي السماوات؟! فسبحان الذي بكلمة منه كان كل ذلك.

والأرض التي يسكنها الإنسان هي أحد الكواكب التابعة للشمس. والأرض هذه بالنسبة إلى مجرتنا " درب التبانة " كحبة رمل بالنسبة إلى الصحراء الكبرى !!.

هذه السماوات بما فيها من أجرام ومجرات وكذلك الأرض تكون جميعها في قبضة الله تعالى يوم القيامة، وسوف يطويها الله عز وجل يوم القيامة كطي السجل للكتب: ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الانبياء ١٠٤]

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

[68] And the Trumpet will be blown, and all who are in the heavens and all who are on the earth will swoon away, except him whom Allâh wills. Then it will blown a second time, and behold they will be standing, looking on (waiting).

[68] Et on soufflera dans la Trompe, et voilà que ceux qui seront dans les cieux et ceux qui seront sur la terre seront foudroyés, sauf ceux qu'Allah voudra (épargner). Puis on y soufflera de nouveau, et les voilà debout à regarder.

[68] Und in den Sur wird gestoßen, und alle, die in den Himmeln sind, und alle, die auf Erden sind, werden tot niederstürzen; mit Ausnahme derjenigen, die Allah (ausnehmen) will. Dann wird wiederum in den Sur gestoßen, und siehe, da stehen sie auf und schauen zu.

(٦٨) تشير هذه الآية الكريمة إلى النفختين :

- نفخة الصعق: أي الموت في الحال، حيث يموت كل من في السماوات من ملائكة، ومن في الأرض من إنس وجن، باستثناء الملك المكلف بالنفخ في الصور ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ ولكن الله تعالى يميته بعد أداء مهمته.
- ونفخة البعث: حيث تبعث جميع الخلائق من جديد، يخرجون من قبورهم واقفين على أرجلهم ينظرون !!.

وفيما يلي بعض الحقائق حول مسألة البعث بعد الموت:

- تعجّب كفار قريش في عهد النبي عليه الصلاة والسلام من إعادة الخلق بعد الموت ! وتساءلوا باستغراب: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ [الإسراء ٥١] . أجابهم القرآنُ بالعقل والمنطق: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء ٥١].
- جاء الوليد بن المغيرة إلى الرسول ﷺ، وكان يحمل رفات عظام بليتْ ورمّتْ وقال: أتزعم يا محمد أنّ ربك قادرٌ على أنْ يحيي هذه العظام بعدما بليتْ ورمّتْ ؟ فقال له النبي ﷺ: "نعم ويدخلك النار " فنزل قول الله تعالى مجيباً على سؤاله بأسلوب موضوعي وعقلاني: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس ٧٨، ٧٩]
- بيّن رسول الله ﷺ قضية البعث في حديث يعدّ من معجزات النبوّة. قال عليه الصلاة والسلام: " ما بين النفختين أربعون سنة، ثم يُنزلُ اللهُ من السماء ماءً، فينبتون كما ينبتُ البقل، إلا عظماً واحداً هو عَجْبُ الذنب، ومنه يُركّبُ الخلقُ يوم

القيامة " [رواه البخاري ومسلم] . وفي رواية أخرى: " كلُّ بني آدم يأكله الترابُ إلا عَجْبَ الذنَبِ منه خُلق ومنه يُركّب".

- عجْبُ الذنب هو الجزء الأخير من العمود الفقري لدى الإنسان (عظمة العصعص) . أثبت العلم الحديث أنّ أجزاء الجنين تبدأ بالتكوّن من هذا الجزء. يقول علماء الأجنّة: " إنّ الجنين ينبثق في الأيام الأولى من تكوينه، منْ شريط يسمى الشريط الأوّلي [Primitive Streak] . هذا الشريط يضمر في الأسبوع الثالث من عمر الجنين ويصبح مُركزاً في عجب الذنب ". مَنْ أخبر محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الحقيقة حين قال: " منه خلق ومنه يُركب"؟!!.
- يبيّنُ لنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث أنّ الله تعالى إذا أراد بعث الناس من قبورهم يوم القيامة، ينزلُ من السماء مطراً خاصّاً، فينبتُ كلُّ مخلوق (مِنْ عجْبِ ذنبهِ) كما تَنْبُتُ البقلةُ منْ بذرتها!! وتقترنُ كل روح بجسدها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ [التكوير ٧] . أي اقترنتْ كل روح بالجسد الخاص بها!!. وبهذا يُعاد الخلق مرة ثانية، كما

بُدءَ أول مرة بقدرة الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٤].

ولك أنْ تتصوّر خروج الناس منْ قبورهم في ذلك اليوم المشهود! ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر ٧] . ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾[ق ٤٤].

تصوّرْ مشهد تشقق الأرض عن هذه الخلائق التي لا يعلم عددها إلا الله تعالى. تصوّرْ نهوضهم من القبور التي تعاقب فيها الموتى عبر القرون والأزمان وأنا وأنت منهم، كما قال الشاعر :

رُبّ قبر قد صار قبراً مراراً ضاحكٍ منْ تزاحم الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفين في طويلِ الآجالِ والآماد

ويبقى سؤال: لماذا البعثُ يوم القيامة ؟.

والقرآن يُجيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل ٣٨، ٣٩].

ليبين مَنْ كان في الدنيا على حق، ومن كان على باطل !.

ليعلم الكافرون والمنافقون في كل زمان ومكان أنهم كانوا على خطأ.

كي يُجازى المسيءُ على إساءته، ويكافأ المحسنُ على إحسانه.

كثيرٌ من الذين ارتكبوا جرائم حرب ضد الأبرياء، لم تنلهم يدُ العدالة في الدنيا. هل من العدل أن تذهب جرائمهم أدراج الرياح ودون عقاب ؟ ألا يكونُ لهم يومٌ بعد الموت، يلقوْن فيه الجزاء على ما اقترفتْ أيديهم ؟!.

كذلك الأبرياء الذين ظُلموا وعُذبوا وذُبح أبناؤهم وانتهكتْ أعراضهم وهدّمتْ منازلهم وسُلبتْ أموالهم، ثم ماتوا ولم يُنصفوا. ألا يكونُ لهم يومٌ يُنْصفون ويُجزوْن فيه على صبرهم ؟!!.

بلى والله. . مَنْ ظـُلم في الدنيا أُنصف هناك، ومَنْ جار وظَلم في الدنيا عوقب هناك. ورحم الله القائل :

إلى ديّـان يـوم الـدين نمضـي وعنـــد الله تجتمـــعُ الخصـــومُ

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحداثاً جساماً تمس بنية الكون، تقع قبل موعد النفختين، أي تقع والناس مازالوا أحياء على سطح الأرض يمارسون أعمالهم. من هذه الأحداث:

الزلزال العظيم، الذي أشارت إليه سورة الزلزلة وأوائل سورة الحج. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ ففي الآية: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ دليل على أن الإنسان موجود لحظة وقوع الزلزال يسأل: ما الأمر ؟ ماذا حدث ؟.

ويصاب الناس بالفزع والرعب الشديدين لدرجة أن المرضع تترك طفلها، والحامل تسقط ما في رحمها. !! قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج ١] .

وفي المجمل نستطيع أن نلخص المراحل التي تمر بها البشرية في رحلتها إلى العالم الآخر بمراحل ست :

- علامات الساعة الكبرى. ومنها طلوع الشمس من المغرب، وهذا يعني انعكاس دوران الأرض حول محورها ليصبح باتجاه عقارب الساعة. (أتجاه الدوران الحالي بعكس عقارب الساعة)
- الزلزال العظيم وتخريب منظومة الكون.
- النفخ في الصور (نفختان: نفخة الصعق ثم نفخة البعث) .
- الحشر وتجميع الخلائق على أرض محددة. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن ٩]
- الحساب وعرض الأعمال. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [الزلزلة ٦]
- الجزاء وخاتمة المطاف. إما إلى الجنة وإما إلى النار ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ (الشورى ٧)

أسأل الله تعالى أن يرحمنا في ذلك اليوم العصيب.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

[69] And the earth will shine with the light of its Lord (Allâh, when He will come to judge among men): and the Book will be placed (open); and the Prophets and the witnesses will be brought forward; and it will be judged between them with truth, and they will not be wronged.

[69] Et la terre resplendira de la lumière de son Seigneur; le Livre sera déposé et on fera venir les prophètes et les témoins; on décidera parmi eux en toute équité et ils ne seront point lésés;

[69] Und das (Versammlungs-) Gelände wird erstrahlen im Lichte seines Herrn, und das Buch wird vorgelegt, und die Propheten und die Zeugen werden herbeigebracht; und es wird zwischen ihnen in Gerechtigkeit gerichtet werden, und sie sollen kein Unrecht erleiden.

(٦٩) ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ :

صنفان من الناس سوف يتم استدعاءهم من أجل الإدلاء بشهادتهم أمام محكمة العدل الإلهية: الأنبياء والشهداء. والله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى الشهادة فهو خير الشاهدين، ولكن الغرض هو إقامة الحجة على الناس.

والوقفة التالية عند الشهداء :

الشهداء جمع شهيد، والشهيد كما عرفه النبي ﷺ هو مَن قاتل في سبيل الله. ولما سألوه: أي القتال في سبيل الله؟

قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ".

ومعنى الشهيد: أن الله تعالى يَطلب منه في الدنيا أداء الشهادة على أن الإسلام هو الحق، فيشهد، فتكون شهادته بأنْ يُقتَل !!.

ولهذا قال العلماء: للشهيد شروط منها أن يكون المقتول مسلماً.

والشهداء أحياء ولكننا لا نشعر، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة ١٥٤].

وهم ليسوا أحياء فحسب، بل ويرزقون أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران ١٦٩].

بل ويشعرون بالفرح: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران ١٧٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ [الحديد ١٩] أشارت الكلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلى قرب الشهداء من الله!!.

ورد في الصحيحين: " أنَّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرحُ في الجنة حيث شاءتْ".

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد ٤-٦] بشارة عظيمة من الله تعالى لهم.

وذكر لنا رسول الله ﷺ أن الشهيد يُمنح ستَّ خصال هي :

- عند أوّل قطرة من دمه، تُكفّر عنه كل خطيئة.
- يَرى مقعدَه من الجنة.
- يُزوّج من الحور العين.
- يَأمن منْ عذاب القبر.
- يَأمن منَ الفزع الأكبر.
- يُحلـّى حُلة الإيمان.

والشهيد لا يُغسَّل ولا يُكفّن، بل يُدفن بدمائه وملابسه. أما الصلاةُ على الشهيد، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قد صلى على الشهداء، وثبت أنه لم يُصلّ على شهداء آخرين. فكلا الأمرين جائز.

ومن كرم الله عز وجل وعظيم هذا الدين، أنه وَسّع دائرة الشهادة لتشمل أنواعاً سبعة. لأنه عندما سَأل الرسولُ ﷺ أصحابَه

وقال: " ما تَعدّونَ الشهيدَ فيكم ؟ قالوا: يا رسول الله، مَنْ قُتل في سبيل الله فهو شهيد. قال لهم: إنّ شهداءَ أمتي إذنْ قليل. قالوا: فمن هم يا رسول الله ؟ قال: المطعون شهيد (أي الذي يموت بسبب الطاعون) ، والغريق شهيد، والمبطون شهيد (أي الذي يموت بمرض البطن) ، وصاحب الحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة (أي التي تموت عند الولادة) ".

قال العلماء: المراد بشهادة هؤلاء أنهم يكون لهم في الآخرة ثواب الشهداء، أما في الدنيا فيغسّلون ويكفنون ويُصلى عليهم.

أسأل الله تعالى أن يبلغنا نُزُلَ الشهداء.



[70] And each person will be paid in full of what he did; and He is Best Aware of what they do.

[70] et chaque âme sera pleinement rétribuée pour ce qu'elle aura œuvré. Il (Allah) connaît mieux ce qu'ils font.

[70] Und jedem von ihnen wird voll vergolten werden, was er getan hat; und Er weiß am besten, was sie tun.

(٧٠) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ :

- يُنصب يوم القيامة ميزانُ عدل مطلق، بحيث لن يضيع أي عمل مهما صغر حتى لو كان بمقدار ذرة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾
- لن ينفع أحدٌ أحداً، ولا تملك نفسٌ لنفس شيئا: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار ١٩].
- الحكمة الإلهية في الآخرة قاضيها هو ربُّ العالمين سبحانه وتعالى، والبيّنات فيها ثلاث: شهادة الأنبياء، وشهادة الملائكة الذين كانوا يُدوّنون الأعمال، وشهادة أعضاء الجسم: ﴿يَوْمَ

تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور ٢٤].

- تُنشر صحف الأعمال وتُوزّعُ على الناس. ويتسلم كل فرد كتاب أعماله التي عملها في الدنيا ليقرأه ويعرف ما فيه: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء ١٣، ١٤].
- يُناوَل كلُّ فرد كتابَ أعماله إمّا بيمينه وإمّا بشماله. فإذا تسلّم المرء كتابه بيمينه، فسوف يفرح فرَحا شديدا ويقول بصوت عال أمام الجموع: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة ١٩، ٢٠] . وإذا تسلّم كتابه بشماله أو وراء ظهره، فسوف يغتمّ غمّاً شديدا ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة ٢٥-٢٩]

أسأل الله تعالى أن يؤتينا كتب أعمالنا بأيماننا.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾

[71] And those who disbelieved will be driven to Hell in groups till, when they reach it, the gates thereof will be opened (suddenly like a prison at the arrival of the prisoners). And its keepers will say, "Did not the Messengers come to you from yourselves, reciting to you the Verses of your Lord, and warning you of the Meeting of this Day of yours?" They will say: "Yes, but the Word of torment has been justified against the disbelievers!"

[71] Et ceux qui avaient mécru seront conduits par groupes à l'Enfer. Puis, quand ils y parviendront, ses portes s'ouvriront et ses gardiens leur diront: "Des messagers (choisis) parmi vous ne vous sont-ils pas venus, vous récitant les versets de votre Seigneur et vous avertissant de la rencontre de votre jour que voici?" Ils diront: si, mais le décret du châtiment s'est avéré juste contre les mécréants.

[71] "Und die Ungläubigen werden in Scharen zu Dschahannam geführt werden, bis daß, wenn sie sie erreichen, sich ihre Pforten öffnen und ihre Wächter zu ihnen sprechen: ""Sind nicht Gesandte aus eurer Mitte zu euch gekommen, um euch die Verse eures Herrn zu verlesen und euch vor dem Eintreffen dieses euren Tages zu warnen?"" Sie werden sagen: ""Ja!"" Doch das Strafurteil ist in Gerechtigkeit gegen die Ungläubigen fällig geworden.

(٧١) سيق: من الفعل ساق يسوق، أي قاد. ومنه السائق: مَن يقود الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق ٢١] ومنه المساق: أي المسير والانقياد كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة ٢٩، ٣٠] . وتُستعملُ لفظة (سيق) لكلا الفريقين الكافرين والمؤمنين. لكن شتّان ما بين الحالتين. فالمؤمنون يُساقون إلى الجنة سوْق إعزاز وتكريم، والكافرون يُساقون إلى النار سوْق إذلال ومهانة !!.

وفي قوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ . لجهنم سبعة أبواب. كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر ٤٣، ٤٤] . وتُفتَح هذه الأبواب بمجرد وصولهم إليها مثلما يُفتحُ بابُ السجن للمجرم حال وصوله إليه !!. وحينئذ ينهال عليهم التأنيب والتقريع :

- ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك ٨]
- ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية ٣١]

- ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ [المؤمنون ١٠٥]
- ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون ١٠٨]
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام ١٣٠]

وفوق هذا التأنيب يُقال لهم:

- ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ [السجدة ١٤]
- ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة ٢٠]
- ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران ١٨١]
- ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ ٣٠]
- ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾ [الطور ١٦]

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

[72] It will be said (to them): "Enter you the gates of Hell, to abide therein. And (indeed) what an evil abode of the arrogant!"

[72] "Entrez, (leur) dira-t-on, par les portes de l'Enfer, pour y demeurer éternellement". Qu'il est mauvais le lieu de séjour des orgueilleux!

[72] ""Es wird gesprochen werden: ""Geht denn ein durch die Pforten der Dschahannam und bleibt darin auf ewig! Und übel ist die Wohnstatt der Hochmütigen.""

(٧٢) نعم ادخلوا ابواب جهنم، ووالله إنكم تستحقون: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر ٧٥] .

كنتم تسرحون على ظهر الارض وتمرحون، تستكبرون وتظلمون وكأنكم باقون إلى الأبد !

كنتم لا تستحيون ولا تخجلون من فعل المنكرات. نسيتم أن الله أوجدكم من العدم، وأسكنكم على ظهر هذا الكوكب (الأرض) ، ورحتم تتنعمون بنعمه وعطاياه، وأراد منكم أداء جملة أمور في إطار حياتكم، ولكنكم رفضتم واعتبرتم وجودكم على ظهر الأرض أشبه

ما يكون بجلسة سمر أو نزهة ترويح عن النفس تأكلون وتلعبون، وكأن الأمر كله عبث وفوضى !!. فاليوم تجمعون كقطيع الخراف، ويُلقى بكم في نار جهنم جزاء ما اقترفتم من جرائم في الدنيا !!..

كلكم تُلقوْن في النار أنتم وكل مَن على شاكلتكم من المنافقين والظالمين والفاسقين والغاوين !! ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الشعراء ٩٤، ٩٥]

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

[73] And those who kept their duty to their Lord will be led to Paradise in groups, till, when they reach it, and its gates will be opened (before their arrival for their reception) and its keepers will say: Salâmun 'Alaikum (peace be upon you)! You have done well, so enter here to abide therein."

[73] Et ceux qui avaient craint leur Seigneur seront conduits par groupes au Paradis. Puis, quand ils y parviendront et que ses portes s'ouvriront ses gardiens leur diront: "Salut à vous! vous avez été bons: entrez donc, pour y demeurer éternellement".

[73] ""Und jene, die ihren Herrn fürchteten, werden in Scharen in das Paradies geführt werden, bis daß, wenn sie es erreichen, seine Pforten sich öffnen und seine Wächter zu ihnen sprechen: ""Friede sei auf euch! Seid glücklich und geht dort ein und weilt auf ewig darin.""

(٧٣) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾. وهذه مثل قوله تعالى:

- ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾[الأحزاب ٤٤]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾[الفرقان ٧٥]

- ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل ٣٢]
- ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد ٢٤] .

حقاً ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ : طابت أنفسكم، وطابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم، وطابت نياتكم ومقاصدكم. .

وسلام عليكم بما صبرتم في الدنيا !!

صبرتم على السجن والاعتقال والتعذيب، واعتقال أبناءكم وذويكم، وهدم بيوتكم، ومصادرة أراضيكم وأموالكم !!..

وصبرتم على التهجير والتشريد والإبعاد عن أوطانكم، والمنع من السفر وحرية التنقل، وحرية الكلام والتعبير !!..

وصبرتم على الحصار والجوع، والفقر والمرض، ونقص الأموال وموت الولد وفراق الأحبة !!..

وصبرتم على سخرية الظالمين والكافرين منكم، واستهزاءهم بكم والتهكّم عليكم !!.

وصبرتم على ألم الطاعة في العبادة، في الصوم والحج وقيام الليل.

وصبرتم على غض البصر، ومدافعة الشيطان والشهوات وأهواء النفس.

وصبرتم على أذى الناس ومداراة الآخرين وكظم الغيظ.

الآن ادخلوا هذه الجنة فهي مفتوحة الأبواب، ومعدّة ومهيئة لاستقبالكم مسبقا: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ص ٥٠].

إن جميع تلك الآلآم والمنغصات التي عانوْا منها وصبروا عليها في الدنيا، سوف ينسوْنها بمجرد وصولهم إلى أبواب الجنة.

يقول رسول الله ﷺ: " يُؤتى بأنعم أهل الدنيا مِنْ أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صَبغة (أي يُغمس غمسة) ثم يُقال له: هل رأيْتَ خيراً قط ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قط ؟.

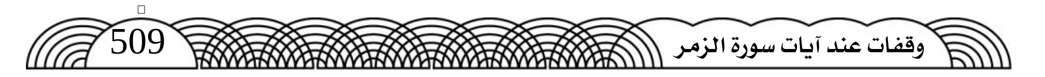
فيقول: لا والله يا رب.

ويُؤتى بأشد الناس بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيُقال له: هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مرّ بك شدة قط ؟

فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدّة قط!!."

أما الكافرون فيُقالُ لهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأحقاف ٢٠] .

أخذوا حظهم من المتع والملذات في الدنيا: أكلوا أشهى المأكولات، وناموا في أفخم الفنادق، ولعبوا على الشواطيء البلورية،



وعاقروا الخمر والنساء، وركبوا متن الطائرات المجهزة بأفضل وسائل الراحة. .. أما اليوم فلا نصيب لهم إلا النار !!.

لا دارَ للمرءِ بعد الموتِ يسكنُها إلا التي كان قبل الموت يبنيها

فإنْ بناها بخير طابَ مَسْكنُهُ وإنْ بناها بشرّ خابَ بانيها

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

[74] And they will say: "All the praises and thanks are to Allâh Who has fulfilled His Promise to us and has made us inherit (this) land. We can dwell in Paradise where we will; how excellent a reward for the (pious good) workers!"

[74] Et ils diront: "Louange à Allah qui nous a tenu Sa promesse et nous a fait hériter la terre! Nous allons nous installer dans le Paradis là où nous voulons". Que la récompense de ceux qui font le bien est excellente!

[74] ""Sie werden sagen: ""Alles Lob gebührt Allah, Der Seine Verheißung an uns erfüllt hat und uns die (Paradies-) Landschaft zum Erbe gegeben hat, so daß wir im Paradies wohnen können, wo immer es uns gefällt."" Wie schön ist also der Lohn derer, die (dafür) vorgesorgt haben.

(٧٤) الوقفة في هذه الآية عند كلمتين. الأولى: ﴿صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾.

والثانية: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾.

في قوله تعالى على لسان المتقين في الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ حقاً صدق الله وعده !! وعد بأن هناك بعثاً ونشوراً، وبأن هناك جنة وناراً.

والآيات التي ذكرت وعد الله تعالى وصدقه في تنفيذ الوعد كثيرة، منها:

- ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ [مريم ٦١]
- ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء ١٠٣]
- ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء ١٠٤]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف ١٦]
- ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾ [الفرقان ١٦]
- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ

وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة ١١١]

- ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس ٤]

وأما الوقفة الثانية فعند قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ !.
هذه الكلمة عجيبة، مثيرة للدهشة، وملفتة للإنتباه !.

ومعنى ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾: أي كأنّ أرض الجنة صارت من غيرهم إليهم فملكوها وتصرفوا بها. أي يرث أهل الجنة عن أهل النار مقاعدهم التي كانت مخصصة لهم في الجنة ـ لو آمنوا ـ.

ويرث أهل النار عن أهل الجنة مقاعدهم في النار التي كانوا سيدخلونها لو أنهم كفروا ولم يؤمنوا.

وحيث أنّ عدد الكافرين الذين سيدخلون النار كبير، فهذا يعني أن حصتهم التي تخلوا عنها في الجنة كبيرة، وبالتالي تصبح هذه الحصة من نصيب المؤمنين في الجنة.

وقد وُصفتْ الجنة بأنّ عرضها كعرض السماوات والأرض ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ (الحديد ٢١] في حين أن النار لم توصف بذلك، ومع هذا فأعداد الداخلين لها أعداد غفيرة: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ [ق ٣٠]

من هذه الآية الكريمة نستنبط أن جهنم ستكون مكتظة ومزدحمة بأصحابها. ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان ١٣].

الخلاصة: الأصل أن يدخل الجنة التي عرضها السماوات والأرض كل الناس، لأن الله تعالى يدعو دائماً إلى دار السلام ولا يريد لعباده الكفر، ولكن بسبب كفر الغالبية الساحقة منهم، باختيارهم هم، فقد حرموا من حصتهم المخصصة لهم في الجنة، فدخلوا النار.

كذلك كان هناك عدد من الكافرين مرشحين لدخول النار، لكنهم آمنوا في الدنيا قبل موتهم فنجوا، فقدّر الله لهم دخول الجنة مع المؤمنين.

والآيات التي تتحدث عن هذا الميراث كثيرة منها قوله تعالى :

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون ١١]
- ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ٤٣].
- ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء ٨٥].
- ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف ٧٢].

أسأل الله تعالى أن يورثنا الفردوس الأعلى بفضله وكرمه.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

[75] And you will see the angels surrounding the Throne (of Allâh) from all round, glorifying the praises of their Lord (Allâh). And they (all the creatures) will be judged with truth. And it will be said, "All the praises and thanks are to Allâh, the Lord of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists)."

[75] Et tu verras les Anges faisant cercle autour du Trône, célébrant les louanges de leur Seigneur et Le glorifiant. Et il sera jugé entre eux en toute équité, et l'on dira: "Louange à Allah, Seigneur de l'univers".

[75] ""Und du wirst die Engel auf allen Seiten den Thron umgeben sehen, wo sie das Lob ihres Herrn preisen. Und es wird zwischen ihnen in Gerechtigkeit entschieden werden. Und es wird gesprochen werden: ""Alles Lob gebührt Allah, dem Herrn der Welten.""

(٧٦) سنقف في هذه الآية مرتين: مرّة عند (الملائكة) ، ومرة عند (حَمْدِ الله) .

أما الملائكة :

- هم رُسُلُ الله إلى الأنبياء أنزلوا معهم الكتب إليهم.
- خَلقهم اللهُ تعالى قبل البشر وقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة ٣٠]

- أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم، سجود تحية لا سجود عبادة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة ٣٤] .
- خُلقوا من أجل الطاعة الخالصة لله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم ٦]
- يظهرون أحياناً في صورة بشر، كما في قصة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم ١٧] .
- مكان إقامتهم السماء، ينزلون منها إلى الأرض بأمر من الله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم ٦٤]
- خلقهم الله تعالى ذوي أجنحة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر ١]
- لهم وظائف ومهامّ متعددة :

▪ منهم مَنْ ينزل بالوحي على الرسل وهو جبريل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء ١٩٢ – ١٩٤]

- ومنهم من يقبض الأرواح عند الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة ١١].
- ومنهم الموكل بالنفخ في الصور مرتين: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر ٦٨)
- ومنهم من يحمل عرش الرحمن: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)﴾ [الحاقة ١٧].
- ومنهم المشرفون على استقبال وترحيب أهل الجنة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد ٢٣، ٢٤].
- ومنهم المشرفون على أهل النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[التحريم ٦] .
- ومنهم من يكتب ويُدوّن أعمال الإنسان في الدنيا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار ١٠، ١١].

وأخيراً نقف عند كلمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ :

هي أول كلمة افتتح الله بها الوجود: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، وهي آخر كلمة اختتم بها الوجود: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾.

والحمد لله هي رأس الشكر، وهي رداء الرحمن، وهي أفضل الدعاء. فالحمد لله في الأولى والآخرة.

- قال رسول الله ﷺ: " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ ".
- قال آدم عليه السلام عندما عطس: الحمد لله.
- وقال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون ٢٨] .
- وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم ٣٩]

- وقال داود وسليمان عليهما السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل ١٥]
- وقال الله تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء ١١١]
- وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر ٣٤]

وأنا أقول: الحمد لله الذي أعانني على إتمام هذا الكتاب بفضله وكرمه.

أحمدك ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً يليق بعظمتك وكبرياءك.

سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة بأهم المراجع

٢٤. القرآن الكريم
٢٥. تفسير القرطبي
٢٦. تفسير الجلالين
٢٧. تفسير السعدي
٢٨. التفسير الواضح ـ د. محمد حجازي
٢٩. في ظلال القرآن ـ سيد قطب
٣٠. زبدة التفسير ـ د. محمد الأشقر
٣١. رياض الصالحين ـ الإمام النووي
٣٢. منهاج الصالحين ـ عز الدين بليق
٣٣. من وصايا الرسول ـ طه عفيفي
٣٤. المعجم الوسيط ـ إخراج مجموعة مؤلفين
٣٥. قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار
٣٦. وقاية الإنسان من الجن والشيطان ـ وحيد عبد السلام
٣٧. المستطرف ـ الأبشيهي
٣٨. الإنسان بين العلم والدين ـ شوقي أبو خليل
٣٩. موسوعة المشاهدة العيانية [الكون] ـ د. عصام المياس
٤٠. علوم الأرض والبيئة ـ مجموعة مؤلفين
٤١. ماذا بعد الموت ـ شاكر عبد الجبار
٤٢. هندسة الزلازل والبيئة العمرانية ـ د. عادل عوض
٤٣. تعريف عام بدين الإسلام ـ علي الطنطاوي
٤٤. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ـ إبن قيم الجوزية
٤٥. من بلاغة القرآن ـ د. أحمد بدوي
٤٦. الفوائد ـ إبن قيم الجوزية.



الفهرس